ناتشو كاريتيرو

NACHO CARRETERO

قفازات مخمليّة قذرة

FARIÑA

تُرجم إلى 26 لغة عالمية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قفازات

مخملية قذرة

FARIÑA

قفازات

مخملية قذرة

FARIÑA

ناتشو كاريتيرو

NACHO CARRETERO

ترجمة

جلال عطّاس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني

FARIÑA

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Libros del K.O

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2017 by Nacho Carretero Pou

All rights reserved

Arabic Copyright © 2018 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر **2018** م – **1440** هـ

ردمك 978-614-02-3621-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبـجـد غرافيكس، بيروت – هـاتف (1-961+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف (+961-1) 786233

المحتويات

لأجل الأرض والبحر ومصبّ النهر	15
البحر: أساطير شاطئ الموت	19
الأرض: الحدود الجافة، السوق السوداء	24
النهر: الحدود الرطبة	29
الدخان	35
فريق سيلتا مارلبورو	37
«المهربون هم أكثر الناس تكريما في العالم»	40
طبق الوينستون	43
رابطة البيزيتا	47
«مهرب مثل أبي»	51
أسياد الدخان	57
عندما التقى رئيس مقاطعة غاليسيا كبار المهربين	66
القفزة	73

لم يكن لدينا أدنى فكرة	75
الرواد	79
المافيا الغاليسية	89
الصديق الكولومبي	91
أروسا، أرض المخدرات	104
الزعماء	115
سيتو مينيانكو، سجين سياسي	117
لاوريانو أوبينيا وقبقابه	127
آل تشارلين، عصابة على النمط الصقلي	133
مارسيال دورادو، في يخته مع الرئيس	142
المد الأبيض	151
دعونا نعشْ	153
انهض!	159
عملية نيكورا	173
الأحاجي	175
الغارة الكبرى	185
تعيش المخدرات، يستمر القتال	195

ما بعد عملية نيكورا 197

الآخرون (بعيدا عن مينيانكو وأوبينيا وآل تشارلين) 206

سقوط إمبراطورية أوبينيا 215

محاكاة المافيا 225

الناركوبوليتيكا - سياسة المخدرات 227

القانون المخدَّر والقضاء المخدَّر 234

عنف المخدرات 241

إلى قبر مفتوح 249

2001-2003: جنس تجارة المخدرات الجماعي في غاليسيا 251

ضربة تاين الأخيرة: سقوط الزعماء التاريخيين مينيانكو وتشارلين ومارسيال دورادو 257

تسليم مقاليد الأمور 263

نقل المخدرات 265

الربابنة 268

عملية تابابيا 278

العصابات 281

آثار الدقيق 297

العودة الأبدية 299
منطقة معادية 306
من يقود اليوم في منطقة المصب 312
الطاعون 323

أنتون. أهلا بك في بالوما،

شكرا.

«سجّلوا كل شيء. سينهض وغدٌ ما، في يوم ما، ويقول إن ذلك لم يحدث يوما».

دوايت د. آيزنهاور، بعد تحرير أشفيتز.

لا يزال المسنون الذين يتنقلون على الحدود يروون هذه الحكاية. لقد كان أحد المسنين يعبر تلك الحدود الفاصلة بين غاليسيا والبرتغال على دراجته الهوائية يوميا، ودائما ما كان يتدلى من كتفه كيس. في كل مرة عبر فيها الحدود، تعود جنود الحرس الوطني أن يسألوه عما هو داخل هذا الكيس، وكان الرجل الصبور يخبرهم دائما وبهدوء تام بما يحمله قائلا: إنه فحم. فيفسح له الجنود الطريق وهم يكتمون غيظهم.

يتكرر المشهد على الطرف الآخر، يتفحص حرس الحدود البرتغاليون (والذين يعرفون من قبل المحليين باسم الغواردينياس) كيسَ الرجل ويتركونه يمضي على دراجته. لقد تكرر هذا الأمر طوال سنوات حتى أن حرس الحدود بدوا عاجزين عن اكتشاف أية مواد مهربة.

في الحقيقة، لم يكونوا غير قادرين على العثور على أية مواد مهرَّبة فقط، بل غالبا ما كانوا يلطخون ملابسهم الموحّدة بالفحم في كل عملية تفتيش جديدة. تماما كما يحدث في قصة «بوي»، وفيها أن رجال الشرطة يفتشون منزلا تفتيشا دقيقا للبحث عن رسالة، في حين أن هذه الرسالة كانت كل الوقت أمام عيونهم. كذلك فإن سر رجل الحدود كان كل تلك السنوات على مرأى الجميع. لقد كان يهرب على الدراجة الهوائية.

لأجل الأرض والبحر

ومصبّ النهر

«من السفن الرومانية حتى الهيبة[1]،

كل شيء يغرق هنا».

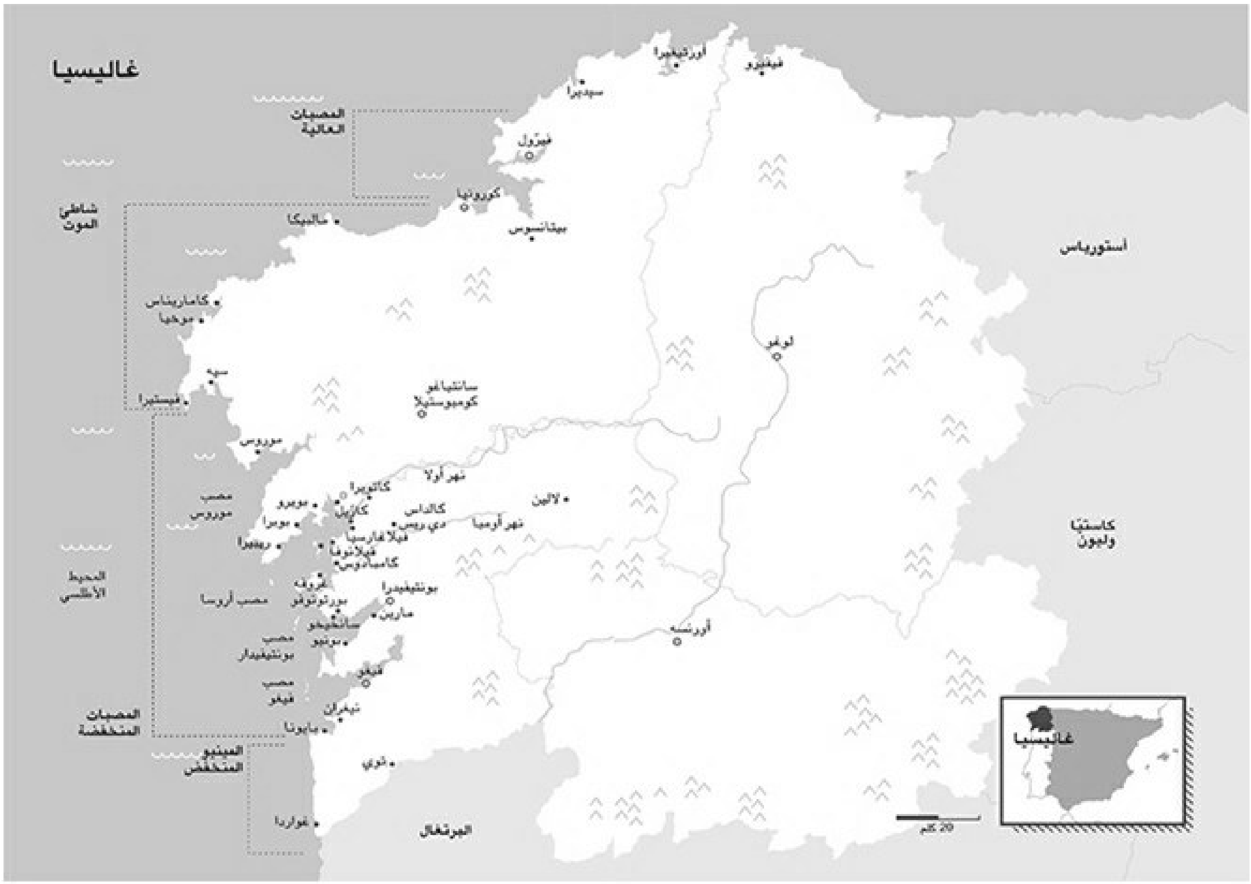

غاليسيا
المصبات العالية
شاطئ الموت
المحيط الأطلسي
المصبات المنخفضة
المينيو المنخفض
سيديرا
أورتيغيرا
فيفيرو
فيرّول
كورونيا
بيتانسوس
مالبيكا
كامارينياس
موخيا
سيه
فيستيرا
موروس
سانتياغو كومبوستيلا
نهر أولا
كالدوبيرا
موروس
مصب موروس
موبيرو
نويا
ريبيرا
كامبادوس
كالداس دي رييس
نهر أوميا
لالين
مصب أروسا
بونتيفيدرا
ماريين
مصب بونتيفيدرا
مصب فيغو
فيغو
نيغران
بايونا
توي
غواردا
البرتغال
لوغو
أورنسيه
أستورياس
كاستيّا وليون
20 كلم

البحر: أساطير شاطئ الموت

من الصعب تصديق الأمر، لدى غاليسيا شريط ساحلي بطول 1498 كيلومترا. أكثر امتدادا وطولا مما لدى الأندلس أو جزر البليار مجتمعين. إذا ما نظرت إلى الخريطة على نحو دقيق، فإنك ستكتشف أن الشواطئ الغاليسية ليس لديها ميلٌ نحو الخطوط المستقيمة. فهي كثيفة الخلجان والجونات، الأمر الذي يجعل منها مثالية من أجل دخول السفن أو خروجها من دون أن يلاحظها أحد. يدعى أحد أقسام هذا الشاطئ «شاطئ الموت». وعلى شاطئ الموت هذا بدأت هذه القصة.

على هذه الشواطئ تنتشر القرى والبلدات التي تبدو لك متخفية وبعيدة عن تأثير الرياح وأمواج البحر وأنوائه، وتكاد العلاقات فيما بينها تنعدم إلا تلك التي فيها علاقة المنافسة الأخوية بين صيادي السمك وجامعي المحّار. وقد وهب الموقع البعيد هذه المنطقةَ لهجة وأصواتا غاليسية مميّزة، ليس من السهل فهمها. جوهرة تاج هذه المنطقة هي رأس فيستيرا، التي ظن الرومان أنها نهاية الأرض، وكانت ركيزة كارونتي بالنسبة إلى اليونانيين، ونقطة البداية لطريق سانتياغو بالنسبة إلى المسيحيين، ورأسا جميلا يعوم في المحيط الأطلسي بالنسبة إلى الزائر العادي.

لطالما عاشت هذه المنطقة من غاليسيا، التي تمتد تقريبا حتى مدينة كورونيا، معتمدة على البحر، وصيد الأسماك، وحتى أيضا على بضائع السفن التي كانت تبحر في المنطقة أمام سواحلها. لم يكن من الضروري الانتظار حتى ترسو السفن في الموانئ المهمة، مثل كورمي، أو لاكسي، أو موخيّا، أو كامارينياس، ففي بعض الأحيان كان يكفي للحصول على هذه البضائع الهجوم على السفن في البحر أو انتظار غرقها.

إن تعداد حطام السفن الغارقة أمام شاطئ غاليسيا الذي عُرف بشاطئ الموت يشير إلى أن عددها يبلغ 927، وذلك منذ العصور الوسطى حتى الوقت الحالي. نتمنى لو كان هذا هو العدد لا أكثر، كما يقول السكان المحليون بشكل متكرر. هناك كتاب شامل يجمع هذه القصص وهو بعنوان «شاطئ الموت، بلد من الأحلام وحطام السفن»، وقد جمع قصصه الباحث رافائيل ليما. وفيه يعرض هذا الباحث لأكثر الأحداث الغريبة التي حصلت على هذه الشواطئ.

***

في نهايات القرن التاسع عشر، جنحت السفينة الإنكليزية تشامويس قرب لاكسي. ويُحكى أن أحد السكان المحليين اقترب بقاربه الصغير الخاص بالصيد لإنقاذ الطاقم، وعندما وصل، سأل القبطانَ إذا ما كان يحتاج إلى مساعدة. وظن القبطان أنه كان يسألهم عن اسم القارب، وأجاب: تشامويس.

ونتيجة سوء فهم، اعتقد البحّار الغاليسي أن السفينة كانت تحمل ثيرانا، فأطلق تحذيرا، وبعد دقائق قليلة هجم مئات المحليين على السفينة بالسكاكين والمناجل. في الفترة نفسها انتهى المطاف بالسفينة البريام عالقة في مالبيكا، وتناثرت الصناديق التي كانت تحملها والمليئة بالساعات المصنوعة من الذهب ومن الفضة على الشاطئ واختفت خلال فترة قصيرة. كذلك ظهر بيانو ضخم على الرمال، اعتقد السكان المحليون أنه أيضا صندوق لكنه أضخم حجما، فقاموا بتحطيمه بواسطة السواطير، لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا شيئا مثله من قبل.

أما قصة الكومبوستيلانو الشهيرة فليست قصة تحطم سفينة بالمعنى الدقيق للكلمة. فعندما دخلت السفينة مصب النهر وقبل أن تصل إلى الساحل، علقت في خليج رملي أمام شواطئ كابانا دون أن تُصاب بأي ضرر. أسرع السكان المحليون وصعدوا إلى متن السفينة، فلم يجدوا طاقمها، بل كل ما وجدوه عليها كان مجرد هر أليف.

واحد من أسوأ الأحداث التراجيدية التي تُذكر حصل في العام 1890، عندما تحطّمت السفينة الإنكليزية سربنت في كامارينياس ومات طاقمها المؤلف من 500 شخص. إنهم مدفونون في المقبرة التي تدعى مقبرة الإنكليز، مقبرة خلابة في وسط مشهد طبيعي رائع من الشواطئ والمنحدرات. وقبل عشرين سنة، علقت سفينة القبطان أمام رأس فينيستيريه (فيستيرا في الغاليسية)، وتركت 400 جثة مزروعة على الشواطئ.

إن الرعب الآتي من حطام السفن لم يأتِ دوما على شكل جثث غارقة. في العام 1905، غرقت السفينة باليرمو التي تحمل آلات الأكورديون الموسيقية، أمام موخيّا. ويحكى أنه في ليلة الغرق تلك صدحت أصوات الموسيقى من الأكورديونات الغارقة فأرعبت السكان المحليين.

وفي العام 1927، جنحت سفينة النيل قرب كاميل، وكانت محملة بآلات الخياطة، والأقمشة، والسجاد، وأثاث العربات. وبالرغم من قيام شركة الشحن بخطة طارئة من أجل إنقاذ البضائع، لكنها لم تنجح في ذلك: ففي غضون أيام، نهب السكان المحليون كامل البضائع. ومما هو جدير بالذكر أن سفينة النيل تلك، كانت تحمل - من ضمن ما تحمل - صناديق من الحليب المكثّف. تؤكد القصة أن السكان المحليين لم يكونوا قد رأوا في حياتهم حليبا مكثّفا وظنوا أنه طلاء. فاستخدموا الحليب المكثف لإضفاء رونق خاص على منازلهم، وعندما هاجم الذباب هذا الطلاء الحلو المذاق ظن السكان أن لعنة قد حلت بهم بسبب ما اقترفته أيديهم.

هنالك ذكرى أخرى من ذكريات السكان المحليين وهي حطام السفن المأساوي في العام 1596، فخلال عاصفة هوجاء، غرقت 25 سفينة من البحرية الإسبانية. ومات أكثر من 1700 شخص غرقا. ترسم حكايات ذلك العصر لوحة من الرعب، تومض فيها صور الجثث، وبقايا السفن، والناجين الصارخين قبل أن يغرقوا وتبتلعهم الأمواج.

تطول اللائحة جدا. تطول إلى حد أن الزمن في شاطئ الموت صار يؤرَّخ بتحطم السفن: سنة الـ «كاسون» (التي استدعى غرقها إخلاء موخيّا عام 1987، وذلك جراء شك أن السفينة كانت

تحمل مواد كيميائية خطيرة)، والسنة السابقة لل- «هيبة»، والسنة التالية لل- «سربنت». وهكذا فإن السكان المحليين كانوا يؤرخون حياتهم على وقع مآسي تلك السفن.

***

يقول رامون فيليلا فيريّو، والمعروف باسم «مونشو السمك»، وهو غطّاس مخضرم من موخيّا: «عندما كنت طفلا، كنّا نذهب بثياب السباحة وكنزة صوفية إلى منحدرات شاطئ الموت. إذا أخذتك الموجة، فلن تعود أبدا. اليوم مع بدلات الغوص أصبح الأمر أكثر أمانا، لكن على الرغم من ذلك، فلا يزال الغطاسون يموتون كل سنة».

كانت مجموعة مونشو مؤلفة من 30 شخصا يخرجون للغوص لالتقاط أصداف البيرسيبي[2] في السبعينيات. أما اليوم فلم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى 14 شخصا. «لطالما كانت الحياة هنا صعبة يا رجل. لم نكن نملك ما يكفي من الخبز. كان لدينا كثير من المحار، لكن لم يكن لدينا خبز. هذا غريب، أليس كذلك؟ وأيضا صعب جدا».

لقد كان مونشو الذي تقاعد منذ فترة شاهدا على عشرات السفن المتحطّمة. يقول: «لا يتوقف الأمر هنا عند هذا، منذ السفن الرومانية حتى سفينة الهيبة. كل شيء يغرق هنا». يضحك ويتابع: «كانت جدتي تحكي لنا قصصا كيف كانوا يقطعون أصابع وأيدي البحارة الغارقين لكي يأخذوا الخواتم والساعات».

في القرن التاسع عشر تحطمت ثلاث سفن إنكليزية على شاطئ الموت، وعندما ظهرت جثث بحارتها على الشاطئ كانت مبتورة الأصابع. هناك لا بد من الحديث أيضا عن القراصنة الذين كانوا يكرسون أنفسهم لحرف مسارات السفن ومهاجمتها. كانوا يشعلون نيرانا أو يعلقون مشاعل مصنوعة من قرون الثيران، ويجلسون في نقاط استراتيجية على منحدرات شاطئ الموت. وعندما تجنح السفن، كانوا يصعدون على متنها بكل كبرياء.

عندما وصلت قصص هذه الفظائع إلى بريطانيا سمّت الكاتبة آنيت ميكينغ، وهي صديقة للملكة فيكتوريا ايوجينيا، هذه الزاوية المخفية من العالم «شاطئ الموت» في بدايات القرن العشرين.

وصلت الأخبار سريعا إلى الصحف البريطانية الرئيسية، ومن هناك قفزت الأخبار إلى صحف مدريد، والتي تبنت الاسم بدورها. طلبت حكومة لندن من إسبانيا أن تقوم باتخاذ الإجراءات اللازمة ضد «مافيات القراصنة».

يقول الباحث رافائيل ليما: «لم يكن هناك مافيا. لم يكن هناك عصابة من القراصنة الذين يكرسون أنفسهم بشكل منظّم للهجوم على السفن. ليس في ذلك أي دقة تاريخية». في معرض محاولته إضفاء المنطق على ما يتداول، مشيرا إلى أنها أساطير وقصص منقولة شفهيا، قد يكون من المستحيل التأكد من صحتها في كثير من الأحيان. برأيه، كان الأمر عبارة عن أفعال غير مترابطة، وهجمات متفرقة. أما السحر الذي يدور حول بعض قصص حطام السفن هذه فهو قابل للنقاش.

الأرض: الحدود الجافة، السوق السوداء

في الوقت الذي كان فيه السكان المحليون يغيرون على السفن - حسبما تشير القصص المشكوك في صحتها - عند شاطئ الموت، لم يكن سكان المناطق الداخلية في غاليسيا يضيعون الوقت. ففي الحدود الجافة، كما تعرف المنطقة الحدودية بين غاليسيا والبرتغال، كانوا يتاجرون بشكل غير قانوني بكل أنواع السلع: الأدوية، والمال، والطعام، والخردة، والمعادن، والأسلحة وحتى المهاجرين.

إن الحدود الإسبانية البرتغالية في أورينس غير واضحة المعالم. يعود ذلك إلى الروابط الثقافية واللغوية المتينة بين الطرفين، وإلى الشكل الطبوغرافي غير المحدد للخط الحدودي. حتى بدايات القرن التاسع عشر، كان هناك قرى نائية بين فيرين وشافيس، التي كان سكانها المحليون يجهلون إلى أي بلد ينتمون. في الحقيقة، إنهم لم يهتموا لهذا الأمر. أما الحالة الأكثر تطرفا لوضع عدم تحديد الهوية هذا، فكانت تتجلى في منطقة تدعى كوتو مسيتو.

لقد تشكلت كوتو مسيتو من ثلاث قرى: سانتياغو ومياوس وروبياس، مثلث - تبلغ مساحته 27 كيلومترا مربعا - ضائع بين الجبال وملاصق للحدود البرتغالية. دُعيت هذه المنطقة شبه الخالية بأرض الجريمة في العصور الوسطى. كانت هذه الصفة تحصل عليها بعض المناطق الحدودية أو بعض المناطق التي خربها الطاعون أو الحرب، وذلك من أجل توطين السجناء الذين أطلق سراحهم فيها. في القرن الحادي عشر نزل حوالى ألف شخص منطقة كوتو مسيتو، ومع مرور الزمن تشكّلت منطقة ذاتية الحكم، لم ترد لنفسها أن تكون مقاطعة تابعة للبرتغال ولا لمملكة غاليسيا.

عندما اتحدت غاليسيا بمملكة ليون وبعد ذلك بمملكة قشتالة، ترسخت حالة التشويش التي كانت عليها كوتو مسيتو. ومنذ القرن الثالث عشر، وفي مواجهة سلبية هذين التاجين، تصرف السكان المحليون في هذه المنطقة كرعية مستقلة: كانوا يختارون ممثليهم، ولم يدفعوا الضرائب لأي من المملكتين، كما أن المملكتين لم تستدعيا أحدا من هؤلاء السكان إلى الخدمة في جيشها.

بدون وجود أي وثائق رسمية، تقبل جميع الأطراف استقلال المقاطعة الصغيرة بحكم الواقع. وتحولت كوتو مسيتو إلى منطقة تجارة حرة بين إسبانيا والبرتغال. لم يكن الحرس الوطني الإسباني ولا حرس الحدود البرتغالي يشرفون على السلع التي كانت تمر في الطريق الذي كان يدعى: «الطريق المبارك». كان هذا طريقا للمهربين، جعل الحلم حقيقة.

بقيت منطقة كوتو مسيتو في الجحيم الجيوبوليتيكي حتى العام 1864 حين وقّعَت كل من إسبانيا والبرتغال اتفاقية الحدود، التي نصت عليها اتفاقية لشبونة. قُسّمت كوتو ميستو بين البلدين. وكان ذلك نهاية للأندورا الغاليسية، منطقة مستقلة استمرت ثمانية قرون، وقد تطرق فيلم رودولفو غونساليس فيلوسو «التخوم: آخر الغاليسيين غير الخاضعين». لهذا الموضوع.

رسم تقسيم كوتو مسيتو - رسميا - الخط الحدودي الذي لا يزال حتى اليوم يفصل أورينس عن البرتغال. وبقيت بعض العائلات منفصلة، وتجاهل البعض الآخر أمر الحدود المتفق عليها، وتحركوا عبر الحدود التي كان السكان المحليون يعرفونها. وكان السكان في مقاطعات متعددة من المناطق الحدودية مثل غيريس سوريس يُقيمون لقاءات محلية مرة في السنة لإعادة تحديد الخط الحدودي بين غاليسيا والبرتغال وذلك تبعا للأراضي الزراعية أو البيوت المبنية حديثا في القرى.

حسنا، بينما كانت الجهات الرسمية ترسم الحدود، كان السكان المحليون يُحكمون من قبل حدود أخرى قرروها هم بأنفسهم. خلال الحرب الأهلية، قام نظام فرانكو بتحصين الحدود، وقضى على نفاذيتها، وحرّم تبادل وتجارة السلع. كان الكهنة الوحيدين الذين يملكون حق عبور الحدود بِحريّة. وبعض الذين كانوا يعبرون الحدود، عبروها مرة واحدة ولم يعودوا.

بعد الحرب الإسبانية فصلت الحدود الثابتة بوضوح بين منطقتين متباينتين بشكل واضح: ففي الوقت الذي حافظت فيه المنطقة الواقعة ضمن الحدود البرتغالية على مستوى حياة مقبول، عانت المناطق الريفية في غاليسيا من فقر مدقع. لم يكن هناك نقص فقط في الأدوية أو الوقود، بل كان هناك أيضا نقص في الطعام والكهرباء وقطع الغيار الكهربائية. وكانت منتجات مثل القهوة، وأدوات مثل الولاعات، من الرفاهيات التي لم يحصل عليها إلا قليل من الناس. من البيوت الغاليسية ذات المصابيح التي تعمل على الزيت نظر السكان إلى البيوت البرتغالية ذات المصابيح الكهربائية. وكنتيجة مباشرة لعدم المساواة هذه بين طرفي الحدود والبطالة انطلقت عملية التهريب.

كانوا يتبادلون الأطعمة (تهريب البطون) والأدوية والمعادن والقطع الميكانيكية والأسلحة. ومن أجل حمولة واحدة من الأطعمة التي نجحوا في تمريرها عبر الحدود كانوا يدفعون حوالى 49 بيزيتا. وإذا كانت الحمولة تتألف من خردوات أو من مواد بناء، فكان المبلغ يرتفع إلى 300 بيزيتا، أي ما يعادل راتب عامل غاليسي في تلك الفترة.

إن تساهل الحرس الوطني في منطقة الحدود الجافة كان أحد الأسباب التي سهلت عبور السلع من طرف إلى آخر. ففي حانات القرى الحدودية كان المهربون يلتقون بالحرس الوطني ويشربون النبيذ سوية ويلعبون الدومينو. بعد ذلك، يقوم أحد الفريقين بتهريب السلع ويقوم الفريق الآخر بملاحقته صوريا. سوف يتكرر هذا السيناريو بالصيغة نفسها خلال فترة تهريب التبغ، وحتى مع الاتجار بالمخدرات.

لم تكن هذه اللعبة لتتوقف إلا عندما يأتي المفتشون من مدريد. فيتوقف تدفق السلع لبضعة أيام، ولكن عندما يعود الحرس إلى العاصمة، كان الغاليسيون يعودون إلى الاعتماد على البنسلين

(الذي كانت البرتغال تجلبه من البرازيل) والقهوة والصابون والسمك والزيت. حتى المناديل التي كانت تأتي من إنكلترا كانت تعبر الحدود لينتهي بها المطاف على رؤوس سيدات أورينس وفيغو. في فترة ما بعد الحرب، وفي منطقة غاليسيا المتخلفة، كان التهريب طريقة للبقاء على قيد الحياة.

خلال الحرب العالمية الثانية، تأسس خط عالمي لنقل معدن التنغستن الذي كان الألمان يرغبون به من أجل الأسلحة والإنارة الحربية. تخصص الحدوديون (سكان الحدود) بأخذ هذا المعدن الثمين من المناجم الغاليسية وبيعه مقابل قطعة من الذهب للـ «شقر»، كما كانوا يدعون مبعوثي الجيش النازي الذين كانوا ينتشرون في قرى منطقة أورينس. قبل الحرب، كان الغاليسيون يستخرجون التنغستن مقابل 13 بيزيتا لكل كيلو غرام، لكن شراهة الرايخ الثالث رفعت سعره إلى 300 بيزيتا. وهذا هو الذي جعل عشرات العائلات الأورينسية غنية في تلك السنوات.

بالمناسبة، كان الجنود الآريون يعبرون على مقربة من رجال الماكيس[3] في فترة الحرب الأهلية، والذين كانوا يختبئون في الجبال الغاليسية، حيث كان السكان المحليون يبيعونهم الطعام المهرّب من البرتغال. في الوقت الحالي، تكافح ذاكرة تلك الحقبة الفريدة من نوعها لكي تبقى على قيد الحياة. تقوم اليوم مقاطعة غاليسيا ومعهد السياحة في أوبورتو بإدارة مشروع لإعادة إحياء ذكرى خطوط تهريب التنغستن عبر متاحف ورحلات. إنها فكرة جيدة في منطقة مثل غاليسيا حيث إن النسيان بات واجبا، وممارسة يومية.

النهر: الحدود الرطبة

بينما كان الأورينسيون يستخدمون الجبال وطرقاتها لتهريب كل أنواع السلع، كان سكان بونتيفيدرا يستخدمون البحر: الحدود الرطبة، ذلك المصب الواسع المليء بالجزر الصخرية الصغيرة والممرات الضيقة التي تشكل الحدود الساحلية بين غاليسيا والبرتغال عند مصب نهر مينيو.

بعد فترة الحرب كرس مئات السكان المحليين والعائلات أنفسهم للعمل في التهريب، وكانوا يستخدمون القوارب في نقل السلع وتفريغها ونسجوا شبكة من العلاقات على البر لتصريف السلع المهربة. هل يبدو ذلك مألوفا بالنسبة إليكم؟ كان التهريب في منطقة الحدود الرطبة الجنين الذي نما لاحقا ليصبح تجارة المخدرات في غاليسيا. أولئك المهربون الأوائل هم من وضعوا بنية تحتية كاملة وثقافة سوق سوداء آلت إلى حلبة سباق عندما كانت عصابات التهريب اللاتينية تبحث عن باب لتقديم المخدرات إلى أوروبا. وعلى حد وصف أحد مهربي المخدرات: «لقد ظهروا هنا، في تلك الزاوية من إسبانيا، من مخبأ رائع، استغرق بناؤه سنوات». حتى اليوم، لا يزال الغاليسيون هم المفضلون بالنسبة للمنظمات الأمريكية الجنوبية.

قبل المخدرات لم يكن الأمر عنيفا، حتى أنه لم يكن غير أخلاقي، إن التهريب في منطقة نهر المينيو، كما هو الحال في الداخل، وُلِدَ كرد فعل على مأساة فترة ما بعد الحرب. عندما يعاني مجتمع ما من تقنين في كل شيء، وعلى بعد بضعة كيلومترات، على الجهة الأخرى من الحدود تتوافر الأطعمة والأدوية، فسوف يتطور التهريب ليصل إلى حجم الحاجة. وقد ذكر براسيتيليس غونساليس في كتابه: أنا أيضا كنت مهرّبا في منطقة مصب المينيو، شاهد عيان يصف غاليسيا بحدود الزمان.

يروي براسيتيليس: «إن شعبنا الجائع كان ينظر بحسد إلى الضفة الأخرى من النهر. هناك تقع البرتغال على مرمى حجر، حيث السيارات والمنازل البيضاء وحيث كل شيء تنيره الكهرباء. بينما كنا نحن نضيء منازلنا بقناديل تعمل على الزيت ولم يكن إلا القليل منا يمتلكون دراجة هوائية». ما يصفه براسيليتيس هنا هو التناقض بين شعب يعاني من الجوع وشعب آخر يستمتع بخيرات المستعمرات الأفريقية. إن التهريب - لقد سبق وقلنا ذلك لكن يستحق الأمر إعادته - وُلد جراء العوز وقد فاضت خيراته على كامل المجتمع. كانت النساء أولى المهربات المنظَّمات. وكان سكان بيسكيرا يجولون بماشيتهم من بقعة إلى أخرى - وكانوا لا يعرفون حتى إلى أي بلد تنتمي تلك البقاع - وكانوا يمررون البضائع (السكر، والأرز، والزيت والصابون) بسهولة. ومع مرور الوقت، بدأ سكان بيسكيرا بتهريب كميات من القهوة والحبوب والأقمشة. وبذلك ولدت أولى عصابات التهريب، التي لم تكن شيئا غريبا عن السكان المحليين الذين كانوا يعرفون فورا ما إن تقترب السلطات.

سمح التهريب للكثير من المهاجرين بترك أعمالهم الموسمية في كاستيّا (قشتالة) وكتالونيا والعودة إلى الوطن، ليحلوا محل النساء في عصابات التهريب. وفي حين كان العمل والمسؤولية يكبران، كانت اللوجستيات تتعقد أكثر وأكثر، وكان من الضروري الاستعانة بالسفن والأحصنة لنقل البضائع. تحوّل البنسلين إلى البضاعة الأكثر رغبة والأكثر جلبا للأرباح، لأن مرض السل، في تلك السنوات، كان بلا رحمة في القرى الغاليسية.

منذ اللحظة الأولى، كان تواطؤ الحرس الوطني من الأمور التي جعلت العملية تمر بسلاسة. فأفراد الحرس الوطني كانوا يتضورون جوعا أكثر من السكان المحليين، وفي معظم الأحيان هم من عرضوا خدماتهم على المهربين. وفي الحالات التي لم يكن فيها اتفاق بين الحرس والمهربين، كان الحرس يقبضون على المهربين ويفرضون عليهم غرامات تصل إلى ضعف قيمة السلع المهربة. في الحقيقة، لم تكن الغرامة تفرض إلا على السلع الصالحة للاستخدام. لذا، عندما كان المهربون يرون أفراد الحرس الوطني قادمين، كانوا يمزّقون الأكياس ويدمرون المحتويات (ارتكب أحد مهربي الدجاج مرة مجزرة في غضون دقائق). كان كل هذا تمهيدا لما سيقدم عليه مهربو المخدرات لاحقا، فقد لجأوا إلى تمزيق أكياس المخدرات ورمي محتواها من القوارب إلى المياه.

في خمسينيات القرن الماضي، ارتقت عمليات التهريب على سلم التطور، وبدأت تمرر بضائع ليست من الحاجيات الأساسية. وأخذ الاقتصاد الإسباني يتنفس بينما كان الاقتصاد البرتغالي قد بدأ يختنق، لذلك أصبحت عمليات التهريب عمليات ذهاب وإياب. من غاليسيا إلى البرتغال، وبالعكس، بدأوا يمررون قطع تبديل للسيارات والنحاس والخردة والقصدير والأسلاك والبلاستيك وأسماك القد والأخطبوط والزبيب والتبغ. وكانت القوارب تُعرف باسم «الشاحنات» وكان يُدفع لها 200 بيزيتا مقابل كل عملية شحن ناجحة. ولتجنب سوء التفاهم والأفخاخ، كان أصحاب العمل ينتظرون على الطرف الآخر من الحدود. في كل مرة تصل فيها «شاحنة» محملة بالبضائع، كانوا يعطون المهرب قطعة من الألمنيوم المصكوك، التي يمكنه تبديلها بالمال لاحقا. كان الاحتضان والتقبل الاجتماعي اللذان حظيت بهما عمليات التهريب أمرا فريدا في المنطقة، وأصبح للتهريب شرعية في العديد من القرى الغاليسية والبرتغالية. وكانت كل 200 بيزيتا تعادل 100 اسكودو، وتقبل كثير من التجار هذا السعر.

في بعض الأحيان، كانت البضائع المشحونة تأخذ شكلا بشريا. فمنذ بداية الستينيات عانى الاقتصاد البرتغالي من أزمة بسبب الحرب في مستعمرات أنغولا وموزمبيق البرتغالية، وحاول كثير من البرتغاليين مغادرة البلاد، البعض بسبب المعاناة، والبعض الآخر هروبا من الخدمة العسكرية. قام المهربون الغاليسيون بخلق شبكة لتهريب المهاجرين (الذين كانوا يسمون الخراف) عبر نهر المينيو. وكانوا يقبضون 600 بيزيتا مقابل كل شخص يهربونه، في ذلك الوقت اعتبر هذا المبلغ كبيرا.

كان الغاليسيون يساعدونهم على عبور المينيو وكانوا يخبئونهم في منازل السكان المحليين. بعد ذلك، كانوا ينقلونهم إلى فرنسا على متن عربات أو شاحنات. لم يخلُ الأمر من حالات احتيال، حيث كان المهربون يأخذون المال، ويتركون المهاجرين في أستورياس أو في إقليم الباسك. بالرغم من هذه الحالات الفردية، فقد أكدت القصص الآتية من تلك الأزمنة أن المهربين الغاليسيين كانوا يهتمون

بإطعام المهاجرين، وحتى أنهم كانوا يتواصلون مع أطباء لكي يعتنوا بالمرضى منهم.

خلال السنوات الأولى كان تهريب الخراف متواصلا ولم تحصل أي مفاجآت، لكن عندما علمت السلطات، وبدأت تتخذ إجراءات، كان من اللازم توخي الحيطة والحذر. فبدأ المهربون يخفون المهاجرين في خزانات الشاحنات، أو في أسفل العربات، أو في الطبقة السفلية من الشاحنات ذات الطبقتين.

كان ليتو هو الاسم المستعار لأحد مسؤولي تهريب المهاجرين البرتغاليين عبر الحدود عند نهر المينيو. وذات مرة عبرت عائلة من أربعة أشخاص، كان الرجل - الزوج والأب - ثملا جدا، حتى يتمكن من التغلب على خوفه. ذهب الرجل على قدميه إلى مقدمة القارب، وسأل المهربَ إذا كان من الضروري أن يخلع قبعته عندما تطأ قدمه أرضا إسبانيّة. صرخ الرجل بلهجة برتغالية محاولا تقليد لهجة الغاليسيين: «مرحبا أيها الغاليسي» قبل أن ينزل من القارب حاملا قبعته بيده، وتابع: «لنرقص سويّة فوق أمواج البحر، ولتكن رقصتنا لأجل قطع قيود فرانكو ورأس سالازار». ويروي ليتو أنه بعد ذلك سقط في القارب منهارا. لم تكن هذه أسهل عملية تهريب «خراف» قام بها ليتو.

نمت شبكات التهريب بفخر ورضى. واحتلت مساحات من الأراضي واكتسبت سلطة. خرجت من مصب النهر إلى المعابر الأرضية بين فيغو وشمال البرتغال، حيث كان الناس يرون استعراضا من الشاحنات المليئة بالخردوات المعدنية، التي تحولت إلى التجارة المفضلة للمهربين.

في السنوات الأولى لم تتعرض عمليات تهريب الخردوات لأي عوائق. وبمرور الوقت، تضاءلت عمليات المراقبة وازدادت حنكة المهربين، فجعل شباب فيغو من الخردوات المعدنية سترات يرتدونها تحت ملابسهم (هل يمكنكم تخيّل هذا المنظر اليوم في مطار من المطارات في الولايات المتحدة الأمريكية؟). وكانوا أيضا يستخدمون سراويل من مطاط الإطارات، وكانوا يرتدونها تحت بناطيلهم الخارجية. وعدا عن السترات والسراويل، كانت تظهر مشاهد من شبابٍ يسيرون في شوارع فيغو بتثاقل ووجه مخفي، مثقلين بعشرة كيلوغرامات معلّقة بين صدورهم وظهورهم، وبعشرين أخرى مربوطة إلى أقدامهم. ذكر براسيتيليس في كتابه واصفا إياهم: «كانوا يشبهون الروبوتات، لكن بحركة أبطأ».

ومن تلك الحقبة يمكن استرجاع صور الباصات المعطلة عند المرتفعات الحدودية، وذلك لأن وزن كل واحد من الركاب يزيد عن الوزن الطبيعي بنحو أربعين كيلوغراما.

تروي إحدى القصص حكاية جندي شاب تم تعيينه على الحدود مع غاليسيا. لقد سبق لأبيه أن خدم في تلك المنطقة وكان مشهورا بصلاحه ورفضه الدائم للمشاركة بأعمال التهريب. وكان يشكل إزعاجا لكلا الطرفين بكل ما للكلمة من معنى. عندما وصل ابنه - تسبقه شهرة أبيه - خاف أن يظن المهربون وزملاؤه أنه كان مثل أبيه، وخاف أن لا يحظى بحصته من الكعكة.

في اليوم الأول من العمل واجه الشاب مهمته بحزم: مر على كل بيت في القرى الحدودية وأعلن لتجار السوق السوداء: «مرحبا يا شباب، أنا لست مثل والدي! أنا أحب المال مثل أي واحد

منكم هنا، أنا أحب أن أجمع المال مثل البقية! أريد حصتي من المال مثل أي شخص آخر!».

الدخان[4]

«ماريانو، انتقل إلى مدريد،

تعلّم الغاليسية، وتزوج وأنجب أطفالا».

فريق سيلتا مارلبورو

يروي الناس في فيغو أنه في بداية الستينيات، عندما كان فريق سيلتا يتبارى مع فريق مهم في بالايدوس، أقدم رئيسه سيلسو لورينزو فيّا - وهو مهرّب وطيّار جمهوري سابق - على الإقلاع بطائرته الصغيرة والتحليق فوق الملعب أثناء المباراة. وهناك من يضيف بعدا آخر على القصة، ويقول إنه حلّق على علو منخفض حتى أن مراوح طائرته بعثرت شعور اللاعبين.

كان ذلك في الستينيات، عندما رأى المهربون بوضوح أن التجارة الحقيقية كانت تتم بواسطة التبغ الآتي من البرتغال. وبالمقارنة مع تجارة السجائر، كان بيع سائر البضائع في السوق السوداء (ما عدا البنزين) يفتقر إلى الربحية. عندها حصل تغير في البنية الإجرامية: تنحى تجار السوق السوداء الصغار والمتوسطون جانبا ليفسحوا المجال للكبار لكي يحتكروا تجارة السجائر. وحصل تبدل من الأرباح الصغيرة إلى الأرباح الكبيرة، ومن المهربين الأفراد إلى المنظمات الكبيرة التي سيطرت على كل شيء تقريبا واحتلت أعلى رأس الهرم.

كان سيلسو لورينزو فيّا أحد أوائل الزعماء الغاليسيين الكبار في تهريب التبغ. وكان يتمتع باحترام كبير من قبل الناس عند مصب المينيو: غني ومشهور ومتشعب العلاقات. أضف إلى ذلك أنه رئيس نادي سيلتا الملكي في فيغو. لقد تولى رئاسة النادي في العام 1959، مؤخرا هبط النادي إلى دوري الدرجة الثانية، وهناك عمل جدي من أجل تعزيز صفوفه ليتمكن من استعادة مكانه بين فرق الدرجة الأولى. لم يكن النادي متعودا على عتمة الدرجة الثانية بخلاف أعضاء مجلس إدارته. تشكّل المجلس من فيسينتي أوتيرو (تيريتو) وبيبي فايينا، وأنتونيو بار بو، ومانويل تومبه، وفينانسيو غونزاليس (الكابتن فينينو). كان الأخير لاعبا في الفريق في الأربعينيات، واكتسب شهرة بفضل هجماته القاتلة. بعد عشرين سنة، أصبح الكابتن فينينو عضوا في مجلس إدارة ذاك الفريق الذي يسمّى سيلتا مارلبورو.

كان فريق سيلسو لورينزو فيّا يتنقل في باص دودج حديث، أهداه للفريق مركز هافانا الغاليسي، وكان شعار واسم النادي مرسومين عليه. بالإضافة إلى اللاعبين والتقنيين، كان ينقل في الباص دائما عددٌ من صناديق المارلبورو، التي كانت تباع للجمهور أثناء مباراة الفريق.

كان سيلسو لورينزو متزوجا - انتباه! - من ابنة ضابط الحرس الوطني. وكانا يأتيان أيام الأحد للقاء العائلة بسيارة جاغوار ذات لون «بيج».

كان زعماء الستينيات مسؤولين عن مئات العاملين. من بين كل المنظمات، كانوا يوظفون آلاف السكان المحليين في منطقة مصب المينيو وفيغو (وقبل ذلك في مناطق المصبات المنخفضة وشاطئ الموت). وكانوا يرتدون ملابس مصنوعة في مدريد وبرشلونة، ويقودون السيارات الفخمة، ويقيمون ولائم كبيرة، وهم أيضا من أكبر المحسنين للرعية والمتبرعين في الأعياد المحلية، وكانت النساء الجميلات تحيط بهم على الدوام. بالرغم من كل المظاهر السابقة، إلا أنهم كانوا - وهذا هو الأهم - يسبحون في البركة ذاتها التي يسبح فيها السياسيون ورؤساء البلديات ومدراء البنوك وكبار رجال الأعمال.

في ذلك الوقت، كان هناك مناخ من التسامح من قبل الحكومة والسياسيين تجاه المهربين. بعيدا من كونهم مجرمين، كان المهربون يستمتعون بالدعم الاجتماعي والمحلي لهم من دون وجود أي خطب. كان التهريب مهنة يتنفسُ من خلالها كثير من الغاليسيين (نسبة إلى سكان غاليسيا)، ومن تقبل فكرة التهريب، كان يستفيد منه. تذكروا أن هناك قصة تروى في «توي»؛ وهي منطقة تقع بين فيغو والحدود البرتغالية، عن زوجة أحد المهربين التي كانت تسجل ابنها المولود حديثا. وعندما أصر الموظف على معرفة مهنة الأب أجابته بفخر ومن دون تردد: مهرّب!

لقد ساعد هذا الخليط السام من الإدارة العامة ورجال السياسة إلى حدٍّ بعيد في إرساء قواعد هذا العمل المنحط الذي لم يكتفِ بانحطاطه ليبلغ القاع الجرمي شبه المافيوي خلال عقود.

صدحت الأصوات الأولى المنبهة لخطر هذه المهنة غير القانونية عبر الصحف، لكن لم يكن لها صدى. بعد ذلك، وعلى نحو خجول، قام الحرس الوطني بحركة شبه استعراضية، حركة أشبه بغارة بالقرب من كورونيا على عصابة تقوم بتهريب التبغ. تمكّن المهربون من الفرار (حتى أن أيا منهم لم يضطر للركض)، أما الحرس الوطني فالتقط لجنوده صورا مع التبغ المُصادر بهدف نشرها في الصحف. كان الكل سعداء، ولم يكن هناك من أحدٍ يمكنه إيقاف ما يجري.

«المهربون هم أكثر الناس تكريما في العالم»

كان مانويل دياز غونزاليس الذي يُدعى «الخفيف» أسرع من يقطع الحدود مع البرتغال من بلدة لا غواردا التي أصبح عمدتها، أو هذا ما كان يقوله. روت الصحفية إليسا لويس في أحد أعداد صحيفة «إل بايس» أنه في يوم ما قال السيد مانويل لرئيس حكومة غاليسيا المحلية، موبخا: «هل تعلم حضرتك أنهم يسمون عمدة لا غواردا «الخفيف»؟ لأنه كان يركض بسرعة باتجاه الحرس عندما يقوم بعمليات تهريب عبر الحدود مع البرتغال!».

يتبادر غضب فراغا إلى الذهن كصور نُشرت في الصحافة والتي كان فيها فيخوو يستمتع بأشعة الشمس لثلاثة أيام في يخت مارسيال دورادو، مهرب المخدرات الأروساني التاريخي الذي قبض عليه عام 2003. عن هذه العلاقة - وعن هذه الصور - سنتحدث لاحقا.

كان مانويل دياز واحدا من تجار الجملة أولئك، الذين تحولوا إلى زعماء التبغ المحترمين والمحبوبين في الستينيات والسبعينيات. إن قصته هي قصة نموذجية لتاجر من غاليسيا: من دون أن يتكبد عناء الدراسة، جعلت منه السوق السوداء شخصا مبجلا من قبل السكان المحليين؛ فهو يموّل احتفالات غواردا، ويوظّف أفراد عائلته، وحتى أنه ترأس نادي كرة القدم المحلي، نادي سبورتينغ غوارديس. وهو عرّاب الغاليسيين الذين كانوا سيحققون تطلعاته في أن يُنتخبَ عام 1987 عمدة للا غواردا عن حزب التحالف الشعبي.

قبل أربع سنوات من تسلمه منصب العمدة، كان «الخفيف» قد أكمل عقوبة في سجن كارابانتشيل. كان واحدا من المدانين حسب الإجراء المعروف بالإجراء 11/84، وهو عبارة عن حملة كبيرة على التهريب انتهت بنتائج هزيلة بسبب الخمول المؤسساتي. في هذه الحملة - التي سوف نتحدث عنها فورا - قبض على «الخفيف» وسجن لمدة قصيرة مع كثير من المهربين الغاليسيين الآخرين. وفي أثناء نقله في سيارة أوبل تابعة للحرس الوطني إلى مدريد، وقبل أن تغادر السيارة غاليسيا، فتح الباب وألقى بنفسه بين الناس، وتمكن من الهرب راكضا، بالرغم من أنه أعيد القبض عليه.

لطالما ظُن أنه ترك التهريب بعد أن انتُخب عمدة لا غواردا ممثلا عن التحالف الشعبي. في العام 1987، أجرى العمدة الجديد مقابلة مع صحيفة فارو في فيغو. كانت المقابلة ممتازة، ومن بين

أشياء أخرى، شرح مانويل دياز أن لقبه لم يكن له علاقة بالذي ادعاه فراغا. «لقد أطلق عليّ هذا اللقب منذ كنت طفلا. وكنت فخورا به أكثر من اسمي الأصلي».

تتابعت المقابلة وتتابعت دفاعات «الخفيف» عن المهربين التي - دعونا نقل - أنها غير طوعية، وشمل نفسه معهم: «أظن أن كلمة مهرب هي كلمة من ذهب. إنها تشبه تاجرا ذَهَبَ لكي يبيع بقرة وصافح المشتري وتمت عملية البيع. ولم يكن هناك أوراق ناقصة. هذا أنا مانويل دياز».

كانت ذروة المقابلة التي ستبقى ليذكرها التاريخ معنونة بالجملة التالية: «المهربون هم أكثر الناس تكريما في العالم». هكذا قال، وهكذا نُشر. بعد سنتين من ذلك، مات مانويل دياز الملقّب «الخفيف»، ومن بين آلاف الناس الذين حضروا جنازته كان هناك كثير من الشخصيات الرفيعة من الأوساط السياسية ورجال الأعمال الغاليسيين - ومن بينهم كان السيد مانويل فراغا، الذي استلم رئاسة حكومة غاليسيا المحلية قبل شهور. ليس هناك من شك أن الحكومة الغاليسية كانت موافقة على عنوان المقابلة.

طبق الوينستون

في صيف العام 1982، حصل إطلاق نار في نزل كامبادوس. سُمع صوت بعض الأعيرة النارية، وركض الناس في الشوارع، وتوقفت السيارات، ثم عم الصمت. بعد قليل وصلت الشرطة، وأجرت تحقيقا حول الحادث، ولم تقم بنشر أي شيء للعامة. «تصفية حسابات بين المهربين» هذا ما ردده الناس في المنطقة. بعد ذلك، عرفنا أنه في ذلك اليوم كان رؤساء تهريب التبغ مجتمعين. تروي إحدى القصص الطويلة والتي ذكرها أحد الصحفيين الغاليسيين المرموقين أنهم كانوا يتناقشون حول الخط الذي يجب على التجارة أن تسلكه. في اللحظة التي لم يعد فيها الحوار مجديا بسبب التوتر، سحب فيسينته أوتيرو الملقب «تيريتو» مسدسه وصوبه تجاه أوريانو أوبينيا، وحصل تبادل لإطلاق النار لم ينجم عنه وقوع ضحايا. أما الآخرون فيروون قصة مختلفة، وهي أن تيريتو عقد العزم على إطلاق النار بعد أن أقبل أحد رؤوس المهربين ساحبا مسدسه، وأخذ يُهدِّئ الأمور. وبحسب القصة الثانية، لم يكن الرؤساء يتناقشون حول خط التجارة، بل كم من المال عليهم أن يعطوا التحالف الشعبي من أجل الحملات الانتخابية. ولكن القاسم المشترك بين كل القصص التي تحدثت عن الأمر أنه في صيف عام 1982 كان هناك إطلاق نار في نزل كامبادوس.

إن الرجل الذي من المفترض أنه صوّب مسدسه على أوبينيا كان فيسينته أوتيرو، المعروف بـ «تيريتو» أو الدون فيسينته. وهو نفسه الذي كان قبل سنوات عضوا في مجلس إدارة فريق سيلتا مارلبورو السابق ذكره الخاص بسيلسو لورينزو. تيريتو هو بمثابة رأس جبل الجليد الخاص بأولئك المهربين المكرمين الجدد، الذي نقل التجارة من مصب المينيو إلى منطقة المصبات المنخفضة. لقد كان بالفعل ابن السوق السوداء ويتفاخر أنه بنى نفسه فيها، كان يهتم بمظهره دائما ويرتدي الملابس الفاخرة، بالرغم من أن ذوقه لم يكن جيدا في اختيارها، وكان يواظب على صبغ شعره لإخفاء الشيب. لقد أسس شبكاته الخاصة مع المهربين في الستينيات وصعد كرجل أعمال محترم بفضل شركته «أوتيرو للنقل»، علامة تجارية كانت تُشاهد على طرقات كانتابريا عندما كان أسطول الشاحنات يعبر في شمال إسبانيا، وكانت الشاحنات محملة في معظم الأحيان بصناديق أمريكية سمراء اللون.

لقد جنى تيريتو من تهريب التبغ ثروة، واشترى عددا من الشركات لكي يستثمر فيها ويبّيض أمواله. وكان منتجع مونادريز الشهير ملكا له، وكذلك نزل كامبادوس، مسقط رأسه. كان الزعيم الأول في منطقة المصب. وكان يمول أي مبادرة تقوم بها البلدية أو إدارة الإقليم، وكان يوظّف السكان المحليين، وينظّم الأعياد ورحلات الحج، وقبل كل شيء كان قد ضمن أصواتا من حزب التحالف الشعبي، الحزب الحاكم في كل منطقة أروسا.

كان الدون فيسينته مناضلا شعبيا خلال كامل حياته وصديقا شخصيا لمانويل فراغا. كانا يصرحان بصداقتهما ولم ينفها أي منهما. لم يكن ينقص فراغا أي شيء أثناء زياراته إلى أروسا: وجبات وفيرة، ومأكولات بحرية، معظمها كان في نزل كامبادوس (حيث حصل إطلاق النار) أو في أحد المطاعم التي يملكها تيريتو أو في كازينو لا توخا، بيت المهرب الثاني. وكان زعيم التحالف الشعبي يُستقبل بحفاوة وتكريم، وكان يمنح الدون فيسينته باسم الحزب أوسمة ذهبية لامعة. لقد كسب تيريتو أصواتا في المنطقة، حيث حصل الشعبيون على 70 في المئة من المقاعد، واستمروا في الحصول على أعلى نسبة في الكثير من المناطق[5].

ليس سرا في غاليسيا - وخاصة بين صحفيي منطقة المصب - أن تيريتو، بالإضافة إلى كسب الأصوات، كان قد كسب أيضا الميدالية الذهبية بفضل تمويله حملات الحزب بالملايين، هذه التبرعات السخية هي التي صكّت الرابط القوي بين حزب التحالف الشعبي وعصابات التهريب.

«ليس لدي تجربة مع ذلك التمويل، لكني لم استلم أي شكوى لكي أقوم بتوجيهها». هذا ما كتب بيرفيكتو كونده، مؤلف كتاب «الرابط الغاليسي».

كان خوسه رامون باريل، الملقب «نينه»، الذراع الأيمن لفيسينته أوتيرو. المولود في ريبادوميا، التي تقع على بعد بضعة كيلومترات من كامبادوس في الأراضي الداخلية، ولكن يمكن الوصول إليها عبر الإبحار في نهر أوميا. قضى طفولته ومراهقته مهاجرا في كثير من البلدان الأوروبية، مثل سويسرا وألمانيا، وكان يعمل بشكل رئيسي في مجال السيارات. وبعد أن جمع أموالا عاد وأسس أعمالا عديدة، وكانت معظمها أعمالا رائدة، مثل مزرعة الكيوي. ولاحظ على الفور وجود المصدر الحقيقي للمال، وبدأ يعمل كمهرب.

وأورد بيرفيكتو كونده في عمله مؤخرا: «عندما كان «نينه» يعمل، حتى الريح لم تكن تتحرك. كان يستخدم في عمله ثلاثة قوارب، وكلما صعدت النهر حملت 1800 صندوق، وحتى يصل إلى أمام منزله تقريبا، كانت كل الطرق المؤدية إلى أوميا تُغلق، كما لو أن فرانكو قد أتى لصيد السلمون». كان باريل شابا طموحا، ومن أوائل الذين ربطوا العصابات في غاليسيا بمافيا التهريب العالمية. لقد قام بذلك من منزله على الشاطئ في فيلانوفا في أروسا.

كان نينه مناضلا شعبيا أيضا مثل معلمه. في العام 1983، انتخب عمدة ريبادوميا عن حزب التحالف الشعبي، وحصل على منصبه بأكثرية ساحقة. وأعلن حينذاك أنه يفصل نفسه عن التهريب وحصل على مباركة من الحزب. لم يعجب شاب واعد يترأس مجلس مقاطعة بونتيفيدرا، أن أشخاصا مثل نينه وتيريتو وآخرون كانوا قريبين من الحزب (وبعضهم كانوا داخله). هذا الشاب العنيد كان يدعى ماريانو راخوي، وبسبب العلاقات الوطيدة التي كان يملكها الراعي مع المهربين. لم يستطع راخوي أن يثير ضجة في وجه الدون مانويل، فنصحه نصيحة شكّلت جزءا من التاريخ الشعبي لغاليسيا: «ماريانو، انتقل إلى مدريد، تعلّم الغاليسية، وتزوج وانجب أطفالا». الأمر المتعلق باللغة تم تنحيته جانبا. إن غضب راخوي بدون شك كان غضبا سابقا لأوانه.

إن موضوع «ترك نينه للتهريب» لم يكن دقيقا. خلال كل فترة عمله السياسي كعمدة لمدينة ريبادوميا استمر في عمله كمهرب. ولم تكن فترة قصيرة: كان بارال عمدة منتخبا عن التحالف الشعبي ثم عن الحزب الشعبي لمدة 18 عاما، وذلك بأغلبية ساحقة غير قابلة للجدل مرة تلو الأخرى حتى عام 2، حين قبض عليه القاضي خوسه أنتونيو فاسكيس تايين بمساعدة أخيه وهو يقود عملية تفريغ في فيغو لـ 400 ألف علبة سجائر ماغنوم بقيمة 1,2 مليون يورو. وقال نينه في اليوم الذي قُبضَ فيه عليه: «لقد كنت أمينا وصادقا في الحياة السياسية، لكن هذا خطأ خاص. أطلب العفو. سأرحل من هنا لكي لا يرتبط اسم ريبادوميا بالأنشطة الإجرامية»[6].

رابطة البيزيتا

إن القفزة النوعية الأولى للتهريب في غاليسيا بدأت مع بداية الثمانينات، عندما قررت الرئاسة الجديدة المشكّلة من تيريتو ونينه أن تعبث مع المزودين البرتغاليين. انتقلت عمليات التهريب بشكل نهائي من المناطق الحدودية واستقرّت في زوايا منطقة المصب المظلمة.

منذ ذلك الوقت، قام المهربون ببيع التبغ بشكل مباشر إلى المصنّع، بكلام آخر، إلى الشركات المتعددة الجنسيات في شمال أمريكا. باتريك لورينت، المدير التجاري في شركة ر.ج. رينولدز للتبغ الأوروبية، كان الرأس المخطط لكل الحبكة: كان يخصص الفائض أو البضاعة المعطوبة للمهربين على مستوى عالمي. وحصل الأمر نفسه مع الشركات العالمية الأخرى: فيليبس موريس المتحدة. كانت البضائع تخرج من بازل في سويسرا، ومن أنتويرب في بلجيكا، وكانت توزَّع عبر البر والبحر، عبر سفن كبرى كانت تغادر من اليونان وإيطاليا إلى الشواطئ الأوروبية، ومن بينها شواطئ غاليسيا. على هذا النحو رسمت شركات التبغ متعددة الجنسيات خطوطا رئيسية لتحديد العلاقة مع ثلاثة شركاء مقتدرين في بدايات الثمانينات: المجموعات اليونانية، والكامورا الإيطالية، والعصابات الغاليسية. وكان القرار الشامل لكل هذه الشبكة يُتخذ سنويا أثناء سباق الفورمولا 1 في مونتي كارلو، وهذا ما كشف عنه ذات مرة أحد رؤوس المهربين الغاليسيين. كانوا في الاتفاقيات يتقاسمون الخسائر المحتملة. وكان المال يفيض عليهم أكثر مما يلزم.

بفضل خبرتها خلال عقود في السوق السوداء، اكتسبت العصابات في غاليسيا ثقة بين أوساط شبكات التبغ، وتحولت غاليسيا إلى مرفأ التحميل الأكثر أهمية بالنسبة لعمليات التهريب الأوروبية. كانت مئات السفن تمر من أمام السواحل الغاليسية، كل واحدة منها محملة بكميات من التبغ تفوق بعشرات المرات الكميات التي تُنقل برا.

وفقا لتقدير القضاء في مطلع الثمانينات كان ثلث التبغ غير الشرعي في أوروبا كان يمر عبر غاليسيا. ووفق معلومات من السلطات المختصة، كانت الخزانة العامة تخسر 10 ملايين بيزيتا في السنة في مطلع الثمانينات بسبب التهريب، وذلك خلال الأعوام الخمسة والثلاثين الأخيرة.

وذكرت دراسة لنقابة تجار التبغ في غاليسيا أنه بين عامي 1980 و1982 باعت شركات التبغ المحلية في غاليسيا ما قيمته 850 مليون بيزيتا من التبغ سنويا.

قامت عصابات التبغ بتهريب أموالها من أروسا لأجل البحث عن ملاجئ آمنة، ووجدوا أن

أفضل وجهة هي سويسرا. كان المسؤول عن عمليات نقل المال في السيارة رجل باسكي فرنسي يدعى جوزيف أريبيتا، كان يضع رزم المال في الصندوق الخلفي في السيارة وكان يقود بدون تعب حتى يصل إلى سويسرا. بدأ أريبيتا عمله وحيدا، ولكنه استخدم فيما بعد أسطولا من السيارات شغّل عليها أخاه وأصدقاءه. لقد جنى من هذا العمل ثروة طائلة، ولم يكن لديه وقت فراغ كافٍ لعدها.

لقد رشا أريبيتا كثيرا من ضباط الجمارك الإسبان والفرنسيين وذلك من خلال رؤساء العصابات في غاليسيا، وكان يهرّب المال بدون أي صعوبات. وعندما كان يصل إلى جنيف، يركن السيارة قرب المطار، كل مرة أمام فرع بنك مختلف ويغادر، فيخرج موظف من البنك ويأخذ الرزم المالية ليضع مكانها رزما من السبائك الذهبية التي كان يسافر بها أريبيتا عائدا إلى غاليسيا. كان المهربون يحولون الذهب إلى مجوهرات من أجل بيعها في السوق السوداء. وقد أطلقت الصحافة على عملية تبييض الأموال هذه بعد سنوات لقب «رابطة البيزيتا».

يؤكد أريبيتا أنه ترك العمل عندما تأكد أن كميات المال التي كانوا يعطونه إياها في أروسا كانت أكثر بكثير مما يمكن أن يجني المهرب من تهريب التبغ. على سبيل المثال، في سنة واحدة في نهاية الثمانينات، قامت عصابة مارسيال دورادو بتسليمه 22 مليون بيزيتا لكي يهربها (ما يعادل مليون يورو، على ما يبدو كانت تلك المبالغ تأتي من كل العصابات في غاليسيا). كانت رائحة تهريب المخدرات تفوح من هذه الكميات الكبيرة من المال، وحسبما قال أريبيتا، إنه لجأ حينها إلى السلطات، بدافع من وازعه الأخلاقي، ولكن من المؤكد أنه قام بالتواصل مع جيرمان سينجيلين، قاضٍ فرنسي كان في ذلك الوقت يحقق في قضية تدفق الأموال الذي ربط أروسا بجنيف، بفضل اعترافٍ مهرب سويسري يدعى إدموند آيخنبرغ، متزوج من امرأة من كورونيا. كشف السيد آيخنبرغ النقاب عن شاحنة صغيرة كانت تقف عند الحدود السويسرية الفرنسية. المهرب في المقعد الخلفي، في سويسرا، والقاضي في المقعد الأمامي، في فرنسا.

سأل القاضي سينجيلين عن سبب عدم لجوء أريبيتا إلى السلطات الإسبانية، فأجاب الأخير أنه لا يثق بأي أحد من جبال البيرنه ونزولا. في الحقيقة، لقد أعلم سينجيلين بنفسه السلطات الإسبانية عن كل ما اكتشفه عن موضوع «رابط البيزيتا». وخمّنوا ما الذي حصل: لا شيء! استمرت الشبكة بالعمل في تهريب المخدرات من دون أن يوجه أحد إصبع اتهام واحد. مرحى للكسل! مرحى للسلطات التشريعية الإسبانية التي كانت في حينها لا تزال ترتدي الحفاضات كطفلة صغيرة في وجه عمليات تبييض الأموال.

في الواقع، كانت عمليات «رابطة البيزيتا» نقطة في بحر واسع وأكثر تعقيدا. كانت جنيف المركز، المغسلة الذرية لكل مجرمي أوروبا. كان مهربو أروسا يبيضون أموالهم عبر نفس القنوات التي تستخدمها إيتا[7] والكامورا[8] والمافيا الصقلية أو مهربو السلاح من شمال أفريقيا. إن هذا التشابك قدّم للمهربين في غاليسيا قنوات تواصل مع أجواء تهريب المخدرات. لقد بدأت الاتصالات تنير الدرب.

«مهرب مثل أبي»

إن نظام التشغيل الخاص بالعصابات الغاليسية كان هو نفسه تقريبا بعد أن اشتركوا في تهريب المخدرات: كانت السفن الكبيرة - التي تُدعى «الأمهات» - تنتظر في المياه الدولية، ومن هناك كانت تنطلق الزوارق السريعة لكي تقوم بنقل الصناديق إلى اليابسة وتفريغها. كانت العصابات تمتلك أحدث الزوارق وأسرعها، ذات الميزات والمحركات المتقدمة التي تحلم بها قوى الحرس وخفر السواحل. أما التضاريس المتعرجة لشاطئ أروسا فكانت تقوم بالعمل المتبقي. كانت الخلجان والشواطئ مسرحا مستمرا لعدد كبير من عمليات التفريغ، وأحيانا في النهار. كانت الصناديق التي تصل إلى اليابسة تخبأ في المخازن الصناعية والكنائس ومنازل السكان المحليين، مقابل تبرعات أو مكافآت كريمة. ومن هناك توزع عبر كل نمط من المؤسسات (حتى مؤسسات الدولة المحتكرة أحيانا) أو المنظمات المحلية الصغيرة. في بعض الأحيان، كان التبغ يخبأ تحت مياه البحر، على عكس الأطباق (الصواني)، تلك المنصات التي كانت تطفو مغطية مصب النهر عند أروسا والتي كانت تستخدم لاستخراج بلح البحر. ومن هنا أتت التسمية: أطباق الوينستون.

كان مردود هذا العمل مجزيا، ولا يستهلك كثيرا من الوقت. ففي عملية الانزال الواحدة، والتي قد لا تستمر لأكثر من ساعتين ليلا، كانت هناك فرصة للحصول على مبلغ جيد، ولا أعتقد أن أحدا يمكنه مقاومة إغراء الحصول على هذا المال السريع. كيف لنا عندها أن نعاتب أسياد التبغ أولئك؟

يشرح مانويل، وهو مواطن من فيلانوفا في أروسا الذي فضّل ألا يعطي اسمه الحقيقي: «عندما كانت الزوارق المحملة بالتبغ تصل، كانت الكهرباء تُقطع ثلاث مرات في القرية، وهكذا كانوا يشيرون إلى الزوارق ويقولون إن كل شيء على ما يرام، أو يشيرون إليهم أين يجب عليهم إنزال البضائع». زرعت ذكرى مانويل أملا في كل مكان وصلت إليه يد التهريب. «كانوا يدفعون لنا بما فيه الكفاية، أتذكر شابين كانا يذهبان إلى صف ابني في الثمانينات. أحدهما يعمل نادلا بمبلغ زهيد، والآخر كان يكسب من التهريب في اليوم الواحد ما يكسبه النادل في شهر. قال لي الشاب النادل أنه شعر بأنه أكبر أحمق على وجه الأرض عندما رأى الشاب الآخر يأتي إليه مرة بسيارة غولف جي.تي.آي».

يشرح قاض كان يلاحق عمليات التهريب في ذلك العهد، والذي يفضل هو الآخر عدم ذكر اسمه: «كانت ظاهرة اجتماعية، كانت كامل منطقة أروسا وجزء كبير من منطقة المصب تعتَبِرُ أن تهريب التبغ هو الذي يحرك الاقتصاد المحلي ويدفع المنطقة إلى النمو، لقد وجد كثير من الناس عملا بسبب التهريب، وقد شعروا أن عليهم تقديم الشكر والامتنان للمهربين بسبب تحسن الظروف

الاقتصادية وفرص العمل التي أتاحها لهم التبغ وتهريبه، لم يفكر أي منهم بالوقوف بعيدا من العملية برمتها». إن تقبل التهريب بهذه الرقة واللطافة يمكن مقارنته مع فترة ليست ببعيدة، كان فيها التسامح مع فظائع كرة القدم الاقتصادية: كان الكل يعرفون أنهم يرتكبون أخطاء، لكن لم يزعج أحدا نفسه بالاهتمام بهذا الأمر. وهذا ما علقت عليه صحيفة لا فوس دي غاليسيا (صوت غاليسيا) الخاصة بخوليو فارينياس بصورة أوضح: «في أروسا، كان هناك عمليات تهريب بكمية تجيب على السؤال: من يستطيع العمل في التهريب؟ أي شخص لا يعمل في التهريب يمكنه العمل في التهريب في أروسا. كان التهريب نمط حياة». في هذه البيئة نجد أن الواقعة التاريخية التي تحدث عنها مارك توين تجد لنفسها إسقاطا مثاليا: «ذات مرة أرسلت إلى مجموعة من الأصدقاء رسالة تلغرام: «اهربوا من المدينة على الفور، لقد تم كشف كل شيء». وهرب الجميع».

ومن الضروري أن نشرح أن ما يبدو لنا الآن مذهلا، لم يكن فاضحا للغاية في ذلك السياق. لم يكن التهريب جريمة حتى عام 1982. كان يعتبر حاجة ولم يبذل الحرس الوطني كثيرا من الجهود للتصدي له. فقبل العام 1978 كان التهريب يعتبر مشكلة اقتصادية بحتة، وعلى هذا النحو، كانت الخزانة العامة عبر خدمة المراقبة الجمركية (SVA) هي المسؤولة عن تعقب آثاره. وكانت قادرة فقط في حالات متفرقة على إصدار أحكام بالسجن. لكن هذه الحالات النادرة اختفت مع حلول الديمقراطية، حيث لا يسمح الدستور الجديد للإدارة أن تسلب حرية أي شخص. على هذا النحو، عندما يضبط المهرب أثناء عمله، فإنه سيعاقب بغرامة مالية وعادة ما تبتلعها متاهة البيروقراطية. في حال وصول الغرامة المالية إلى هدفها، فإن المهرب يعلن إفلاسه لأن أملاكه غالبا ما تكون مسجلة بأسماء أشخاص آخرين. وهكذا استمرت اللعبة بين عامي 1978 و1982. لكن منذ العام 1983 تغير الأمر والقانون ـ على الأقل على الورق ـ الأمر الذي سمح بإصدار عقوبات صارمة بحق المهربين.

إن العبارة التي اتخذت بمثابة تميمة «التبغ بمثابة محرك للاقتصاد» كادت تدمر كل المنطقة. كان الاحتيال على الدولة، وفيما بعد على المجتمع الاقتصادي الأوروبي، كبيرا جدا مما أدى إلى ذبول عشرات القطاعات الأخرى. فلم يعد أحد من الناس في تلك المنطقة يقوم بأي عمل ما لم يكن على علاقة بتهريب التبغ، وترسخت في أذهان الجميع فكرة عامة مفادها أنه من دون تهريب التبغ الأميركي ستكون المنطقة عديمة الجدوى. لم يكسبوا فقط الملايين، بل تم تثبيت جذور القناعة التي تفيد أن لا بديل عن التهريب، الأمر الذي أدى إلى منع استغلال أي ثروة أخرى في المنطقة بشكل جدّي، مثل السياحة.

وأدى هذا إلى الاعتقاد أيضا أن جنوب غاليسيا يمكنه الوقوف على قدميه لعقود. بالرغم من إمكانيات المنطقة الاقتصادية الهائلة، فإنها ما زالت تعاني برأي الكثيرين. إن مصب النهر في أروسا، على سبيل المثال، ينتج بلح بحر في السنة أكثر مما تنتجه أوروبا مجتمعة. إلا أن تهريب التبغ كان بمثابة الصيد بالشبكة: لقد سحق كل شيء وبدون رحمة، فالكل كانوا يسعون للحصول على نتائج جيدة وفورية.

هناك عامل آخر يشرح فكرة تقبل التهريب، وهو أنه لم يكن هناك عنف مفرط بين العصابات، وهذا ما اعتبر من حسن حظ السكان المحليين. لقد حصلت بعض الحوادث المتفرقة إذا ما

قارناها مع ما سوف يقدمه لنا تهريب المخدرات في الأعوام التالية: إطلاق نار واختطاف وابتزاز.

في البدايات كان هناك مواد أولية للجميع، وبشكل عام كان الكل يتأقلمون بشكل جيد. كان هناك بعض المخاطر وحتى بعض المعارك، ولكن الجميع كانوا متفقين على أن موت أي أحد قد ينهي العمل. حتى أن الحرس الوطني، شكّلوا جزءا لا يتجزأ من هذه العملية. كما في عهد السوق السوداء الحدودية، ولولا رجال الحرس الوطني لم يكن من المقدر لشيء مما كان أن يصبح ممكنا.

وبرزت مشكلة إضافية، وبالنسبة للبعض كانت الأكثر خطورة: إن الصناعة الأساسية والأكثر أهمية في المصب - التهريب - كانت صناعة خارج القانون. وكنتيجة لذلك خُلقت وتغذّت وترسخت ثقافة إجرامية. اكتسب قسم كبير من مجتمع المصب مهارات مثل تجنب السلطات، أو احترام زعيم إحدى العصابات المتحالف مع الدولة، أو الاغتناء بسرعة وسهولة. لقد تشكلت صورة وردية مفادها أن العيش خارج القانون أمر طبيعي. وكان الأمر - إذا أردتم - طبيعيا.

كان مانويل، وهو مواطن من فيلانوفا، يعمل في تلك السنوات في مكتب عام: «انظر، أنا أتذكر أن شابا كان يصل كل أسبوع إلى الفرع ويترك لنا صناديق كرتونية من علب سجائر وينستون التي كنا نشتريها له نحن. بعد ذلك، كنا نبيعها من هناك. وكلما كان يحضر عميل للقيام بإجراءات كان يأخذ لنفسه بعض العلب». ضحك مانويل أمام المسجّل الصوتي: «بطريقة ما كنا نحن بدورنا مهربين». كانت زوجة مانويل، إليسا، تعمل في ذلك الوقت في العقارات. «كنت أعمل في مجال الشقق. من بين الذكريات العالقة في بالي أنه ذات مرة كنت أعرض منزلا، فتحت باب غرفة ووجدتها مليئة حتى السقف بعلب الوينستون. وكان الأمر طبيعيا للغاية. قلت حينها للمشترين: «حسنا، لنتجاهل هذا ولتكوّنوا فكرة عن مساحة الغرفة..» ولم نعر الموضوع انتباها!» ثم تابع مانويل كلامه: «لكن، انظر، في المتاجر، عندما تذهب لشراء التبغ، كانوا يسألونك إذا كنت تريده عاديّا أم مُهرَّبا!».

في العام 1981 ضرب تقييد موسمي منطقة المصب. بالإضافة إلى الخطر، كان الأمر بغير محله تماما. في كامبادوس، كانوا ينتظرون تفريغ حمولة مهمة جدا، رست القوارب لمدة ثلاثة أيام، ولم يستطع أي من هذه القوارب الخروج لملاقاة السفينة «الأم». إن هذا التقييد الموسمي أثر على احتفالات يوم عذراء كارمن، شفيعة الصيادين واليوم الأهم في أي بلدة بحرية على الشواطئ الغاليسية. في يوم العمل ذاك، تبحر كل قوارب المنطقة في تشكيل استعراضي، وهي تحمل الزهور وتطلق أبواقها. لكن التبغ كان ينتظر، لذلك كان المهربون يترجون الكهنة إذا كان بالإمكان تأجيل الاحتفال، لكي يتمكنوا من استخدام القوارب والرجال من أجل عمليات التفريغ. وافق الأسقف وتم الاحتفال في اليوم التالي ببعض القوارب، ويُحكى أن القوارب سارت في الاستعراض وهي لا تزال محملة ببعض علب التبغ.

إن القصة الطريفة الأخيرة لفهم درجة الاندماج التي وصلت إليها عمليات تهريب التبغ في منطقة مصب الأنهار كانت عبارة عن مقابلة لصحفي في تلفزيون غاليسيا (TVG). في بث مباشر من فيلاغارسيا، كان المراسل يسأل الأطفال ماذا سوف يصبحون عندما يكبرون. لم يفكر الطفل الأخير كثيرا في الإجابة، بل أمسك المايكروفون في يده وقال: «مهرّب، مثل أبي».

أسياد الدخان

في العام 1983، وجد كاهن من لا إيّا، وهي جزيرة غنية تقع في وسط مصب النهر، أن سقف الأبرشية كان متصدّعا، فقرر أن يطلب المساعدة من الرجل الأغنى والأقدر في المكان، مارسيال دورادو، المعروف أيضا بمارسيال الجزيرة، المهرب ذائع الصيت في كل غاليسيا، وذلك بعدما شاهد صوره على يخت مع رئيس حكومة غاليسيا المحلية ألبيرتو نونييز فَيخُوُو. طلب منه التبرع فوافق، وأصلح الكاهن الصدع. في العام التالي، ظهر ثقب جديد في المبنى، والتقى الكاهن من جديد بسيد الجزيرة، لكن هذه المرة لم يحالفه الحظ، فقد رفض سيد الجزيرة أن يدفع. بعد أشهر، لاحقت قوة مراقبة الجمارك أحد قواربه المحملة بالتبغ المهرَّب. ويُحكى أن المهرب رأى الأمر واضحا وعلّق: «لقد حدث هذا لي لأني لم أقدم شيئا للكاهن».

كان مارسيال دورادو باولد زعيم إحدى عصابات التبغ الثلاث الأكثر قوة في منطقة المصب. وبعد أن فتح تيريتو ونينه الباب، ظهر جيل جديد من المهربين الأكثر شبابا والأكثر طموحا بكثير، وأخذوا زمام الأمور في التجارة. استمر تيريتو بكونه الأب الروحي، لكن طريق هذه المجموعات الجديدة كان له إيقاع جديد. كانت هذه المنظمات منظمة بشكل جيد، ويقودها رؤساء نشيطون لهم تطلعات عالمية أكثر ممن سبقهم. وفي غضون سنوات سيمسكون بزمام أمور تهريب التبغ في إسبانيا، وبعد فترة وجيزة، في أوروبا كلها.

توقفت هذه الطبخة الجديدة عن تلميع صورة المافيات. كانوا معروفين باسم «أسياد الدخان»: ذوي ملايين، متباهين، ذوي مكانة، ورؤساء عصابات لهم اتصالات بكل المستويات. كانوا يدخلون إلى كازينوهات منطقة المصب ويمدون أيديهم للمصافحة، ويسقون المحار بأفضل زجاجات نبيذ ألبارينيوس[9] ويقودون سيارات مثل التي تظهر في التلفاز. في ظل هذا الجو كان هناك ثلاث طبقات: أولئك الذين يعكسون صورة ذكية ومثقفة، والذين يرسلون أبناءهم للدراسة في الخارج، وأولئك الذين بالرغم من امتلاكهم الملايين، إلا أنهم ظلوا وحوشا سيئين عديمي الأخلاق، وكانوا يتوقون إلى أن يسير أبناؤهم على خطاهم.

من بين الأوائل كان السابق ذكره مانويل دورادو، الذي تزعم أكثر العصابات سلطة، والتي تدعى عصابة مارسيال. كان دورادو الابن المهني لتيريتو (يؤكد البعض أنه كان ابنه الطبيعي أيضا: «كما لو أنه بصقه من فمه»[10]، هكذا تقول النساء العجائز في أروسا، ومنه تعلم كلّ شيء حتى استقلّ وشكّل مجموعته الخاصة. وحصل مارسيال على الفور على خط مباشر مع باتريك لورينت، كبير المهربين، وكان له علاقة وثيقة معه بزيارات دائمة إلى جنيف وبازل. وكان خوان مانويل لورينزو

ومانويل سواريز نييتو شريكيه الأقرب إليه[11]. بالرغم من استحالة التأكد من الموضوع، لكن من المحتمل جدا أن عصابة مارسيال كانت - في تلك السنوات - مجموعة تهريب التبغ الأكثر قوة في أوروبا. بالإضافة إلى ذلك، كانت لديها شبكة لم يسبق لها مثيل من الاتصالات، وكانت كل منطقة المصب تقريبا تحت سيطرتها.

كان مانويل برادو لوبيز المسؤول عن الرشى، وساعدت كفاءته - بدون شك - على أن يخرج مارسيال غير محكوم عليه من كل مواجهاته مع القضاء خلال الثمانينات والتسعينات. فقد كان للعصابة عملاء داخل الحرس الوطني: في قسم مراقبة الجمارك، وفي مطار فيغو (الذين كانوا يعلمونهم في حال انطلاق مروحية المراقبة الجمركية)، وفي مراكز بنوك مختلفة، وخصوصا في بنك بونتيكالديلاس الذي يمتلئ دائما بكميات هائلة من الدولارات العائدة لأفضل زبائنهم.

كان سيتو كارنيسيرو (اللحام) الاسم المستعار لخوسه رامون باريرو فونتان، زعيم ثاني أقوى مجموعة مهربين في منطقة مصب النهر. وكانت فيلاغارسيا مركز عملياته، على بعد عدة كيلومترات من جزيرة مارسيال. وعمل مع سيتو ريكاردو كامبا، وكانت المجموعة أيضا تشتري التبغ بشكل مباشر من المهربين الأوروبيين. كان سيتو معروفا بمزاجيته، وكان شابا لم يتعود العد حتى العشرة قبل اتخاذ القرارات. مات في حادث مروري غامض عام 1985، وحول هذه الحادثة هناك شائعات كثيرة، من مواجهات إلى تصفية حسابات. ولكن من المرجح أن سيتو اللحام قد ألهمته شخصية ماريسكال (المارشال)، بطل رواية «كل شيء صامت»، للكاتب الغاليسي مانويل ريفاس، تستعرض عالم التهريب والاتجار بالمخدرات اللاحق في غاليسيا. أمسك سيتو بعنق مانويل في فترة عيد الميلاد عام 1983، عندما حضر الكاتب - الذي كان حينها يقوم بدور الصحفي - إلى الفندق حيث يقيم الرئيس هاربا من العدالة، وحاول أن يوجه له عددا من الأسئلة. بينما كان يحاول البقاء في الجو. اقترح سيتو على ريفاس بصعوبة واضحة أن يعود من حيث أتى إذا لم يرد أن ينتهي به الأمر في أسفل واد. يشير كل شيء إلى أن سيتو كان سيتقدم خطوة نحو الاتجار بالمخدرات كما كان سيدفع كل محيطه إلى القيام بذلك، لو لم يمت في تلك الحادثة. بالطبع لم يكن ينقصه شيء من الخصال ليقوم بذلك.

«روس س. ل.» كان الاسم الرنان لعصابة المهربين الثالثة في أروسا. هكذا كان يُعرف المجتمع الذي شكله راميرو مارتينيز سينيورانس وأوليغاريو فالكون بينيَيرو وخوسه رامون برادو بوغايّو، وهذا الأخير معروف باسم سيتو مينيانكو. لم يكن الرؤساء معجبين بهذا الاسم وفي بيانهم أمام القاضي روميرو أكّدوا أن اسم «روس» كان اسما ابتدعته الشرطة. في الحقيقة كان واضحا أن هؤلاء المهربين الثلاثة كانوا الروس، وحتى أن أحدهم حاول أن يتأكد من ظهور اسم الشركة هكذا في السجل التجاري لبونتيفيدرا. عملت مجموعة روس كشركة، ببنية تحتية معقدة تتمركز في كامبادوس وتتضمن سجلات محاسبة، وعقودا باطنية، وشركات تغطية، وفريق اتصالات راديو وساتلايت متطورا لتوجيه السفن والشاحنات.

استنتج القضاء لاحقا أن هذا المجتمع كان على اتصال مباشر مع المدعو تونينو، الذي كان يتلقى المال من أجل إعادة توزيعه. في البداية ظنّ القاضي أن تونينو كان أنتونيو بارديلينو، زعيم

الكامورا في نابولي الإيطالية، وهو الذي حُكم عليه بعد سنة بسبب قضية «رابطة البيزيتا». في الحقيقة كان تونينو، وهو أنتونيو إيسبوسيتو، شريكا إيطاليا للمهرب باتريك لورنت، وهو أيضا عضو في الكامورا الإيطالية. وهكذا فإن ملخص عام 1984 سيعرض لأرقام مدمرة على مستوى العصر في ما يخص التهريب.

وفقا للقضاء، أقدمت مجموعة روس بين تموز/يوليو وكانون الأول/ديسمبر عام 1983 على تهريب 1500 مليون بيزيتا و1.4 مليون دولار. إذا جمعناها وحولناها إلى اليورو بسعر الصرف قبل ثلاثين عاما سيكون المبلغ: 10.1 مليون يورو.

بالمجمل، وبحسب التحقيقات، حركت هذه المجموعات الثلاث فقط في النصف الثاني من عام 19 أكثر من 21,5 مليون يورو. كانت فروع بنوك أروسا تفرش السجاد الأحمر عندما يقترب منها أحد هؤلاء الزعماء. كان لدى مكاتب فيلانوفا وفيلاغارسيا وكامبادوس - التي سيصبح مدراؤها متهمين أيضا - نقد دائم بمختلف العملات لأجل العصابات. يشرح إنريكه ليون الأمر، وهو شرطي أصبح ضابطا في الشرطة الوطنية في فيلاغارسيا خلال الثمانينات والتسعينات: «أتذكر عائلة من هناك، من فيلاغارسيا، التي حرّكت في 6 أشهر عام 1981 مبلغا يبلغ مقداره 3000 بيزيتا. عندما أتوا من خزينة الدولة إلى البنك للتحقق من الحسابات، وجدوا أن الأموال كانت باسم شاب مصاب بإعاقة عقلية. كنا ذاهبين لنسأل الشاب، فبادر بالسؤال هو وقال: «ماذا يعني الحساب الجاري؟»».

لم يكن هناك مواجهات بين المجموعات الثلاث المتعاونة، كما سبق وقلنا. وصادف أن ذهب سيتو مينيانكو ومارسيال دورادو عشرات المرات إلى جنيف. عندما سأل القاضي مينيانكو عن هذه الرحلات، أجاب أنه كان يجد مارسيال دائما في المقعد المجاور. بمرور السنوات تحول سيتو إلى شكل من أشكال رؤساء العصابات الكولومبية في منطقة مصب النهر. لقد تحول إلى بابلو إسكوبار صغير بمزاعم تشابه تلك التي لزعماء العصابات المطلوبين في كولومبيا، والذين سوف يعمل لصالحهم. كان لاوريانو أوبينيا بينيَيرو على النقيض من سيتو. وهو المثال الأفضل لفصيلة المهربين الثانية، التي لديها حسابات جارية لا تنتهي فيها الأصفار، وهم بالكاد يعرفون الكتابة. كان أوبينيا يترأس منظمة أخرى من منظمات تهريب التبغ في أروسا. وكانت تعمل بين فيلاغارسيا وفيلانوفا، حيث اشترى القصر الأثري بازو دي بايون. إن منظمة أوبينيا كانت منظمة أكثر رصانة، أي أنها لم تكن في موقع رصد من قبل السلطات، وهذا ما سمح له بأن ينمو ويتحول إلى واحد من أكبر تجار المخدرات في أوروبا.

في شتاء العام 1983، مرت دورية من الحرس الوطني بالقرب من مرفأ ريبيرا - وهو موقع يقع في الواجهة الشمالية لمصب نهر أروسا - ورأوا شيئا في الماء. كان شخص يتخبط في الماء، وكان على وشك أن يفقد حرارة جسمه. اقتربوا بسرعة ووجدوا أحد رفاقهم، ساعدوه على الخروج من الماء وغطوه ببطانية. في هذه اللحظة قال الشرطي إنه سقط، لكن الحقيقة كُشفت لاحقا: قام مانويل كاربايّو (أو غافيلان) بدفعه إلى الماء خلال إجراء محادثة. إذ يبدو أن ذلك الرجل الذي هو من الحرس الوطني كان يطالب بحصته، وانتهى به المطاف في الماء حيث كاد أن يغرق.

لم يعرف عن كاربايّو بأنه كان عنيفا، على العكس من ذلك، كان يتميّز بأعصابه الباردة وتحفّظه، وبجرأته من أجل الحصول على أقصى فائدة من العمل. وقد كان سيُقدم على الخطوة الأولى نحو الاتجار بالمخدرات، ألمت بعائلته كارثة شبيهة بإرث ينتقل بالدم: لقد أطاحوا برأس ابنه دانييل كاربايّو كونده دانييليتو، وانتهى المطاف بأخته كارمن كاربايّو مصابة بشلل رباعي في تصفية حسابات أخرى. وشعر قريبه لويس خويغين بأزيز الرصاص الكولومبي في بينيفانته.

يقال إن اسم فالكونيتي، الاسم المستعار للويس فالكون بيريز، أتى من شخصية في مسلسل «رجل غني، رجل فقير»، بدأ عمله بإنزال الصناديق لصالح تيريتو، وانتهى به المطاف واحدا من أسياد التهريب في منطقة مصب النهر. كان مركزه في فيلاغارسيا، وكانت أساليبه وقحة، ووصل به الأمر إلى تأييد الوقوف في وجه الدولة واستخدام العنف ضد السلطات. كان يسير دائما مدججا بالسلاح، وكان يعبر في أروسا بسيارة مدرعة، بالرغم من أن أحدا لا يعرف على وجه الحقيقة لماذا كان يحتاج لفعل ذلك في تلك السنوات. يُحكى أنه في يوم من الأيام حضر إلى دار بلدية فيلانوفا لكي يسوّي أمرا مع العمدة خوسه فاسكيس، وهي قضيةَ إعادة ترميم، ونظرا لفشل الطريقة الدبلوماسية، شهر فالكونيتي مسدسه ووضعه فوق الطاولة وقال: «إن إحضار أحد يستطيع تلقينك درسا من البرتغال يكلف فقط مليون بيزيتا». في مناسبات أخرى كان الرئيس رقيقا بعض الشيء، وكان لديه علاقات واسعة بسبب عضويته في التحالف الشعبي (نعم، هو أيضا).

في العام 1984 حصل على موافقة مجلس فيلاغارسيا لتأسيس أول يانصيب في المقاطعة، بالرغم من أن رئيس البلدية سجّل «اللاقانونية الجليّة» في هذا المشروع. استأنف حزب العمال الاشتراكي الإسباني القضية لكن على نحو فاتر، ونُسيت الشكوى إلى الأبد. في ذلك الوقت كان خوسه لويس ريفيرا مايّو عمدة فيلاغارسيا، وهو من التحالف الشعبي، وانتهى به الأمر سيناتورا ورئيس اللجنة الخاصة لدراسة مسألة المخدرات. بعد ثلاث سنوات، زج بفالكونيتي في السجن بسبب تهريب كمية من الحشيش إلى فيلاغارسيا، ليس بعيدا عن مؤسسة اليانصيب خاصته بالطبع.

لقد عمل خاسينتو سانتوس فينياس يدا بيد مع لويس فالكون، وهو الآخر انتهى به الأمر في معرض ليصبح من تجار المخدرات التاريخيين. في تلك الفترة كان يساعد فالكونيتي بنقل التبغ. كان يقوم بذلك بواسطة زورق سحب، اشتراه ووضعه في العمل في موانئ كورونيا وفيرول. ومع كل سفينة ترسو، كان سانتوس فينياس يستغل ذلك لإنزال الوينستون على الأرصفة. بعد سنوات سينتهي به المطاف يهرب الحشيش والكوكايين، وينظم عصابته العائلية الخاصة مستخدما شركة استيراد محار تركي كغطاء.

إلى الشمال، على شاطئ الموت، كانت عصابة اللولو تدير الدفة، وربما هي العصابة الأكثر فعالية ومقاومة بين كل من عمل في التهريب والاتجار بالمخدرات في غاليسيا. يكفي القول إنها لا تزال فاعلة إلى يومنا هذا. «لم يكن شيء أو أحد يتحرك في شاطئ الموت بدون إذنها». هكذا أشار ضابط في الحرس الوطني.

من العصابات الأخرى الشهيرة في غاليسيا عصابة آل تشارلين. ورئيساها الأخوان مانويل

وخوسه لويس تشارلين غاما، وهم منحدرون من تهريب الأدوات الكهربائية، وبدخولهم إلى عالم تهريب التبغ أطلقوا شرارة مسلسل إجرامي لم ينته بعد. أتى «الكبير»، كما كان يعرف، مانولو تشارلين، وأخوته من بيئة فقيرة، قرويون كانوا يكافحون كل شتاء لكي لا يموتوا من الجوع. وربما كنتيجة لذلك أتت تصرفاتهم كمهربين (ولاحقا كتجار مخدرات) كمن ليس لديه شيء ليخسره: متسرعون ومتهورون وعنيفون. ومن العلامات على ذلك ما حصل بينهم وبين سيليستينو سوانسيس، مهرب من الدرجة الثالثة من فايّادوليد كان يدين لهم بالمال، سبعة ملايين بيزيتا (42 ألف يورو) على وجه التحديد. أرسل خوسه لويس تشارلين إلى العاصمة القشتالية (يقصد مدريد - المترجم) شريكَه لاسترجاع المال، وهو خوسه لويس أورباليس بيكوس، عضو سابق في الحرس الوطني، الذي ورّط نفسه في تهريب التبغ ولاحقا في الاتجار بالمخدرات (يتابع ابنه خطاه). وعندما وصل إلى المدينة، استقبلته مجموعة من الحرس من بني جلدته، وبدلا من دفع السبعة ملايين، انهالوا عليه ضربا ولكما وأعادوه إلى فيلانوفا. بعد عدة شهور، علم آل تشارلين أن سوانسيس كان ذاهبا إلى أروسا، كان يأكل في مطعم فرانكفورت على وجه التحديد (إن أسماء المطاعم والبارات الخاصة بالمهاجرين الغاليسيين العائدين تستحق كتابا آخر)، وهو مطعم يملكه تيريتو، الذي كان من المعتاد أن يشتري له سوانسيس محارا. اقترب اثنان من الأخوة إلى المكان، أوريليو وخوسه لويس تشارلين، وأمسكا المختلس وأخذاه بالقوة إلى مشغل تشاربو، وهو من أملاك العصابة. هناك ضربه مانويل تشارلين وأورباليس حتى تعبا، واحتجزاه في غرفة تبريد وأجبراه على الاتصال بزوجته لكي ترسل المال. تمكن سيليستينو سوانسيس من الهرب من خاطفيه عبر فتحة تهوية. وعاد إلى فايّادوليد وقدم شكوى أجبرت «الكبير» على الهرب لعدة شهور إلى بلجيكا.

حقق في تلك القضية قاضي كامبادوس، خوسه لويس سيوان سبيغلبيرغ. ويذكر القاضي: «عدنا مع سوانسيس إلى المشغل حيث حدث كل شيء، لكي نعيد تمثيل الأحداث، كان المسكين في غاية الخوف». لقد جعلت هذه القضية سبيغلبيرغ يشك، وبدلا من أن يلتزم بإنهاء هذه القضية، أخذ قرارا خفيا لكي يتعمق في الموضوع، وأخذ يلاحق ويحاول فك خفايا تهريب التبغ في غاليسيا. وهكذا ولدت خطة أدت فيما بعد إلى ولادة الحملة الكبيرة في كانون الأول/ديسمبر عام 1983 وإلى المرسوم السابق ذكره 11/84، وكانت العملية الأولى ضد المهربين في غاليسيا.

عندما التقى رئيس مقاطعة

غاليسيا كبار المهربين

في العام 1983 فكك القاضي سبيغلبيرغ ثكنة «غروفه» وأوقف أربعة من الشرطة من سانخيخو. لقد حصل الأمر على النحو التالي: أرسلوا إلى «غروفه» شابا من سيغوفيا، لم يكن فطنا كفاية، لكن رقيبا أوصى به. في الشهر الأول، عندما كان يقوم بمهامه، أعطوه - بالإضافة إلى معاشه الشهري - 15 ألف بيزيتا وعددا من علب الوينستون. وسأل المستجد: «ما هذا؟». أجابوه: «هنا يسير الأمر على النحو التالي: مقابل كل كمية تبغ يهربونها، يعطوننا 1000 بيزيتا. وعلب دخان كهدية»، وقبل الشرطي الهدية. بعد شهور، قام الرقيب الذي أوصى به بزيارته وسأله كيف تسير الأمور. لم يتردد الشاب وأجاب: «أفضل، بالإضافة إلى المعاش الشهري، يعطوننا هنا علاوة وتبغا كهدية». عزز هذا الاعتراف البريء تحقيق القاضي سبيغلبيرغ، بالإضافة إلى ما لديه من شكوك تدور حول الرقيب.

اتُّهم الحرس الوطني بالمشاركة في التهريب، والمراوغة، والمشاركة في الجريمة، والرشوة، والتهريب، وتزوير المستندات. عندما ذهبوا إلى المحكمة، قدمت القيادة العامة في كورونيا طلبا لنقل القضية لأنها تتضمن عملاء من القوات المسلحة، أي أنهم أرادوا تقديمها أمام محكمة عسكرية. عارض سبيغلبيرغ وذهبت القضية في نهاية الأمر إلى المحكمة العليا التي أقرت أن هذه القضية هي قضية سياسية. وقامت المحكمة العامة بمتابعة القضية بعد خمس سنوات.

يتذكر شرطي قديم مبتسما كيف أنهم في العام نفسه نصبوا كمينا في فيلاغارسيا لعربة كانت محملة إلى أقصى حد لها بصناديق التبغ. طلب منهم العميل الداخلي أن لا يقاطعوا طريق العربة في القرب من تلك المنطقة، وذلك لكي لا يكشفوه، لذلك تابعت الشرطة ملاحقتها للعربة في سيارة عادية للتمويه حتى لالين في بونتيفيدرا، حيث أوقفوها هناك. نزل المهربون من العربة بهدوء مذهل، والابتسامة ترتسم على وجوههم بينما كانت الشرطة تقترب. أظهر واحد من الشرطة شارته، وصرخ على الجميع أن يضعوا أيديهم فوق رؤوسهم، وكان رد فعل المهربين: «اللعنة! لا تقل إنهم من الحرس الوطني».

ويتابع قاض من تلك الفترة: «في الحقيقة، لم يكن باستطاعة أحد الاعتماد على الحرس الوطني». يخصص بيرفيكتو كونده في كتابه فصلا كاملا للرشى التي كانت الشرطة تحصل عليها والتي وجدها المحققون موزعة في حسابات منظمات المهربين. كانوا يشكلون إنفاقا إضافيا، تحت

تسمية «القوة المدفوع لها»، ويشير هذا إلى المال المخصص لمقرات الشرطة في غاليسيا لكي تغض النظر عما كان يحصل. ولدت من قضايا الفساد هذه وغيرها العبارة التي سيقولها بعد سنوات لاوريانو أوبينيا: «لا، يا رجل، لا. بدونهم لا يمكننا القيام بأي شيء».

يعترف القاضي سبيغلبيرغ أنه أدرك البعد الحقيقي للمثلث الذي أنشأته عصابات التبغ في غاليسيا عندما بدأ بفك شيفرة المكالمات الهاتفية. وبسبب ضرب آل تشارلين لسوانسيس، نزل المحققون إلى وحل التهريب عبر التنصت والملاحقات. يتذكر سبيغلبيرغ أنه في واحدة من هذه العمليات، كان اثنان من رؤساء العصابات يتحدثان على الهاتف بعد أن كانت الجمارك قد ضبطت قاربا محملا بالتبغ آتيا من اليونان وتم اعتقال طاقمه. كان الحوار كما يتذكر القاضي:

- هل يعرف البحارة اليونانيون ما الذي يجب عليهم قوله للقاضي؟

- نعم، لا تقلق. وإذا حصل شيء خارج الخطة، فالمترجم يعمل معنا.

استفادت العصابات كثيرا من القضاء، وذلك لسبب واحد: إن قانون التهريب - القانون 7/82 - لم يُطبَّق حتى عام 1982. وحين بوشر بتطبيقه، وجد القضاة أخيرا سلاحا جديرا بمواجهة زعماء العصابات الغاليسية. بعد إصدار القانون الجديد لم يعد التهريب يعتبر مجرد خطأ، بل اعتبره جريمة، ولم تعد قيمة الغرامة مرتبطة بقيمة البضائع المصادرة، بل استطاع القضاة وضع غرامات عالية على نحو مستقل عن البضائع. لقد تغير المشهد، على الأقل على الورق، لأن قوة العصابات كما سنرى كانت قد تفوقت على قوة التشريع.

بعد بضعة شهور من العمل، وحّد سبيغلبيرغ التحقيقات وقرر أنه من الضروري القيام بحملة كبيرة ضد الزعماء الرئيسيين للتبغ في غاليسيا. رُسمت العملية وصدرت باسم القرار 11/84. حصل القاضي على دعم فيرخينو فوينتيس، حاكم اشتراكي من بونتيفيدرا وأحد السياسيين الغاليسيين القلائل الذين وقفوا في وجه المهربين. في الحقيقة، كان فوينتيس رأس حربة حكومة فيليبه غونزاليس، الذي كان يشعر أنه في حربه على التهريب ستكون هناك فرصة كبيرة لكسب أصوات الناس في غاليسيا. أتى وابل الرصاص بالطبع من الخلف؛ لم يكونوا في مدريد على دراية بالدعم الاجتماعي الكامل الذي كانت تحظى به العصابات، كما أن عمليات الشرطة ذات التوقيع الاشتراكي لم تقدم شيئا سوى الدعم المعنوي.

إن قوة العصابات الغاليسية كانت كبيرة لدرجة أنهم علموا على الفور بأن هنالك حملة قيد التحضير. في الحقيقة، كانوا يعرفون تماما من منهم كان تحت مراقبة العدالة، وهم - فقط هم - قرروا الهرب إلى البرتغال في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1983، قبل شهر من انتهاء العملية. اجتاز مارسيال دورادو وعصابته الحدود بهدوء، بالإضافة إلى سيتو كارنيسيرو (اللّحام) وعصابته وقسم من عصابة روس، راميرو مارتينيز وأوليغاريو فالكون على وجه التحديد.

بتأثير من فائض الثقة قرر سيتو مينيانكو البقاء فقُبض عليه عندما كان يغادر كافتيريا في كامبادوس. قبض عليه المفوض إنريكه ليون، الذي يتذكره بشكل دقيق. «كنا نبحث عنه. حالما رأيته

يخرج من إحدى الكافيتريات، اقتربت منه بهدوء، وعندما أصبحت إلى جانبه سألته: «هل أنت سيتو مينيانكو؟». استدار وقال: «نعم». أمسكت به وقلت له: «لقد قُضي عليك».

أما أولئك الذين هربوا، فأقاموا في فنادق تعود ملكيتها لمهربين برتغاليين، شركاء قديمين متفوقين بدرجات كبيرة على الغاليسيين. نزل مارسيال ورجاله في أجنحة فخمة في قصر بويغا العائد إلى العصور الوسطى، قرب «فيلانوفا دا سيرفيرا»، أمام نهر المينيو. اختار سيتو كارنيسيرو «مونته فارو» (جبل المنارة)، وهو موقع قريب من الحدود، وأقام في دير قديم حوّل إلى نزل. هناك أمسك برقبة مانويل ريفاس عندما حاول هذا الأخير أن يوجه إليه بعض الأسئلة.

في الوقائع التي كان الصحفي يكتبها فيما سبق في صحيفة «إل باييس»، قال ريفاس إن سيتو كان يتهم الصحافة بكتابة كثير من الهراء حول القضية. أما أوليغاريو فالكون وراميرو من عصابة ال-«روس» فاختبآ في لانييلاس، وهناك أمضيا عيد الميلاد مع عائلتيهما، أما الباقون فبقوا في غاليسيا. لم يشمل القانون تيريتو ولا نينه، ولا حتى أوبينيا، فالكونيتي، مانويل كاربايّو ولا أي واحد من آل تشارلين. حتى أنه أُشيع في أورسا أنه من غير الممكن المساس بهم، وحتى أن أغنية انتشرت هناك تقول: «نسيتَ تيريتو، نسيت نينه، نسيت كاربايّو وفالكون، لأنهم يدفعون لك أكثر». بدأت الحملة تبدو وكأنها محاولة للإطاحة بحصان عبر ضربه بالتبن.

استمرت عمليات التهريب على قدم وساق. في تلك السنة نفسها، ضبطت السفينة اليونانية كريستينا التي كانت تنقل أكبر كمية تبغ في تاريخ أوروبا. لكن الرقم القياسي تحطم بعد وقت قصير، بعد عدة أشهر، عندما تم ضبط السفينتين تيسار وسيدار، وهما أيضا يونانيتان (السفينتين نفسيهما: الطاقم الموقوف والمترجم المدفوع له). وصلت الأمور في تلك العملية إلى أن الفرقاطة الأندلس اضطرت إلى إطلاق طلقات تحذيرية تجاه إحدى السفينتين. يذكر صحفيون خبراء في التهريب، مثل إليسا لويس، التي كانت تعمل حينها في «إل كورّيو غاييغو» (= البريد الغاليسي)، أو مانويل ريفاس نفسه، أن العمل سار على نحو أفضل مما سبق بغض النظر عن القرار المتخذ والحملة، حيث كانوا يقومون بعمليات تهريب كل يوم تقريبا. وكانت السفن الأم ترسو أمام الشواطئ الغاليسية.

خلال ذلك الوقت، كان الهاربون يقودون عملياتهم عن بعد في البرتغال. وكانوا أحيانا يقومون برحلات إلى غاليسيا، لكنهم أمضوا القسم الأكبر من عام 1984 في مخابئهم في البرتغال. في قصر بويغا حصل أمر غير مسبوق وغير معهود. وخلال جولة له في البرتغال، التقى رئيس غاليسيا حينها، خيراردو فيرنانديز ألبور، وهو من التحالف الشعبي، مارسيال وباقي رؤوس العصابات الهاربين من العدالة. هناك مئات من القصص حول هذا اللقاء، منها ما يروي أن المهربين هم من اقتربوا من الرئيس على نحو غير متوقع، واستطاعوا أن يسرقوا من وقته خمس دقائق. وتشير قصص أخرى إلى أن لقاء قد حصل بالاتفاق بين الجميع. وكلها تتفق أن ألبور نصح - أو طلب من - الزعماء أن يعودوا إلى إسبانيا ويسلّموا أنفسهم للعدالة، وقد قال هؤلاء إنهم يشعرون أنهم «ملاحقون من قبل العدالة على نحو غير عادل».

كان على الرئيس أن يقدم فيما بعد تفسيرات أمام البرلمان الغاليسي عما تسرّب من اللقاء،

وقدم حزب العمال الاشتراكي استجوابا في البرلمان. اعتذر ألبور فيما بعد مؤكدا أنه لم يكن يعلم أن الهاربين كانوا يقيمون في الفندق الذي نزل فيه. وسواء كانت صدفة أم لا، أعفي القاضي سبيغلبيرغ بعد اللقاء من مهامه وأرسل إلى كانتابريا. وحصل الأمر نفسه مع الحاكم الاشتراكي فيرخينيو فوينتيس، الذي كان متجها إلى ألباسيته، حيث أكد بعد شهور أنه لم يكن يريد العودة إلى الحالة التي لا يعرف بها شيئا عن التهريب في غاليسيا.

وهنا يجب إضافة جملة نشرها الصحفي بيرفيكتو كونده، جملة حصلت عليها الشرطة أثناء تنصتها على محادثة تلفونية بين المهرب سليستينو أيالا، من بوبرا دو كارامينيال، وشريك مارسيال، مانويل برادو. كانا يتحدثان حول ملاحقة القضاء والحملة وهروب مارسيال والباقين إلى البرتغال. وفي لحظة من اللحظات قال أيالا: «سوف يتابعون مضايقتنا لمدة عام بعد، حتى يخرج فراغا».

وتتكامل الجملة مع المقطع الذي كتبته الصحفية إليسا لويس في جريدة إل باييس عام 2013، في ملحمة تذكر هذه الأحداث: «كانت حركات رجال التبغ مواتية للقضية السياسية المشخصنة في مانويل فراغا، ولذلك تضاعف الدعم بعد حملة 1983. هذا ما هو عليه الأمر، إن مساهمة المهربين في الحملات الانتخابية كانت بمثابة معلومة محفوظة جيدا مثل ساعة إنزال البضائع ومكانه». ومن المناسب هنا أن نذكر أنه خلال كل هذه الأحداث، تم اختيار «نينه» مرشح التحالف الشعبي ليكون عمدة ريبادوميا، وبقي في هذا المنصب مدة 18 عاما.

يبدو أن المهربين قد سببوا قضية لرئيس غاليسيا بسبب اللقاء الذي حصل في البرتغال، وكذلك تسببوا بالإقالة المباغتة لسبيغلبيرغ وفوينتيس.

كان مارسيال أول من عاد وسلّم نفسه في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1984. وقد قُدّمت قضيته في مدريد فقط، حيث نوقشت مع محاميه أمام القاضي ألفونسو باركالا. وبعد ذلك عاد البقية، راميرو وأوليغارو و«سيتو كارنيسيرو: اللحام». لقد سجنوا في كارابانتشيل لمدة بضعة أسابيع، بعد ذلك، دفعوا كفالة لم تتخطَ العشرين مليون بيزيتا (120 ألف يورو) وعادوا إلى منازلهم. كان رؤساء العصابات يتمتعون بدعم قانوني هائل، عبر المحامين الذين كانوا يعملون لصالحهم، مثل خوسه ماريا رودريغيز إيرميدا، أو بابلو فيوكه الذي لا يتعب، وقد انتهى به المطاف مسجونا بتهمة الاتجار بالكوكايين بعد أن عُيّن رئيس غرفة التجارة في فيلاغارسيا من قبل التحالف الشعبي. وسنتحدث عن قضية فيوكه لاحقا، لأن القضية تستحق الذكر.

اشتهرت في تلك الحقبة صور المحامين من فيلاغارسيا وكامبادوس وهم يوزعون بطاقاتهم على أبواب المتهمين بينما كان بحارة السفن ينتظرون التحقيق. كان ذلك المال من أجل الكفالات. لقد تولت العصابات أمر كل شيء؛ تم التحقيق مع 93 مهربا بالمجمل وكانوا جميعهم ينتظرون المحاكمة. ولكن المشهد تأجل حتى تحديد موعد آخر، يا له من أمر عجيب في إسبانيا! انتبهوا! تحدد الموعد في العام 1993.

عبر درس الحصانة هذا، عاش تهريب التبغ أفضل سنواته في وسط التجاهل الكامل من قبل

الحكومة والسلطات. وصل التهريب إلى حجم لم يسبق له مثيل؛ تضاعف عدد العصابات، وجلبت زوارق أكثر وأفضل، كما لوحظ ارتفاع في عدد الاتصالات، وتحوّل الغاليسيون إلى ملاّكين. ليس هذا كل شيء بل إن ذلك المرور القصير في سجن كارابانتشيل لبعض رؤساء العصابات - حيث التقوا هناك مهربي المخدرات الكولومبيين - والاتصالات بالشبكات العالمية المختصة بتبييض الأموال، وقد أدى ذلك إلى أن تضع أعمال تهريب المخدرات أعينها على تلك الزاوية من إسبانيا. لا شيء كان بإمكانه إيقاف هذه القفزة.

القفزة

«لماذا الذهاب إلى الأندلس لإحضار سجائر الحشيش في الوقت الذي يمكننا أن نحضر فيه قاربا محملا بهذه البضاعة مباشرة من المغرب؟».

لم يكن لدينا أدنى فكرة

كان إنريكه ليون في ذلك الوقت محققا في الشرطة الوطنية في مفوضية فيلاغارسيا في أروسا، وقد أمضى هو وفريقه سنوات في مكافحة تهريب التبغ. كانت معركة غير متناسبة القوة إذ إن رؤساء العصابات كانوا على بعد سنين من الشرطة.

يحكي إنريكه بلهجته الواضحة الخاصة بمنطقة المصب وبصوته العميق والواضح: «حصلنا يوم خميس على إذن قاضٍ لأجل التنصت على مكالمة هاتفية». لم يتذكر السنة بالضبط. ربما 1985. ومن الممكن أن تكون 1986. «كنا نتتبع أحد زعماء عصابات تهريب التبغ. بدأنا بالاستماع يوم الإثنين، لنرى إذا ما كانوا يتحدثون عن عملية تفريغ، اللعنة! في أول مكالمةٍ ظهر صوت عمٍّ كولومبي. أتذكر أني فكرّت: كولومبي؟ نعم، كان الاثنان يتحدثان، زعيم من هنا وآخر من كولومبيا. وبعد وقت قصير مرر المكالمة إلى شخص كولومبي آخر وتحدثا لبعض الوقت. وفي النهاية تحدث كولومبي ثالث. ثلاثة فلاتر لأجل التحدث مع ذلك الشاب. لم يكن لدينا نحن في ذلك الوقت ولا أدنى فكرة عمن كان هذا الكولومبي».

وصل إنريكه متأخرا كما وصل الجميع متأخرين - إنريكه وبقية أعضاء الشرطة، من الحرس الوطني ومن حكومة غاليسيا ومن الحكومة المركزية - كان ذلك الكولومبي الذي لم نكن نعرفه والذي كان يتناقش على الهاتف مع فيلاغارسيا عبر ثلاثة فلاتر: خوسه نيلسون ماتا باجيستيروس، رئيس عصابة أوتشوا وواحد من مديري عصابة ميديين. رفع إنريكه الهاتف يوم الإثنين في منطقة المصب واستمع إلى ثالث مهرب مخدرات مطلوب في العالم من قبل الإنتربول وإدارة مكافحة المخدرات (DEA).

كانت السلطات الأمنية والسياسية في إسبانيا وقتها - التي كانت تحاول تطبيق الديموقراطية - تعرف القليل عن المواد الجديدة التي بدأت توزّع بين الشباب، وتعرف أقل بكثير عن العصابات الدولية التي تدير هذه العمليات. يحكي الصحفي الأروساني فيليبه سواريس في كتابه «عملية السرطان» أن الهيبيين التقوا في صيف 1978 في بار بينيون للعب الورق وتدخين بعض السجائر يروي تشيما، وهو واحد من أولئك الهيبيين: في تلك الحقبة كنت أدخن بهدوء بعد اللعبة وكان الرقيب غابيرو يعارض دائما: «سنرى إلى أي نوع من الهراء سيجرك هذا التبغ، انظر كم هو قوي». وكنت أجيبه: «اهدأ أيها الرقيب، ستعتاد على ذلك قريبا، إنه تبغ هولندي».

تم تأسيس القفزة هناك في الحقيقة. على عكس ما يرد في الاعتقاد العام، لم يكن زعماء

العصابات من أحضر المخدرات (الحشيش أولا ثم الكوكايين) وقدموه إلى جيل من الشباب الجاهل الذي انتهى به الأمر متشرذما. لا، ما حصل هو أن المهربين لاحظوا وجود تجارة بدأت للتو في المواد الجديدة التي كان يدخنها أصدقاء أبنائهم. وهكذا استفسروا واستعلموا وبدأوا مباشرة بأخذ المبادرة لأجل توسيع نطاق التجارة.

«لم يرغب القدماء بالإقدام على هذه الخطوة. كان بين يديهم كل حصة التبغ، فقد كانوا ذوي ملايين». هكذا قال القاضي خوسه أنتونيو فاسكيس تايين، الذي سيتحول إلى سوط في مواجهة تهريب المخدرات مع بدايات القرن الحادي والعشرين. «لم يرغبوا بالمخاطرة لأنهم لم يكونوا يعرفون ما هي خفايا هذا الموضوع. كان الشباب هم من استشعروا إمكانية الحصول على مال كثير وبمجهود أقل». ولكي نكون دقيقين، مثلما قال فيليبه سواريس شارحا في كتابه، كان أولاد مانويل تشارلين غاما - والد عصابة آل تشارلين - هم من فتحوا الباب.

***

تاتي، داماسكو، ريفيرو دي أغيلار، بعض من الأسماء التي يذكرها الناس في فيلاغارسيا من أفراد العصابة الصغيرة الأولى من ذوي الشعر الطويل العاشقين للوودستوك. ذهبوا في رحلة إلى إنكلترا عام 1975، وهناك اكتشفوا ملذات الحشيش. عادوا عدة مرات إلى هناك لقضاء الصيف. وعلى الفور انضم الكثيرون إلى الحركة «الهيبية» الجديدة التي امتدت عبر جنوب غاليسيا والتي ستصبح ردهة الحركة الغاليسية، وكان يقودها فيغو ويساعده باقي الشخصيات المحلية في منطقة المصب. تشينانو، تشيروكا، ماريبيل، تارانو، تشيس «الأعرج»، تشيما... كلهم كانوا يتشاركون النساء اللواتي يُجلبن من لندن، وكانوا يتحدثون عن التصوير والفن والسلام، حتى أنهم كانوا ينظمون حفلات جنسية جماعية يشارك فيها الجميع طواعية. كانوا هيبيين بكل ما للكلمة من معنى.

كان آنخيل فاكال «كوربينيو خيتوسو» هو من بدأ بجلب الحشيش بانتظام لأجل العصابة. كان يسافر إلى المغرب مرة بعد مرة لإحضار الحشيش. ومع مرور السنين لم يعودوا مضطرين حتى إلى قطع الحدود: كان الغاليسيون يشترون الحشيش في إشبيلية أو في مدريد ويعودون.

كانت الأمور تصبح أسهل مع مرور السنوات، وكان الناس يشترون أكثر كل سنة: «لم يكن هؤلاء أصدقاء لنا من فيلاغارسيا، كان شباب فيغو وسانتياغو كذلك يعرفون أن الشباب في أروسا يبيعون الحشيش بسعر جيد». توسعت التجارة في المنطقة كما توسعت في بقية إسبانيا. أصبحت التجارة جيدة جدا إلى درجة قام فيها تشيما وتشيس «الأعرج» بتأسيس نادٍ للقمار في سانخيخو، وكان في وقتها وجهة مفضلة للسيّاح الآتين من مدريد. سموه «الهضاب السبع»، وأداروه بمساعدة آنخيل «الأعرج» وسوسو «الأصم». عندما كانوا يغلقون كانوا يذهبون ليحتسوا المشروبات في بورتونوفو، وفي الصباح كانوا يلقون بأنفسهم على الشاطئ بدون أي التزام بأكل أي شيء قبل العودة وفتح النادي.

في أيام الصيف تلك، عندما كانوا يدخنون المخلفات على الرمال، بينما كانت شمس الثمانينات تشرق، وقعت أديلايدا في حب تشيس، وهي فتاة من العصابة. كانت ابنة مهرّب، كما الكثير من الشبان والشابات في تلك الحقبة. لم يكن هناك شيء مميز حينها: كانت كنية أديلايدا تشارلين

بوماريس وكان أبوها مانويل تشارلين غاما. وعبر هذه العلاقة وصل أخوا أديلايدا إلى العصابة، وهما مانويل وميلتشور. لم يقم تشارلين الكبير (=الأب) بأي دور جيد بل حاول حتى اتهام تشيس بإفساد اليافعين لأن ابنته أديلايدا كان عمرها 17 عاما. كان الأخوان متفرغين كليا للعمل في عصابة تهريب التبغ الخاصة بأبيهما. بعد أسبوعين من الاحتفال مع العصابة الجديدة، لاحظا أنهما كانا يضيعان الوقت مع الوينستون. ذهبا إلى الأب الكبير، وزرعا في باله الفكرة.

الرواد

حصل مانويل تشارلين غاما على شرف أن يكون أول مهرب من غاليسيا يُحضر المخدرات إلى منطقة مصب النهر. ليس هناك معلومات دقيقة عن الموضوع، ولا حتى تواريخ ولا شهود ولا اختبارات تعزز هذه المعلومة. لكن على أية حال، وبالعرف الشعبي في منطقة المصب، كان هذا أمرا غير قابل للنقاش. بالنسبة لأعضاء الحرس الوطني أيضا، كان «الكبير» هو أول من عمل في هذا القطاع. ما كان تشيس وتشيما والآخرون يعتبرونه هواية - أو تمضية وقت - فكل ما يتطلبه الأمر منهم هو السفر ليوم واحد إلى إشبيلية وإخفاء بعض الكيلوغرامات في صندوق السيارة، إلا أن ذلك تحوَّل إلى تجارة مهمة بالنسبة للمهربين.

لماذا الذهاب إلى الأندلس لإحضار سجائر الحشيش بينما يمكننا أن نحضر قاربا محملا بالبضاعة ذاتها مباشرة من المغرب؟ هكذا دخل الزعماء إلى اللعبة.

كيف تمكنوا من الحصول على صلات من أجل تبديل التبغ بالمخدرات، لا معلومات دقيقة. لكن الأكيد أن الأمر لم يكن صعبا بالنسبة إليهم. يقول القاضي تايين: «كانوا قد أسسوا بنية تحتية كبيرة جدا من خلال عملهم في تهريب التبغ».

«سهّل لهم هذا الأمر كل شيء، وأعطى المزودين ثقة كبيرة. وجدوا الطريق الواضح اجتماعيا؛ كان هناك حصانة وتسامح، وتقبل اجتماعي. لم يعلم الناس في السنوات الأولى جيدا ما هي المخدرات، لذلك كانوا حينها لا يرون شيئا سيئا على الإطلاق في نشاطات زعماء العصابات». كانت القوانين الموجودة والاهتمام الضئيل في تطبيقها العامل الثالث الذي أدى إلى القفزة من التبغ إلى المخدرات. إن حكومة غاليسيا لم يكن لديها الكفاءة ولا الوسائل للقتال ضد بعض العصابات التي تتشبه بالمافيات، بالإضافة إلى أن تلك العصابات قد أسهمت طوال سنوات بتبرعات سخية. أما الحكومة المركزية فكان لديها أمور أكثر أهمية، أمور تفكر فيها قبل التفكير بالمشاكل الاجتماعية في تلك الزاوية من إسبانيا. على سبيل المثال، المجزرة التي قامت بها منظمة إيتا والتي ذهب ضحيتها 99 شخصا عام 1980، ومعدل البطالة الذين يزيد كل يوم بمعدل ألف. كان التشريع أيضا يقف إلى جانب العصابات. في بداية العقد لم يكن هناك قانون يطال تهريب المخدرات، وكانت العقوبة هي نفسها عقوبة تهريب التبغ. عمل أقل، مال أكثر بكثير، ونفس المخاطر! لماذا لا نستغل الفرصة؟

بدت نظرية عصابات تبييض الأموال موثوقة لشرح الاتصال بين زعماء العصابات الغاليسية ومافيات الاتجار بالمخدرات العالمية. عندما أراد آل تشارلين الدخول في العمل، تواصلوا مع

إحدى هذه العصابات المغربية التي كانوا يلجأون إليها لإرسال المال إلى سويسرا. يشرح فيليكس غارسيا، الرئيس الحالي لوحدة المخدرات والجريمة المنظمة في الشرطة الوطنية في غاليسيا (UDYCO) أن شركاء تبييض الأموال هؤلاء وافقوا على جلب بعض المواد التي لم تكن وفيرة. «قاموا بتجربتين أو ثلاث، ونجح الأمر. كان عليهم أن يبقوا حذرين من السهولة التي تم بها هذا الشيء. إن الشبكة التي أسسها الغاليسيون هنا كانت الوحيدة في أوروبا». وصلت البضائع، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا لم يحتج أي شاب في غاليسيا لركوب سيارته من أجل الحصول على بعض سجائر الحشيش.

ولحق لاوريانو أوبينيا بتشارلين. وكان متكفلا بحساباته شخصٌ مغربي يدعى إدريس تايخا، الذي اغتيل في نهاية المطاف في فوينخيرولا عام 1990. كان تايخا الشخص الذي اقترح على أوبينيا تجربة الاتجار بالحشيش مستخدما المانترا الشهيرة: «عمل أقل، الخطر نفسه، ومال أكثر بكثير». يقولون إن الدون لاوريانو لم يكن لديه أي شيء واضح. فهو رجل مخضرم في تهريب الوقود والتبغ، لم يبدُ مقتنعا بهذه المادة الجديدة التي يقال إنها خطيرة. تشاور أوبينيا بالأمر مع زوجته وهي أيضا لم توافق. وبعد أن انتهى من امتحانه الأخلاقي العميق، قرر الدون لاوريانو - الذي لم يسبق له أن اتُّهم بتهريب الكوكايين - أن يقوم بالنقلة ويساعد عصابة مغربية في تقديم بضاعتها في منطقة المصب.

وكما في حالة آل تشارلين، خرجت الأمور عن مجاريها الطبيعة، لدرجة أنه تعرف فورا على عصابة قوية من باكستان كانت تهرب الحشيش على نطاق واسع، ومعها سيبدأ بالعمل بشكل جدي. ضحك مهربو المخدرات في العالم راضين عن فعالية أولئك الزعماء الغاليسيين.

بعد عدة سنوات يبرر أوبينيا نفسه قائلا: «لقد تعاملت مع الحشيش لأن فكرة وصولنا إلى هذا الزمن وأن يكون الحشيش قانونيا لم تخرج من رأسي، كما في إسبانيا وكذلك في باقي العالم. إن الفرق بين الحشيش والمواد الأخرى هي كونه مخدرا خفيفا، وأنا أعلم أن أحدا لم يمت بسببه». لجأ إلى هذه الجملة الجدلية الكثيرون حتى كاتب المقالات الشهير أنتونيو إسكووتادو، مؤلف «التاريخ العام للمخدرات». ويتذكر الكاتب: «عندما كان لاوريانو يُحاكم، طلبت مني عائلته أن أكتب عن القصة، عن تأثيرات الحشيش واستخداماته الحالية، الأمر الذي فعلته بكل سرور. حتى أني حضرت كشاهد للدفاع في إحدى الجلسات، لكن أوبينيا رفض محاميه في ذلك الوقت - رويس خيمينيس - ولم يتقبل فكرة أن يُستجوب فيها من قبل أي أحد، بحسب ما أذكر».

على الجهة الأخرى من الأطلسي، في باناما، كانت تكتمل الهندسة المالية للعصابات الغاليسية. في البلد الذي يقع في أمريكا الوسطى، الذي كان حينها جنة مالية وموطنا ثانيا لعصابات كولومبيا، كان زعماء التهريب يزرعون شبكات الشركات من أجل استثمار أموالهم المُبيَّضة في سويسرا. كما سيظهر فيما بعد أن كل أملاك الزعماء تقريبا كانت باسم مجموعات بانامية تتخبط في دهاليز البيروقراطية والتعقيدات المالية. واحد من الشخصيات الثابتة في بلد القناة كان رئيس عصابة «روس»، سيتو مينيانكو، زعيم عصابة التبغ في كامبادوس. كان دائما معصوما عن الخطأ، يرتدي قمصانا مرتفعة الأثمان، ويعتني بشاربيه، إن إسكوبار منطقة النهر كان مغرما بالكاريبي ونسائه.

في ذلك الوقت كان متزوجا من روسا بوسو، زوجته الأولى، والتي انجبت له صبيين. لكن ذهابه ومجيئه إلى باناما جعله يقع في أحضان امرأة أخرى، التي ستصبح زوجته الثانية، أوداليس ريفيرا (كنية من غاليسيا)، وهي ابنة أخ وزير العدل في حكومة الجنرال نورييغا، الذي اعتلى السلطة عام 1984. وأنجبت له أوداليس ابنة أخرى.

ويؤكد ضابط سابق في الحرس الوطني: «تلك المرأة هي التي عرفته إلى الكوكايين، فقد كانت على معرفة بالعصابات الكولومبية التي كانت تتمركز في باناما، وعرفته إليهم. وهنا بدأت مهنته». كان يعمل مع سيتو في ذلك الوقت خوسه مانويل بادين خيستوسو، الذي يُعرف أكثر كـ «مانولو الكتالاني»، والذي سيكشف العدل عن وجوده في باناما في تلك الأيام بعد سنين. تمكّن «مانولو الكتالاني» من أن يلتقي مع عصابة ميديين، التي يقودها بابلو إسكوبار، بالرغم من أن رجلا واحدا من رجاله حضر إلى اللقاء، وهو الهندوراسي رامون ماتا باجيستيروس، الذي كان في ذلك الوقت الرابط بين عصابة ميديين والعصابات المكسيكية: كان هو من أمر في العام 1984 باغتيال عميل الـ DEA إنريكه «كيكي» كامارينا. التقى الاثنان في باناما وسافرا سوية إلى كوستاريكا، حيث اتفقا على إرسال بعض البضائع كتجربة. وجد الكولومبيون في غاليسيا المدخل المثالي لمضاعفة تجارتهم في أوروبا: بنية تحتية، أناس مخضرمون، سلطات وتشريع شبه غائبين، واللغة نفسها! كانت العصابات الكولومبية تعيش في أزمة منذ عدة شهور، مخنوقة في أمريكا بسبب إدارة مكافحة المخدرات DEA، الوكالة الأمريكية الخاصة بمكافحة المخدرات. لذلك كانوا يبحثون بشكل طارئ عن رابط مؤمَّن مع أوروبا، وذلك لتوسيع تجارتهم. ظهرت أوروسا كطريق كانوا يسعون إليه مطولا.

توقفت الإرسالات الناجحة على نحو مفاجئ في نيسان/أبريل عام 1984. في ذلك الشهر، قامت عصابة بابلو إسكوبار باغتيال وزير العدل الكولومبي، رودريغو لارا بونيجا، الذي كان قبل ثمانية أشهر قد شن حملة شرسة لإنهاء حصانة العصابات. أطلقوا النار على بونيجا في سيارته المرسيديس من دراجة نارية في شمال بوغوتا. خرج مرافقوه يلاحقون القتلة المأجورين التابعين لإسكوبار، الذين فقدوا التحكم بالدراجة النارية أثناء الملاحقة. مات واحد عندما سقط عن الدراجة وألقي القبض على الآخر، وحُكم عليه بالسجن مدة 11 سنة. أثارت عملية الاغتيال هذه غضب الحكومة الكولومبية، التي كان يترأسها حينها بيليساريو بيتانكور، الذي أعلن الحرب على رجال المخدرات. هرب زعماء عصابة ميديين: ذهب بابلو إسكوبار إلى نيكاراغوا، أما خوسه لويس أوتشوا فاسكيس وخوسه نيلسون باجيستيروس فقررا الاستقرار في مدريد. ووصل معهما أيضا زعيم عصابة كالي، خيلبيرتو رودريغيس أوريخويلا.

لم يأتوا إلى إسبانيا بالطبع عن طريق الصدفة. أزالت الاجتماعات التي عُقدت مع الغاليسيين خلال أشهر أي شك عن المقصد الأخير لهم، ووصلت درجة التفاهم إلى أن أقام ماتا باجيستيروس لبضعة أشهر في كورونيا، في شقة ضخمة على شاطئ أورسان. افتتح هناك مكتبا لعصابة ميديين لأجل تبييض أموال المنظمة، وأعاد تأسيس العمل مع العصابات الغاليسية. أما العلاقات البعيدة فكانت توجه عبر الهاتف بواسطة رامون ماتا، الأخ. وربما تكون واحدة من هذه المكالمات هي التي استمع إليها المحقق إنريكه ليون. كانت العصابة تستقر في غاليسيا، والشرطة كانت تستمر بملاحقة علب

التبغ!

أقام أوتشوا فاسكيس ورودريغيس أوريخويلا في مدريد، حيث أسسا مكاتب لأجل تقوية جسر المخدرات بين كولومبيا وإسبانيا، ولأجل تبييض الأموال الهائلة التي جلبوها في جيوبهم. حال وصول أوتشوا إلى إسبانيا غيّر اسمه وأجرى عملية تجميل لوجهه، وهذا ما جعل بحث DEA عنه عديم الفائدة. أما أوريخويلا، فبالرغم من أنه حافظ على شكله، لكنه كان يحمل أوراقا ثبوتية مزورة. بدأ الاثنان يبحثان عن أعمالٍ للاستثمار فيها. كانا يستخدمان شاليه فخما كقاعدة، اشترياه في بوسويلا دي ألكارون، في ضواحي مدريد. وفي تتبع استثماراتهما كانا يحصلان على استشارة محامين إسبان مهمين ومرموقين. لكن الأمر كان فاضحا جدا: إن تحريك تلك الملايين في وقت قصير جدا أثار ضجة، وفي الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1984 هاجمت الشرطة الشاليه وقبضت عليهما. وعثروا أيضا على دفتر محاسبة مخصص لمعاملات بالملايين من تهريب الكوكايين. اتصلوا بفيليبه غونساليس في الولايات المتحدة الأمريكية: كانوا يريدون تسليم تاجري المخدرات الإثنين على نحو طارئ.

وعند قولنا «على نحو طارئ» قد يعني هذا أن الحكومة الأمريكية التي يترأسها رونالد ريغان في ذلك الوقت لا تقصد السنتين اللتين قضاهما الزعيمان الكولومبيان في السجن في إسبانيا. تعرف كل من أوتشوا وأوريخويلا، وهما قائدا ميديين وكالي، إلى سجني بويرتو دي سانتا ماريا وكارابانتشيل، عندما كان أمر تسليمهما قيد المناقشة. خمّنوا من انتهى به الأمر مسجونا في نفس تلك الأشهر بسبب الحملة الكبرى على التبغ في العام 1984 (القرار 11/84، هل تذكرونه؟). نعم، المهربون الغاليسيون، ومن بينهم سيتو مينيانكو، الذي وفّر وقتا في مشاركة الثقة مع الكولومبيين وتثبيت العلاقة التي بدأت في باناما. تابع زعماء العصابات الأروسانيون الآخرون طريقهم، وأضاؤوا في ممرات السجن وغرفه شعلة جديدة دعمت الروابط بين غاليسيا وكولومبيا. يقولون في أروسا - وليس بلا سبب - أن الاتجار بالمخدرات في غاليسيا وُلد في كارابانتشيل.

خرج الغاليسيون من السجن على الفور بفضل الأداء الجيد لمحاميهم. وبقي الكولومبيان هناك حتى العام 1986، وفي النهاية حصلا على ضمانة الحكومة الإسبانية أن لا تسلّمهما إلى الولايات المتحدة، حيث كان ينتظرهما هناك حكم بالسجن عشرة إلى خمسة عشر عاما. عاد الزعيمان إلى كولومبيا، الأمر الذي فاجأ الأمريكيين، حيث حصلا على حريتهما بعد أشهر من وصولهما.

بالمناسبة، يتحدث الكاتب فيرناندو رودريغيس موندراغون - وهو الابن الأكبر لأوريخويلا - في كتابه «لاعب الشطرنج» عن تلك المفاوضات التي أفضت إلى تجنب عملية التسليم. جمّع في هذا العمل ذكريات الزعيم الكولومبي، وفي أحد الفصول يؤكد: «إن الخروج من إسبانيا كلّفنا 20 مليون دولار، وحافظ فيليبه غونساليس على خمسة. (...). أصر مُرسَلو فيليبه غونساليس على أن الانتخابات كانت قريبة وأنهم كانوا بحاجة إلى المال، ولأجل هذا قاموا بتشريع التسليم». يذكر الكتاب أن تسليم المال تم بواسطة الطائرة الخاصة ببابلو إسكوبار، وأنه كان هناك أيضا جزء مؤلف من عشرة ملايين متجها إلى محكمة العدل العليا. ما من وثائق تثبت هذه الاعترافات. كما أنه لا وجود لدليل لما تشير إليه بعض الصفحات التالية: بالإضافة إلى إنشاء أوريخويلا لعلاقات في سجن كارابانتشيل، مع

الزعماء الغاليسيين، فقد صادق عضوا في إيتا متخصصا بالمتفجرات. على أية حال، بدأت عصابة ميديين في العام 1986 مرحلة الإرهاب، عبر هجمات مستمرة في كل البلد.

بينما كان أوتشوا وأوريخويلا يقضيان سنتين في السجن، تمكّن خوسه نيلسون ماتا باجيستيروس من التملص من العدالة في كورونيا. وهكذا تمكن من تخصيص وقته للتحضير للإرساليات وتبييض أموال العصابة. يروي الصحفي بيرفيكتو كونده في كتابه الرابط الغاليسي: أن العصابة الكولومبية سقت المدينة بالملايين. ولم ينفر السكان الممتنون من تلك الملايين الآتية من المخدرات. إن أول شركة استثمر فيها الزعماء كانت شركة سيارات لوزاو، واحدة من الشركات التجارية الأهم في كورونيا، التي كانت على شفير الانهيار. جعل هؤلاء الشركاء الكولومبيون الجدد بعض الشركات التي كانت تتعامل معها لوزاو تشعر بالقلق، مثل BMW، التي انتهى الأمر بها إلى قطع علاقتها مع الشركة الكورونية.

إن مشروع مرأب أورسان س.أ.، البناء الذي يُنفّذ في ساحة بونتيفيدرا والآخر في المستشفى الجامعي الحالي، أنفق عليه أموال المخدرات. في العام 1988، نشرت صحيفة إل باييس الفضيحة. التقط مصوّر في الجريدة صورة لماتا باجيستيروس وهو يمشي مع كلبه في ساحة بونتيفيدرا، في اليوم التالي تصدرت الصورة الصفحة الأولى من الجريدة تحت عنوان: «عائلة بارون الكوكايين تقوم باستثمارات كبيرة في إسبانيا». فصّلت المعلومات أسماء شركات وسياسيين، شكلوا جزءا من المستفيدين من وصول العصابة. وتضمنت هذه القائمة العمدة السابق فرانسيسكو فاسكيس، الرئيس الأبدي لكورونيا، الذي ربح الانتخابات بدون حملة انتخابية. وهكذا، فإن فاسكيس الذي أصدر رخصة بناء مرأب أورسان، اشتعل غضبا بسبب قراءة المقال وتقدم بدعوى قضائية ضد جريدة إل باييس.

«لماذا هذا الهجوم على كورونيا الجميلة في الوقت الذي ننطلق فيه بالمشاريع؟ عندما بدأوا يقومون باستثمارات وعروض وتحسين مخطط المدينة، إذ صار من الممكن ركن سيارتك مدة 20 دقيقة، إنها كانت قفزة نوعية، بالإضافة إلى التطويرات العمرانية، والمراكز التجارية...». ولم يعرف أحد شيئا عن مصير الدعوة التي تقدم بها. كما أن الأمر وصل بحاكم مدينة كورونيا في ذلك الوقت، رامون بيرّا، إلى أن يعلن على الملأ أن ماتا باجيستيروس كان من «الناس النظيفين»، واستشهد بتقرير لقيادة الشرطة في غاليسيا ليدعم قوله.

باختصار، كشفت إل باييس عن شبكة كاملة من الأموال الآتية من عصابة ميديين، ولم يكن أحد يعرف شيئا عن الموضوع. ولحسن الحظ أنه بعد تسعة أشهر، قال جون لون، مدير الـ DEA الأمريكية، في قمة لمكافحة المخدرات عقدت في روما: «إن النقطة التي دخل منها الكوكايين إلى أوروبا هي شبه الجزيرة الإيبيرية. نعرف أيضا أن عصابة ميديين القوية جدا وعائلة أوتشوا لديهما علاقات مباشرة مع إسبانيا، علاقات ثقافية ولغة مشتركة. نعرف أن أوتشوا كان يعيش لبعض الوقت في إسبانيا. بسبب كل ذلك، نعتقد أن الكوكايين قدم إلى أوروبا عبر إسبانيا، وأن عائلة أوتشوا فعلت ذلك عبر ماتا باجيستيروس».

ما شرحه مدير الـ DEA في ذلك اليوم هو ببساطة أن الكوكايين كان يستورد بكميات كبيرة

لأول مرة إلى أوروبا بفضل العلاقة بين العصابات الكولومبية والغاليسية. وبينما كان يقول ذلك، كانت السلطات والشركات والسياسيون الوطنيون ينظرون إلى السماء ويصفرون. كانت منظمة الـ DEA يائسة من السلبية الإيبيرية، التي - كما يقال - كانت هي من قام بتسريب المعلومات إلى إل باييس لأجل الدفع إلى رد فعل. وبينما كانت السلطات تفتح الحقائب لكي يسقط فيها المال، رأى الزعماء الغاليسيون طريقا خاليا من المعوقات. بدأ عصرهم الذهبي، عصر الدقيق.

المافيا الغاليسية

«كيف تمكن تشارلين الكبير

من بيع السرطانات بسعر زهيد».

الصديق الكولومبي

في بداية التسعينيات كان الكولومبي هوغو باتينيو روخاس واحدا من قادة عصابة كالي في غاليسيا. يقول عنصر في الحرس الوطني: «واستمر في كونه كذلك حتى وقت قريب. أعتقد أنه الآن في كولومبيا». كان في ذلك الوقت يعيش في شقة أمام شاطئ سانتا كريستينا، في ضواحي كورونيا. كان المسؤول عن المكتب الذي أسسته عصابة كالي - كما غيرها من العصابات الكولومبية - في إسبانيا. في العام 1992، عقد اتفاقا مع الزعيم بويرو خوسه سانتوروم فينياس أو «الكان» (الكلب)، المسجون حاليا، لإحضار 600 كيلو غرام من الكوكايين إلى غاليسيا. أخذ خوان مانويل غارسيا كامبانيا السفينة حتى كولومبيا، وهو كان يعمل لصالح «الكلب». قاد العملية إغناسيو بيلباو، الذي تقرر أن يبقى في كولومبيا ككفالة حتى يتم الانتهاء من العملية. سار كل شيء على أفضل وجه: وصلت السفينة إلى السواحل الكولومبية، وقاموا بتحميل البضائع، وعادوا وأفرغوا الحمولة عبر مصب النهر في أروسا بواسطة زوارق سريعة. استطاع إغناسيو بيلباو العودة إلى غاليسيا بدون مشاكل، وفي تلك الليلة ذاتها، ونتيجة انتشائه بسبب النجاح، احتسى غارسيا كامبانيا وتعاطى الكوكايين. ركب سيارته وغادر نحو منزله، عندما كان على مشارف القرية، فقد السيطرة على سيارته مما تسبب باصطدام قوي لدرجة أن كامبانيا خرج من الزجاج الأمامي للسيارة وسقط ميتا على شرفة منزل في الطابق الأول.

***

إن القفزة من التبغ إلى الحشيش والكوكايين اكتملت في غاليسيا، وكان الهبوط ناجحا: نجحت عصابات مصب النهر بكسب ثقة المغربيين والكولومبيين، وقاموا بتنفيذ عدة عمليات تهريب ناجحة. تحولت عصابات التهريب بشكل نهائي إلى عصابات إجرامية: عصابة ذات شبكة واسعة من الاتصالات وتمتلك الملايين. إن الزعماء الغاليسيين، الذين كانوا قد جمّعوا ثروات كبيرة، ضاعفوا حساباتهم الجارية بفضل المخدرات، وتحولوا إلى أسياد منطقة مصب النهر، وتولوا كل ما كان العالم يعرفه.

كان العمل الرئيسي يدور حول العصابات الكولومبية. إن العصابات الثلاث الرئيسية: ميديين وكالي وبوغوتا، أرسلت رجالا تثق بهم إلى مدريد وغاليسيا، مثل المذكور هوغو باتينيو روخاس. كانوا يبيضون الأموال من مدريد، ثم يجمعونها ويعيدون إرسالها إلى كولومبيا. كانوا يشرفون على عمليات إنزال البضائع ونقلها من غاليسيا. وعندما تظهر مشكلة ما، كانت العصابات ترسل قتلتها المأجورين ليقوموا بزيارة تلك المواقع، وكان الذعر ينتشر في أروسا وبخاصة، عندما يُسمع أحدهم

يتحدث بلهجة كولومبية.

على العكس من ذلك، فقد كان الغاليسيون يرسلون رجالا يثقون بهم إلى كولومبيا وباناما (حيث كانت أموال العصابات تُبيَّض) وذلك لتنسيق العمليات. وواحد منهم هو السابق ذكره خوسه بادين خيستوسو، الملقب بـ «مانولو الكتالوني»، الذي كان يجيد التفاهم على نحو مثير للعجب مع السكان المحليين.

«وعندما ننتقل إلى العقدين الثامن والتاسع من القرن العشرين، يمكننا أن نتحدث عن ظهور عصابات مافيا». هكذا يشرح الصحفي خوليو فارينياس ويتابع: «وأعتقد أنها المرحلة الوحيدة للاتجار بالمخدرات في غاليسيا التي فيها نستطيع استخدام مصطلح بمثل هذه القوة. إذ كانت منظمات الاتجار متعددة، وتعتمد في معظمها على متانة الروابط العائلية في عملها».

تحولت غاليسيا إلى بوابة دخول الكوكايين إلى أوروبا، وهذه ليست جملة مصطنعة. إن رئيس الـ DEA في إسبانيا في بدايات ذلك العقد، جورج فاز، أكد أن 80 في المئة من الكوكايين تقريبا، أو الدقيق أو الببغاء أو البضاعة أو الفارلوبا أو اليويو أو كما يريدون أن يسموها، التي كانت تصل إلى القارة العجوز، كانت تأتي عبر منطقة مصب الأنهار الغاليسية.

على الرغم من أن الاتصالات الأولى نشأت عبر عصابة ميديين وزعيمها بابلو إسكوبار، لكن مع مرور الوقت أصبحت عصابة كالي الشريك المختار (والتي من أعضائها، خيلبيرتو، الذي كان في سجن كارابانتشيل مع بعض الزعماء الغاليسيين). كان يتزعم عصابة كالي هيلمير هيريرا بويتراغو الملقب «باتشو»، كان ابنه رئيس العصابة في غاليسيا وكان يعيش في بعض المواسم في كامبادوس، محلة «سيتو مينيانكو». بسبب ذلك كانت عصابة ميديين على مرأى السلطات الكولومبية، في حرب مع الدولة وكانت مطاردة من قبل الـ DEA، الأمر الذي - بطريقة ما - كشف الطريق إلى زملائهم في كالي.

لقد عمل الغاليسيون أيضا لصالح المجموعة العسكرية غير الرسمية «الدفاع الذاتي الموحد عن كولومبيا» (AUC). كان زعيمها في ذلك الوقت كارلوس كاستانيو، الذي قاد شخصيا بعض عمليات إنزال البضائع في أروسا وكورونيا، كما يذكر بعض أعضاء الحرس الوطني القدامى. كان هناك أربع منظمات كبرى في غاليسيا: منظمة سيتو مينيانكو، ومنظمة لاوريانو أوبينيا، وآل تشارلين، ومنظمة مارسيال دورادو، ونشأت كل تلك المنظمات من تهريب التبغ. وفي مدارها كان ثمة شبكة من مجموعات صغيرة تعمل على إنشاء عقود فرعية: إن عصابة «الكلب» السابق ذكرها كانت واحدة منها. وكان هناك أيضا عصابات «اللولو» و«باولوس» و«البولغوس» عصابة مانويل كاربايّو، وعصابة ألفريدو كورديرو، وفرانكي سانميلان، والباناروس، وفالكونيتي. سوف نتحدث عنهم جميعا، حيث لا يمكن تجاهلهم.

كانت كل عصابة تنتمي إلى منطقة محددة، لكن لم يكن هناك حصرية مكانية. وكانت كل واحدة تفرغ بضاعتها في المكان الذي تريد، وكان هناك تجارة وأعمال بما فيه الكفاية لتجنّب الحروب

فيما بينهم. في الحقيقة، كانوا يتعاونون من حين إلى آخر إذا كانت الحمولة ضخمة. وحتى مع مشهد الوفرة هذا، كان هناك بعض عمليات تصفية حسابات بسبب الخيانات وسوء التفاهم والأفخاخ العديدة.

كانت العصابات منظمة بطريقة هرمية متسلسلة، بمستويات قيادية متعددة. كانت عبارة عن مجموعات مغلقة، واختراقها كان شبه مستحيل بالنسبة إلى الشرطة. إذا كان هناك من شيء يميّز عصابات غاليسيا فهو إمكانيات تخفيهم، وسريتهم، وعدم ثقتهم المطلقة بأي حركة خارجية، الأمر الذي كان مألوفا بين حركات المافيا المبنية على روابط عائلية وذات الأعراف الاجتماعية الصارمة. وهذا ما حوّلهم ولا يزال إلى بنى من المستحيل تقريبا اختراقها، وإلى منظمات تقدرها باقي المنظمات التي هي على علاقة بها.

تألف عمل المنظمات الغاليسية من الخطوات التالية: جلب الكوكايين من كولومبيا، وعبور الأطلسي، وإنزاله في غاليسيا (الخطوة الأكثر تعقيدا) ثم إعطاؤه للكولومبيين من جديد لأجل توزيعه. يمكن القول إنهم كانوا شركاء فرعيين، شركات تقدم خدمة التقاط وإرسال لصالح العصابات الكولومبية. لقد كانت العصابات الغاليسية ملزمة بترك أحد ما في كولومبيا في كل عملية كعربون ثقة بشرية. كان عضو من المنظمة يسافر بواسطة السفينة ببطاقة ذهاب فقط، ويمكنه العودة إلى غاليسيا فقط إذا أعلم مكتب العصابة في إسبانيا أن البضاعة قد وصلت إليه. إذا حصل أمر ما، يبدأ الكولومبيون تحقيقا، وإذا اكتشفوا أن أحدا ما تخطى حدوده وكان يتذاكى، كانت الرهينة تختفي في كولومبيا. إن مينيانكو وآل تشارلين وشركاءهم كانوا جادين، ولم يكن لديهم مشاكل خطيرة كما هو معروف. لكن المجموعات الصغيرة الأخرى حاولت أن تتلاعب بالكولومبيين. على سبيل المثال، حصل في أيلول/سبتمبر من عام 1995 أن إغناسيو بيلباو، شريك عصابة الكلب (وهو نفسه الذي كان مع مانويل غارسيا كامبانيا قبل سقوط الأخير على شرفة شقة في الطابق الأول)، سافر إلى كولومبيا ككفالة بشرية. لم تصل الحمولة أبدا إلى مكتب عصابة كالي. وكان على ابنه أن يسافر بعد وقت إلى كولومبيا من أجل استرجاع جثة أبيه.

كان للعصابات الغاليسية الأكثر قوة أسطولها الخاص من السفن. بالطبع، باسم أشخاص آخرين. وكانت تلك السفن كلها تقريبا سفنا قديمة لا تخرج للصيد. وعادة ما كانت المجموعات الأخرى تستخدم قوارب صيد قيد العمل. في عام 1986، ضم الاتحاد الأوروبي كلا من إسبانيا والبرتغال إلى اتفاقية الصيد المشتركة (PPC)، وقلّص عمليات الصيد، وخفّض الكمية التي يمكن بيعها. فجرب كثير من الصيادين حظهم بنوع آخر من التجارة، وذلك لمواجهة البطالة التي فرضت عليهم قسرا. كان الخطر مرتفعا، لكن العائدات كانت تستحق. يشرح لويس روبي بلانك، محامٍ ومسؤول قضائي وهو من سوف يتولى بعد سنوات أمر قصر بايون العائد للاوريانو أوبينيا: «كان هناك بعض البحارة الذين كانوا يخرجون لبضعة أسابيع للصيد وأسابيع أخرى لتحميل البضائع. كانت العصابات قد حاكت شبكة واسعة في الأسطول الغاليسي. لكن كان من المستحيل أن يقول أحدٌ لنا أي شيء. كان جميع البحارة على علم بما يحصل، لكن أحدا منهم لم يخبرنا شيئا مطلقا. كان الأمر حقا لا يصدق».

في تلك الحالات يتصل الزعماء الغاليسيون بالمالك ويعطونه بعض التوجيهات: «يجب عليك أن تكون هناك في اليوم الفلاني والساعة الفلانية. سيضع الكولومبيون الحمولة وسيصعد واحد أو إثنان

منهم على متن القارب معكم من أجل رحلة العودة. تعودون وتنتظرون في هذه النقطة، حيث ستأتي الزوارق». ترسو قوارب الصيد على بعد 200 ميل من الساحل (312 كيلومترا)، في المياه الدولية، وتأتي الزوارق إلى هناك من أجل نقل الحمولة إلى اليابسة بأسرع ما يمكن. بعد إنزال المخدرات إلى الزورق السريع، يعود قارب الصيد فارغا إلى مرفأ فيلاغارسيا، أو إلى كامبادوس، أو إلى مرفأ إيّا، أو إلى ريبيرا، أو إلى مرفأ فيغو، أو أي مرفأ آخر خرجت منه تلك القوارب.

إن ميزة هذه العمليات مقارنة بتهريب التبغ هي أن الحمولة أقل، بالإضافة إلى أن الطلب والوقت والجهد كان أقل بكثير. كان الزورق السريع يصل إلى الشاطئ ومحركه يعمل وكان الشباب يبدأون بإفراغ الحمولة. ويصف شرطي في الحرس الوطني: «كانوا يفعلون ذلك كالوحوش. يركنون الزورق على الشاطئ ويفرغون كل شيء خلال لحظات: 2000 كيلو من الكوكايين في نصف ساعة». وكانت البضائع تنقل إلى سيارات أو ناقلات. ويتابع الشرطي: «كان أوبينيا يملك أربع عربات برمائية وكان يضع 30 كيسا في كل واحدة. كان بإمكانه نقل أكثر من 5000 كيلو بالمجمل. كانوا يحملونها ويقودون بدون إشعال المصابيح، كانوا يقودون كالمجانين. لم يكن هناك أحد من الحرس الوطني يمتلك الجرأة على إيقافهم. إما أن تتصرف جيدا أو يأخذونك معهم». يتذكر الشرطي التدخل في عملية تفريغ علنية في مناسبتين. «تدخل إلى الموقع ويختفون، مثل الأشباح. يرمون أنفسهم في الأدغال، وكما تعرفون جيدا، من المستحيل القبض عليهم». والخيار الآخر كان حماية الأكياس في إحدى المناطق العديدة الموجودة على السواحل الغاليسية. اكتشف الحرس الوطني في عام 1990 في ريانخو سبع مواقع فقط في شهر واحد.

تذكر روساورا، وهي من سكان فيلانوفا، والتي وجدت نفسها - مثل البقية في المنطقة - في حدث إنزال للبضاعة أكثر من مرة واحدة: «حين كنت أذهب إلى الجامعة، أخذونا في نهاية أحد الأسابيع للتخييم في إيّا في أروسا. كنا داخل الخيم مساء وبدأنا نسمع ضجة ونرى أنوارا. أتت البروفيسورة وقالت لنا ألا نخرج. بقينا في الداخل، كنا نعرف مسبقا أنها كانت عملية إنزال. في اليوم التالي، وجد أحد الزملاء حفرة، ولعبنا لعبة لنرى من يتجرأ أن يدخل فيها. أظن أن الأكياس كانت داخلها». ما زالت الحفر موجودة، لكن بكميات أقل. ويفضل السكان المحليون أن لا يقحموا أنفسهم بالأمر. علاوة على ذلك، وفي بعض الحالات، تكون الحفر في منازل السكان أنفسهم. يضيف الشرطي: «عرضوا على واحد منهم أن يبنوا له شاليه مقابل حفظ البضاعة هناك. وبالطبع فقد وافق».

في بعض الأحيان، إذا كانت السلطات مترصدة، كانوا يعتمدون على مخيلتهم. في العديد من المناسبات كانوا يتركون أكياس الحشيش تحت القوارب المسطحة، كما كانوا يفعلون في أيام التبغ (أطباق التبغ). يتذكر شرطي شكوى قُدمت له: «اتصل بي صاحب قارب، وكان متوترا جدا، أردت إغلاق الخط أكثر من مرة. أعطاني بعض التعليمات وقال لي إنهم كانوا مستعجلين. وصلنا ووجدنا أن كامل السطح السفلي للقارب المسطح مليء بأكياس من الحشيش، 800 كيلوغرام معلقة بحبال».

كانت نقاط الإنزال منظمة ومدروسة بدقّة. وعادة ما تكون ثلاث أو أربع نقاط، مليئة بالشباب الذين يراقبون أي مدخل. عندما يقترب الزورق إلى مصب النهر، كانوا يبحثون عن ومضات الضوء على اليابسة. وإذا لم يروها، فإن ذلك يعني أن شيئا ما قد حصل، فيغيرون مسارهم إلى الموقع الثاني.

وهكذا حتى البديل الثالث أو الرابع. في الوقت الحالي، يتم التنسيق عبر الهواتف المحمولة ذات الاستخدام الواحد بدلا من ومضات الضوء. اتصال واحد، ثم التأكيد، ثم يُرمى الهاتف في البرية. ومن الخيارات الأخرى كان أن تصل البضائع مباشرة إلى المرفأ. وكانت عدة مرافئ في شمال غاليسيا تحت سيطرتهم عمليا، ومن بينها مرفأ كورونيا، حيث كانوا يهرّبون عبره العديد من البضائع. كان القارب يصل إلى المرفأ بدون عقبات ويتم تنزيل المخدرات مخفية في صناديق السمك.

***

يروي مانويل فيرنانديس بادين، البالغ من العمر 56 عاما، والمولود في فيلانوفا في أروسا، والذي بدأ العمل لصالح آل تشارلين في الثلاثينات من عمره، والذي بعد سنوات رفع الهاتف ليروي تجربته للقاضي غارسون، متحولا إلى واحد من أول المتعاونين المحميين قانونيا من قبل الدولة: «إن أول عملية إنزال وتهريب قمت بها كانت في الثالثة فجرا على جرف في بايونا. لقد حطمت نفسي بالمخدرات. ليالٍ كثيرة من الحفلات في بورتونوفو، مع الكحول والكوكايين... في منطقة مصب النهر يوجد الكثير من المخدرات. وعندما وصل بي المطاف إلى القاع، تركت كل شيء وبدأت أبحث عن عمل. مرت الشهور ولم أحصل على شيء. تذكرت مانوليتو تشارلين (وهو ابن مانويل تشارلين، زعيم العصابة) وطلبت منه عملا. أراد أن يأخذني إلى إحدى عمليات إنزال التبغ». بعد أسبوعين من ذلك الوقت، اقترب أخ مانولو، ميلتشور تشارلين، من بادين في إحدى الكافيتريات وقال له: «ارتدِ ملابس داكنة اليوم. سوف آتي مساء وأقلّك». اقترب ميلتشور بسيارة بورش 944 وأخذ بادين للعشاء في مطعم «لوس أبيتوس» في نيغران. وهناك شرح له كيف سيقومون بعملية إنزال البضائع.

ومن هناك ذهبوا إلى بايونا وانتظروا في شاليه قيد الإنشاء قرب خليج صغير. وصلت الزوارق في الثالثة فجرا. «صرخ علينا واحد من الزعماء لأننا كنا ندخن. كان باستطاعة خفر السواحل/قوى الجمارك أن يروا الومضات ويغضبون. عندما بدأوا يفرغون الصناديق من الزوارق، لاحظت أن الحمولة لم تكن تبغا، بل كانت حشيشا». أنزل بادين والبقية في تلك الليلة 2000 كيلو من الحشيش إلى الأرض. «كانت حافة شديدة الانحدار، وأنا كنت بحالة سيئة: بدينا، نادرا ما أنام، مصابا بالاكتئاب. بعد نقل الكيس الأول، استلقيت بين شجيرات. كان ساعداي يؤلمانني ألما مبرحا. وقال لي: أنت لا تصلح لشيء!» لم يلاحظ أحد هروب بادين، واكتملت عملية الإنزال بنجاح.

بعد أسبوعين من هذه القصة، تكررت مرة ثانية، ثياب داكنة، هذه المرة في كابو تورينيان في موخيا، في عراء شاطئ الموت. «كان صيف عام 1989. كنا ننتظر أن تصل الزوارق إلى مكتب السيتاريا[12] الذي يوجد هناك والذي يعمل لصالح آل تشارلين. ساعدنا تلك المرة عصابة اللولو: لا أعلم كم وضعوا من الشباب على الطرقات من أجل المراقبة وضمان عدم اقتراب أحد». عندما وصلت الزوارق لاحظ بادين أنه بدلا من العلب، بدأوا ينزلون البيدونات. «لقد كانت مليئة بالكوكايين. حوالى 700 كيلو. كان في أحد الزوارق البابلو الذي جلب السفينة من كولومبيا، ومعه شخصان كولومبيان. اقتربت وحملت حقائب الكولومبيَين وأخذتها إلى السيارة. كانا هادئين، وجادين للغاية، ولكنهما كانا مثقفين جدا. بعد سنوات سألني غارسون عن اسم الكولومبيين، ولكني لم أقل له. وحتى لن أقول ذلك الآن. إن الأمر مخيف. كانا من الناس المهمين، صلة وصل العصابة مع آل تشارلين». عندما وُضعت

البيدونات على الأرض، فتحت ووضعت عبوات الكوكايين في سيارة سيتروين ب.إكس. «امتلأ صندوق السيارة وكذلك كل المقاعد حتى السقف بعبوات الكوكايين. كان السائق غارقا بالعبوات حرفيا. إذا قام الحرس الوطني بإيقافه، فسيهلعون!» لكنهم لم يوقفوه. لم يظهر أحد هناك، ونال بادين نصف مليون بيزيتا مقابل ذلك العمل.

بمرور الوقت، تحول المتعاون المستقبلي إلى اليد اليمنى لميلتشور تشارلين وكان يُعتبر عضوا في العصابة. «كنا نحتفظ لأنفسنا بجزء من الكوكايين ونعيد بيعه. كان لتشارلين قاعدة: لم يرد أن يتعامل مع الجِمال»[13].

كان بادين يضع عشرة كيلوغرامات في سيارته وكان يدور في منطقة مصب النهر ويبيع البضاعة. «كنت أخزّن الباقي في مرأب في كالداس دي رَيس، وكنت أبيع الكثير في ذلك الوقت. في بعض الأحيان كنت أنسق موعدا لبيع كيلو وكنت أجد أحدا أعرفه: «اللعنة! حتى أنت؟!» كان الجميع مدمنا. وكنا نبيع أيضا الكثير إلى مدريد والأندلس. كانوا يأتون إلى غاليسيا للشراء. كنا المركز، وكنا نوزع لكل إسبانيا. من يعرف الكوكايين كان عليه أن يأتي إلى أروسا. كانوا منظمين جدا، وكان ميلتشور مسؤولا عن كل شيء يخص عمليات إنزال الحشيش. ولكنه لم يستطع أن يكون حاضرا فيها جميعها، لأنه كان هناك الكثير منها، لذلك كان يحضر آخرون. أما ما يخص الكوكايين فكان الكولومبيون هم من يقودون عملياته وينسقها أبناء تشارلين الكبير. كانوا يوظفون شبابا من أجل عمليات الإنزال».

- هل كان هناك مشاكل مع عصابات أخرى؟

- لا، لم يكن هناك مشاكل، لكن كان هناك غيرة. كانوا يتحدثون دائما عن كمية المال التي يملكها هذا أو ذاك، وكانوا دائما يريدون المزيد. كانوا يريدون أن يكونوا من يملك مالا أكثر. كانوا طماعين جدا. أنا أعتقد أن ذلك هو سبب كونهم يسرقون من الجميع. يمكنك أن تكتفي بعملية إنزال واحدة فقط. لكنهم كانوا دائما يريدون المزيد.

***

بعد أن ينزل الغاليسيون الكوكايين إلى اليابسة، يسلمونه إلى العصابات الكولومبية في غاليسيا أو ينقلونه إلى مدريد. كان لدى العصابات الكبرى في منطقة المصب أسطولها الخاص من الشاحنات، والتي تعود إلى شركات تغطية، عادة شركات صيد سمك أو محار، والتي تصل إلى سوق مدريد مباشرة من أروسا. كانت واحدة من هذه الشركات «آل تشارلين للمحار»، مطبخ المحار «لا باسيله»، الذي كان يشكل جزءا من شبكة شركات آل تشارلين. خفضت شركة لا باسيله الأسعار إلى أقصى حد ودمرت المنافسة القانونية، ولم يستطع أحد أن يفهم - في الواقع، نعم - كيف كان بإمكان تشارلين الكبير أن يبيع السرطانات بسعر منخفض إلى هذا الحد. كانت هناك فترة لم يصل فيها إلى سوق مدريد سوى محار آل تشارلين. وكانت تُرسل أيضا بضائع مليئة بال- «دقيق» لصالح مكتب العصابة.

حالما يصل الكوكايين إلى أيدي الكولومبيين، وليس قبل، كانوا يدفعون للغاليسيين. كانوا يتقاسمون الحصص مناصفة، لكن عادة كانت النسبة 70 في المئة للكولومبيين و30 في المئة للغاليسيين. وإذا كانت العملية محفوفة بالمخاطر على نحو خاص، تكون النسبة 60-40. كان من المعتاد أن يبيع الغاليسيون حصتهم للكولومبيين من جديد، حيث إن الدفع كان بالمعدن على الدوام تقريبا. لكن بالرغم من ذلك، كان قسمٌ صغير يبقى في منطقة المصب. ومن هناك كان يوزَّع إلى البائعين والجمال. خلال تلك السنوات، كان من الأسهل الحصول على الكوكايين في منطقة المصب من أي مخدر آخر. وكان سعره منخفضا جدا. إذ كان الغرام الواحد في مدريد يصل إلى حوالى 10 آلاف بيزيتا (حوالى 60 يورو)، أما في فيلاغارسيا فكانت نفس الكمية تباع بأقل من 6 آلاف بيزيتا (حوالى 35 يورو)، تقريبا النصف. في الحقيقة، كان من السهل جدا شراء الغبار الأبيض، كان الأمر سهلا للغاية.

كانت العصابات الغاليسية تدفع لكل المشاركين في العملية: أصحاب القوارب، والبحارة، وسائقي الزوارق السريعة، والشباب الذين يقومون بإنزال الأكياس، وسائقي الشاحنات أو السيارات، ولصبيان المكتب، إلخ... في ذلك الوقت، كان كيلو الكوكايين يباع بحوالى عشرة ملايين بيزيتا تقريبا (ما يقارب 60 ألف يورو، منذ 25 سنة). إذا تمكنت عصابة غاليسية من إنزال ألف كيلو من الكوكايين والحفاظ على نسبة 30 في المئة، وبذلك فإنها تكسب وبعملية واحدة فقط، حوالى 20 مليون يورو.

كان السكان يقولون عنهم في ذلك الزمن أنهم «يجلبون الغنى»، والكثير من الغنى. أما من ناحية الكولومبيين، فكانوا يوزعونها على نطاق واسع في إسبانيا ويصدرونها إلى المملكة المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، وهولندا، والسويد، وبولندا، وليتوانيا، وإستونيا وروسيا. من أروسا إلى كل زاوية في أوروبا. لم تنجح غاليسيا أبدا في تاريخها من تصدير منتجاتها من المحار والسرطانات بمقدار نجاحها في تصدير ذلك المنتج الكولومبي.

في بعض الأحيان، كان يطرأ تعديل على خطة العمل، وذلك متى كان الشاطئ مكشوفا جدا أو كانت الشرطة غاضبة، كان تجار المخدرات يغيرون الاستراتيجية. ولدت في إسبانيا في ذلك الوقت ظاهرةُ «البغال»، ويقصد بذلك الأشخاص الذين يبتلعون كرات من النايلون محشوة بالكوكايين، وحالما يعبرون نقاط التفتيش، كانوا يخرجونها ويستعيدون المخدرات. ما من أحد يعلم كم استطاعت العصابات الكولومبية أن تمرر في بدايات الثمانينات ونهاية التسعينات، عندما لم تكن الشرطة على علمٍ بهذه الطريقة بعد، ولم تكن تمتلك معدات للكشف عنها في المطارات. كان مطارا باراخاس المدريدي ولابوكولا في سانتياغو أول مطارين يدخل عبرهما «البغال». يحكي فيليبه سواريس أن أربعة من السكان غادروا من فيلاخوان - منطقة في بلدية فيلاغارسيا - ولم يكونوا يعرفون القراءة ولا الكتابة، وتوجهوا إلى البرازيل بالطائرة. في تلك الآلة الضخمة الجديدة والمسببة للهلوسة كان معهم زعيم من زعماء العصابات الغاليسية من فيلاغارسيا. قدموا إلى السكان الأربعة كل وسائل الراحة والكماليات الآتية من ريو دي جينيرو، وبعد ذلك قدموا لهم 30 كيلو من الكوكايين في أسطوانات توضع عبر فتحة الشرج. عادوا إلى إيطاليا، ومن هناك إلى فيلاغارسيا بالسفينة، حيث قاموا بالتغوط فور وصولهم. عرضوا على كل واحد منهم مليوني بيزيتا، لكنهم دفعوا لهم فقط نصف ذلك المبلغ. هدد

أحدهم بإبلاغ الشرطة، لاحقا عثر عليه أحد سكان فيلاخوان شبه غائب عن الوعي بسبب ضربة أفقدته الذاكرة.

لم يكن إخفاء المخدرات مهمة سهلة، وكانت تحصل حوادث سريالية على نحو متكرر. كان هناك حالات من حقائب المال المخفية في خزانات المياه، ورزم المال التي تُحرق في حظيرة في فيلانوفا نتيجة عدم اكتراث أحد السكان. في كاريل، قام رومو الدو - وهو الاسم المستعار لأحد تجار المخدرات الذي كان يعمل لصالح آل تشارلين - بإخفاء 2 كيلو من الحشيش في إسطبله. في تلك الليلة، قرر خنزيره تناول ذلك الحشيش على العشاء، وضعت الشرطة رومو الدو وزوجته في السجن، واحتلت قصة الخنزير والجرعة الزائدة الصفحات الأولى في الجرائد الغاليسية. تحول هذا الرجل إلى شخصية مشهورة في المنطقة. ذات مرة، حصل حادث سيارة بين ابن مربي الخنازير وسيارة مانولو. خاف الشاب ونزل أمام السيارة وأعتذر من الزعيم. فاستغل الابن شهرة والده وقال: «اللعنة! أنا ابن رومو الدو، صاحب الخنزير الذي مات بسبب أكل الحشيش».

أروسا، أرض المخدرات

في كاريل، وهي بلدة ملاصقة لفيلاغارسيا وهي مشهورة برخوياتها، كان الناس يعرفون أن الأمور سارت على ما يرام في عملية إنزال يقودها أوتيرو غاريده، عندما كانوا يرونه يسير واضعا إحدى قدميه على الرصيف والأخرى على الطريق. يضحك شرطي قديم ويقول: «كان يمشي بهذه الطريقة عندما يكون سعيدا».

لم يصبح غاريده شخصا مهما في أوساط تجار المخدرات في غاليسيا. إن هوسه بالمشي على نحو غير متوازن كان مجرد حالة نادرة بعيدة جدا عن موجة التباهي المافيوية التي انتشرت في منطقة مصب النهر في أروسا في نهايات الثمانينات وبدايات التسعينات. وبعد أن ثبتت أعمال تجار المخدرات، انتشرت مظاهر الإسراف. «بدأوا بشراء منازل ضخمة، وقصور، وقادوا سيارات فخمة. أرادوا أن يظهروا لكل العالم أن أمورهم كانت تسير على ما يرام». هذا ما رواه ضابط في الحرس الوطني الذي تابع عن قرب تلك الحقبة الذهبية الأولى للاتجار بالمخدرات في غاليسيا. كذلك يتذكر فيرناندو ألونسو - وهو مدير المنظمة الغاليسية لمكافحة المخدرات - ما كان يشاهده في تلك السنوات: «كانوا جميعا مسرفين: تجار المخدرات، الكبار منهم والذين في الوسط والصغار. كان الجميع يتباهون على طريقة الزعماء الصقليين. كانت أروسا في تلك السنوات على حافة التحول إلى صقلية. مع كامل الاحترام إلى صقلية، لكنّا كنا نعتبرها النموذج الذي نريد الوصول إليه، بدون أي شك».

يشرح فيليكس غارسيا، مدير الـ UDYCO في غاليسيا: «إن أول ما كان يقوم به الزعماء هو شراء القصور. كان الأمر تلقائيا. أما شباب العصابات فيشترون السيارات الفخمة». أما آل تشارلين فاشتروا قصر فيستا ريال، في فيلانوفا في أروسا، وهو منزل ضخم يعود للقرن السابع عشر، بحديقة تبلغ مساحتها 24 ألف متر مربع، ويعتبر بالنسبة إلى إدارة الآثار في غاليسيا معلما معماريا ذا قيمة عالية. لم يرد لاوريانو أوبينيا أن يبقى خلف الجميع، فكافح بعناد ليحظى بقصر بايون حتى حصل عليه، منتزعا إياه من تشارلين الكبير. كان البناء يعود للقرون الوسطى وأعيد تأهيله في بدايات القرن العشرين، ويحيط به 287 هكتارا من كروم عنب نبيذ ألبارينيو. وكانوا يسمون قصر بايون في فيلاغارسيا: فالكون كريست (عُرف الصقر).

كما يفعل حديثو النعمة، أراد الزعماء كل شيء أن يكون على أعظم ما يمكن. قام أوبينيا بتغيير النوافذ الزجاجية في القصر وصمم بعض القطع المبتذلة ذات الألوان الفاقعة. بعد ذلك أمر بنحت تمثالٍ من الرخام له وآخر لزوجته. كذلك أمر بإنشاء برّادٍ من الحجر. أراد أن يكون منسجما مع بقية القصر، لكن التقنيين أصروا أن ذلك غير قابل للتنفيذ. ظل دون لاوريانو يحاول سنين للحصول

على براد الحجر خاصته لكنه لم ينجح في مسعاه.

قام مارسيال دورادو - الذي استمر في تلك السنوات بالعمل بالتبغ - بتشييد قصر في إيّا في أروسا، ووضع تمثالا هائلا لبوذا في داخله. ولكن أكثر الأمور المدهشة كان المسبح الذي شيد فوق السقف الزجاجي للصالون. من ناحية أخرى، اشتهر سيتو مينيانكو بسياراته: كان لدى زعيم كامبادوس ثلاث سيارات شيفروليه كورفيت وكان يقودها في أروسا مبتسما.

وُلدت الكثير من الأساطير في ما يخص تباهي تجار المخدرات. كالتي تتحدث عن شبكة من الأنفاق، التي أمر أوبينيا بحفرها تحت قصره بايون، أو الحجرات التي فتحها في دعائم المبنى لإخفاء المال. كما أن السكان في فيلانوفا يؤكدون أنهم في صباح أحد الأيام وجدوا أوراقا مالية تطوف في برك المياه والمجمعات المائية، لأن زعيما رمى في اليوم السابق ثروته في المرحاض بينما كانت الشرطة تقرع بابه.

يقول فيرناندو ألونسو: «كانوا مهووسين بالترف. تراكمت ثروتهم مع إفلات مطلق من العقاب. كانوا يشترون أملاكا من كل نوع: منازل، وسيارات، وقوارب، ويخوت، وسفن، وشركات، وشقق وأراض...». أما الشباب الذين كانوا يعملون لصالحهم فقد ميّزوا أنفسهم: عندما كانوا يشاركون في عملية إنزال ناجحة، كانوا يذهبون بسيارات بي.إم.دبليو أو مرسيدس. في تلك السنوات أصبحت فيلاغارسيا تعرف باسم فيلامرسيدس.

لم يتعففوا عن المتعة. كان زعماء العصابات معروفين بزياراتهم المتكررة إلى أفضل المطاعم، وكانوا يتناولون من بين الأمور الأخرى المأكولات البحرية الباهظة الثمن، لأن كل شركات المأكولات البحرية كانت ملكا لهم تقريبا: تذهب أفضل القطع إلى موائدهم - كما حصل لراي ليوتا في «واحد من أملاكنا»، كانوا يحضّرون لهم الموائد على نحو طارئ إذا كان المكان ممتلئا - وكانت توضع على موائدهم زجاجات نبيذ ألبارينيوس الألذ. أما إذا اختاروا الذهاب إلى كازينو توخا، فكانوا يحضّرون لهم حجزا أيضا. لقد أحصى فيليبه سواريس، صحفي من أروسا، 107 زيارات لسيتو مينيانكو إلى الكازينو خلال 20 شهرا. كانت الحفلات أيضا تحصل على نحو مستمر، وذكر الشرطي القديم: «أتذكر أنهم كانوا يقيمون كثيرا من الحفلات مع الحرس الوطني». عندما كان أحد الزعماء ينظم سهرة، ما كان أحد ليتغيب من الشرطة والسلطات والسياسيين. وقد وصل بهم الأمر إلى أن يقيموا احتفالا في غرفة التجارة في فيلاغارسيا. كان الأمر مثل الأفلام، لكن هذا ما كان يحصل.

لم يتخلف الصحفيون عن الحدث أيضا، خاصة الصحفيون الرياضيون وأولئك الذين لا يحققون بنشاطاتهم. كانوا يستمتعون في ذلك الوقت بكرم سيتو مينيانكو، المحب الكبير لكرة القدم وأفضل مضيف يقدم الطعام في الشاليه خاصته. يروي الصحفي مانويل خابويس في يومياته: «أرجل السرطان المسحوقة». كان قد دُعي إلى واحدة من تلك العشاءات معظم الصحفيين الرياضيين في غاليسيا. كان هناك كثير من زجاجات النبيذ والشمبانيا وأفضل المأكولات البحرية في منطقة المصب. في لحظة ما بعد العشاء، ظهرت سلالم أسفل كارافان مليء بالعاهرات ذوات المستوى الرفيع. ويتابع خابويس: «كان الزعيم مستعدا للركض ثلاث قارات ليصل على الوقت إلى كامبادوس من أجل اللقاء

بفتاة بعمر 19 عاما».

شكلت النساء الخطوة الأخيرة على سلم الترف والتباهي. يتابع الشرطي القديم حديثه ضاحكا: «في كل مرة تحصل عملية إنزال ناجحة، ترى السيارات الفخمة تعبر إلى البرتغال متجهة إلى أفضل النوادي. كانوا يقضون كل اليوم مع العاهرات». ومن بين الجميع، كان مينيانكو بيرز - من جديد - دائما وبرفقته نساء كاريبيات جميلات. ويذكر الشرطي: «أتذكر صديقة دومينيكانية لسيتو، أعتقد أن اسمها كان أليخاندرينا. عندما كان سينو يدخل إلى المفوضية، كنا جميعا ننظر إليها. ولكنها لم تكن تنظر إلى الشباب من حولها. أذكر مرة أني رأيتهم يتقاتلون في الشارع ويتدحرجون على الأرض بسببها».

ويتذكر الشرطي القديم أيضا: «كانوا يضاجعون نساء بعضهم. وفي كل مرة يظهر فيها أحدهم مع امرأة، كان الآخرون يحاولون ملاطفتها». وانتهى المطاف بسيتو للجلوس على العشاء على نفس المائدة مع إيزابيل بانتوخا. كان ذلك في مطعم بوستا دو سول في كامبادوس، لم يكن عشاء حميميا مع ذلك - كان هناك 14 شخصا على المائدة بعد حفل موسيقي في بونتيفيدرا، كانت تلك الليلة على حساب الزعيم، الذي أنهى السهرة بالتصفيق بينما كانت بانتوخا ترقص وهي تحمل جرة فوق رأسها. حتى خوليو إغليسياس ظهر في تلك السهرات، بطريقة غير مباشرة، عبر شبكات الزعماء الأروسانيين. في العام 1989، حقق القضاء مع من كان مدير أعماله في ذلك الوقت، رودريغيس غالفيس[14]، بسبب كونه وسيطا - كما هو مزعوم - في إرساليتي كوكايين. كان من المعتاد رؤية رودريغيس غالفيس - وأيضا خوليو إغليسياس - في فيلاغارسيا أو في كازينو توخا. انتهى الأمر برجل الأعمال كارلوس غويانيس - وهو من أعضاء مجتمع الأغنياء العالمي في الثمانينات - متهما في عملية نيكورا. اتهم بتوزيع كوكايين عصابات غاليسيا في حفلات إيبيزا وماربيّا، التي كان يقصدها الأروسانييون. واجه حكما بالسجن لمدة 8 سنوات، لكن تمت تبرئته.

تشرح صحفية على معرفة بأمور عصابات المخدرات في غاليسيا: «كانوا قرويين[15]، متظاهرين بالتمدن وبلا ذوق. كانوا يرتدون القمصان ويفتحون أزرارها لإظهار سلاسل الذهب حول أعناقهم، وكانوا يضعون الخواتم والأساور». في نهاية الأمر، لم يتوقف الزعماء عن كونهم رجال أعمال بدون أدنى علمٍ عن نبع المال. كانوا الكيتش[16] في العمل. بعيون الجهات الرسمية، كان مهربو المخدرات في منطقة المصب صيادي محار وسرطانات، أو يملكون ورشات صيانة، أو يديرون بارا أو يربون الماشية. كان لدى الجميع أشغال بديلة والتي كانت رأس حربة تبييض أموال المخدرات. حسنا، في منطقة المصب، كانوا يكررون - وما زالوا - صورا مثل صورة الفلاح الذي يقود التراكتور خاصته عبر البستان بواسطة البورش كايين التي يركنها خارجا، أو سيدة تتناول الحبار في كشك بحري على الشاطئ وساعة روليكس في معصمها. في الواقع، كان الجميع يعرفون من كان في العمل. كانت الدولة توافق على مشهد يختار فيه البعض تهريب المخدرات كطريق مهني بدون عوائق كبرى، وتعايشوا على نحو متباهٍ مع السكان الآخرين الذين كانت لهم حياتهم الخاصة. ولم يكن مستغربا في منطقة المصب أن ترى شابا قد انتقل من العمل في دكان فاكهة إلى قيادة سيارة رياضية بقوة مئتي حصان.

لم تغب الصلبان وعذراء كارمن، شفيعة البحارة، عن المشهد. فغالبية الزعماء كانوا يخاطرون بحياتهم بين الحين والآخر في عرض البحر. لذا، كانت صور السيدة العذراء معلقة على الزوارق وفي داخل البيوت. في يوم موكب عذراء كارمن، عندما تخرج قوارب وسفن البلدات الساحلية في غاليسيا في موكب محملة بالزهور، لم تكن قوارب العمدات هي من يقوم بافتتاح الموكب، بل قوارب مهربي المخدرات.

كان لدى العصابات أعرافهم وممارساتهم المافيوية، وهي أكثر حقارة بكثير مما كان يصوَّر في السينما. وقد عانى الصحفيون كثيرا بسبب عملهم الذي كان يوجب عليهم تغطية الأحداث في تلك السنوات الأولى من فترة الاتجار بالمخدرات. يذكر أحد الصحفيين: «عندما عدت إلى المنزل بعد أن أوصلت ابني إلى المدرسة، رأيت قطا مشنوقا وفمه إلى الأسفل أمام باب المنزل. كان ذلك تحذيرا تقليديا من قبلهم». وعندما عاد صحفي آخر إلى منزله وجد باقة من الزهور بانتظاره. «قاموا بتنسيقها وإحضارها بأنفسهم، مع رسالة تهديدية واسمي على الشريط». كانت تلك السنوات صعبة على المراسلين الذين كانوا يحققون بأمور العصابات. لقد ضُرب أحد الصحفيين القدامى وتُرك مع كدمات زرقاء على وجهه.

قد يبدو الأمر مجرد مزاح، أو دليلا على ما قدمته السينما عن الحقيقة الاجتماعية لمنطقة مصب الأنهار في غاليسيا في تلك الحقبة، لكن أحد الأفلام يظهر على أفضل وجه تلك السنوات الذهبية للاتجار بالمخدرات هو الفيلم الكوميدي «Airbag». في حبكته الفكاهية - والتي في كثير من الأحيان تكون سخيفة - يقدم الفيلم مترجما يعمل لصالح الزعيم الغاليسي باكو رابال، الذي يحاول عقد اتفاق مع تاجر مخدرات برتغالي. رابال هو شخص يسافر مع سائق، وهو مرصع بالجواهر، وعنيف، وتصحبه النساء الشابات، ومُرحّب به في الكازينو. وهو أيضا شريك للسياسيين ومتبرع لهم. إن الفيلم مزود بالحبكات والتفاصيل التي تسخر مما كان عليه الزعماء في ذلك العصر في غاليسيا. وفي السخرية يوجد كمية من الحقيقة، التي ربما لم يصدقها في ذلك الوقت كثير من المشاهدين. في سياق أحداث الفيلم، يهدد تاجر المخدرات أبطال الفيلم، الذين يحيطون به مدججين بالسلاح، والذين يحاولون حلحلة الأمور قائلا: «لا يمكنكم إطلاق النار، إن المكان مليء بالشهود هنا». يستدير الزعيم حوله ويجيب:

«إنهم مواطنون، والمدينة لي، وبالمناسبة، القضاة أيضا».

لقد تمتع الزعماء بالحصانة، وكان مجتمع منطقة المصب متقبلا لهم، ومتسامحا معهم، وحتى أنه كان يقدرهم. كانت المانترا التالية تكرر عن خطأ: «يجلبون المال، يجلبون الغنى» التي أخذت تُسمع منذ أيام زعماء التبغ الأوائل في فريق سيلتا مارلبورو. لقد قرر معظم الناس الإذعان. «من الأفضل العمل مع العصابات التي تسرق. فعلى الشباب القيام بشيء ما...» لم يكن الخط الذي يفصل تورط المجتمع في الجريمة واضحا جدا، لم يكن جليا وازداد تشوشا جراء الأعمال الخيرية التي يقوم بها الزعماء. كما فعل مهربو التبغ منذ الخمسينات، كان الزعماء يمولون كل شكل من المبادرات والمؤسسات الخيرية. وحصلت الأبرشيات على تبرعات غير اعتيادية، وكانت الحفلات والمواكب تُنظَّم بتمويل من العصابات، وحتى أن فرق كرة القدم والمنشآت الرياضية كان ينفق عليها من أموال المخدرات. كان كل شيء تحت السيطرة. يشرح الصحفي خوليو فارينياس: «إن تقبل الظاهرة والثقافة

الإجرامية قد أتى منذ أيام تجارة التبغ، وتعلم الناس التعايش مع الأشياء غير القانونية، وكان هذا أرضا مؤاتية بشدة لكي لا يضع المجتمع عوائق في طريق الاتجار بالمخدرات. لم يريدوا أن يعرفوا، بل فضلوا النظر إلى الطرف الآخر كما هو شائع دائما في غاليسيا».

كان عنوان رواية مانويل ريفاس عن الاتجار بالمخدرات في غاليسيا: كل شيء صامت. يقدم الكاتب الشخصية الغاليسية كضمانة تتمسك بها تجارة المخدرات. إن الأوميرتا[17] الغاليسية، كعادة أو هوس أو ثقل اجتماعي، نمت في غاليسيا كعرف يمنع التدخل في ما يحصل في الجوار. «يجب عدم التدخل في شؤون أي كان» وخصوصا شؤون تجار المخدرات.

«وماذا كانوا سيفعلون؟» هكذا علّق إنريكه ليون، رئيس قديم لل- UDYCO في غاليسيا، وبالطبع في فيلاغارسيا، والذي كسر العصا لصالح ذلك المجتمع الغاليسي. «هل كانوا سيوقعون بالزعماء ويكشفون أمرهم؟ هل كانوا سيشيرون إلينا؟ ما من أحد كان يريد الفوضى. ما من أحد كان يجرؤ. إنه أمر مفهوم!». يضغط إنريكه على مفتاح في هذه السيمفونية الاجتماعية: لم يكن الناس يقومون بأي شيء لأن الدولة والسلطات وأي مؤسسة أخرى تابعة لها لم تقم بأي شيء في الحقيقة. في وجه غياب المساءلة من قبل الدولة، كيف يمكننا أن نطلب من السكان المحليين أن يحملوا المسؤوليات على عاتقهم؟ لم يكن الحرس الوطني في ذلك الوقت يحظى بثقة المجتمع شأنه شأن تجار المخدرات وربما أكثر، وكانت الشرطة عديمة الحيلة، والقضاة كانوا يطأطئون رؤوسهم، والحكومة المحلية كانت تغض النظر، ولم يكن في مدريد من يمكن التعويل عليه. في الحقيقة لم يكن هناك أحد يمكنه إيقاف سيارات الشيفروليه الخاصة بسيتو مينيانكو. «إن المدينة لي» هذا ما قاله باكو رابال.

لم يكن أمرا غير مألوف أنَّ «الدقيق» دخل عبر غاليسيا وليس عبر أستورياس أو كانتابريا. لقد كان لذلك أسباب وعوامل قوية كما سبق ورأينا. وكان هناك مذنبون لسماحهم بحصول ذلك، لكنهم كانوا مخدرين بواسطة المال أو السلطة أو قلة الحيلة. يشرح فيرناندو ألونسو، عن رفض الاعتراف طيلة سنوات بوجود تجارة مخدرات منظمة: «ليست المشكلة في أن حكومة غاليسيا لم ترد مكافحة المخدرات، بل تكمن المشكلة في أنها ظلت تنكر وجود المشكلة». ونعود إلى التوازي، قافزين في المسافات إلى صقلية، حيث كانت المافيا تتوسع لأنها غير موجودة رسميا ووفق ما تصرح به حكومة روما. ويقول فيرناندو ألونسو: «في كل سنة من السنوات الأربع أو الخمس التي أنكرنا فيها الأمر، كنا نعطي هذه العصابات فرصة لتنظم نفسها وتبني قدراتها، لقد كان الرفض وعدم تحمل المسؤولية هما اللذان سمحا لهذه العصابات بترسيخ أقدامها، لقد كان الإهمال بمثابة السماد الذي ساعدها على النمو».

ويذكر الصحفي فيليبه سواريس في كتابه «عملية نيكورا»: «كان الأمر فضيحة! طوال سبع سنوات لم يرفع أحد في هذا البلد اصبعا ليشير إلى هذا الوباء طيلة سبع سنوات». يكفي فقط ذكر ما حصل للآخَرين الذين قرروا أن يخطوا خطوة نحو الأمام. القاضي سبيغلبيرغ والحاكم فيرخينيو فوينتيس اللذان قادا حملة ضد مافيات التبغ: انتهى الأمر بالأول في سانتاندير، والثاني في ألباسيته. في تلك الفترة فهم حزب العمال الاشتراكي الإسباني المركزي ما فهمه الحزب الشعبي منذ سنوات عديدة: إن تفكيك العصابات لا يعطي أصواتا. ولا يقتصر الأمر على هذا فإن قاضيا مهما من غاليسيا والذي يفضل عدم ذكر اسمه يتحدث على نحو أوضح: «في غاليسيا، كانت كل الأحزاب من دون استثناء

تمول من قبل تجار المخدرات».

إن حقيقة ذهاب مينيانكو إلى فيلاغارسيا مع امرأتين من الكاريبي في سيارة شيفروليه مكشوفة بينما رجاله يقومون بإنزال الكوكايين على الشاطئ المجاور، تشير إلى أن الوضع كان تحت السيطرة، أو أن أحدا لم يكن مهتما بالأمر.

الزعماء

زعماء منطقة غاليسيا
الصور لفيكتور فيجيتو وكورتيسا لا فار صحيفة صوت غاليسيا
لاوريانو أوبينيا
زعيم تهريب الحشيش في غاليسيا. ترأس منظمة قوية كان قصر بايون رمز قوته. أوقف عام 2000 ولا يزال مسجونا
آل تشارين:
عصابة على نسق العصابات الصقلية، يترأسها الأب الكبير مانويل تشارلين.
يتابع اليوم كثير من أولاده وأولاد إخوته وأحفاده العمل في الكوكايين.
وهو حر طريق الآن
مارسيال دورادو
قاد أكبر عصابة تهريب تبغ في أوروبا، اتهمته وزارة العدل بتهريب المخدرات في العام 2003.
سببت صورته مع رئيس الحكومة المحلية البيرتو نونييس فيخوو على يخت دورادو في ضجة إعلامية بدون توابع سياسية.
هو الآن مسجون
سيتو مينيانكو
اسكوبار منطقة المصب، أقوى زعماء التهريب في غاليسيا، شريك مباشر لعصابة كالي الكولومبية.
قبض عليه عام 2001 وهو يكمل حكما بالسجن وممنوع من دخول غاليسيا
مقاطعة باريانسا
كاتويرا
ريانتشو
بويرو
كارّيل
منطقة أوبابارنز
فيلاغارسيا أروسا
فيلانوفا أروسا
ريبيرا
جزيرة أيا اروسا
كامبادوس
نهر اروسا
غروفه
مقاطعة او سالسناس
سانخيخو
بورتونوفو
مارين

سيتو مينيانكو، سجين سياسي

«من حسن الحظ أنني لا أؤمن بالعنف، وإلا كنت لأقتلكم جميعا».

- سيتو مينيانكو، مخاطبا قضاة عملية نيكورا.

في العام 2000 سرقت الفرقة الكورونية باباكيخوس الأضواء للنجاح الكبير الذي حققته في عملها الموسيقي تيكنوترافيكانته. إن المضمون ذا نمط ال- ska وألحان ال- folk، لم يكن مجرد إظهار لتقنيات موسيقية، بل شكلت كلماتهم أيضا جزءا من مخيلة غاليسيا. بكلمات مثل: «سيتو مينيانكو، سجين سياسي، إلى الأمام، إلى الأمام، إلى الأمام» أو «الكثير من السينتاسول، الكثير من السينتاسول. كم عدد الخطوط (خطوط الكوكايين)؟» لم يكونوا يتظاهرون برفع شأن شخصية مينيانكو، بل كانوا يستهزئون بها. على أي حال، أصبح الزعيم الغاليسي الأكثر قوة الذي عرفته منطقة المصب محترما جدا، وحتى مبجلا.

وُلِد خوسه رامون برادو بوغايّو سينتو مينيانكو في حي سانتو تومي في كامبادوس عام 1955. وهو من عائلة تعمل في البحر لقبها آل منيانكو، عانى من ضائقة مالية وقد تغيب عن صفوف المدرسة أكثر مما حضر. عندما أصبح شابا ذهب إلى صيد المحار مع أبيه، لكن بدون رخصة. كانوا ماكرين وذوي حيلة: كان سيتو يستخدم تقنية «كان»[18] للصيد، وهي طريقة سافرة مضرة ببيئة المصب وممنوعة قانونيا. في ذلك الوقت، بدأ علاقته العجيبة مع قيادة البحرية. سئم من شبكات الصيد والضرائب، فحصل على الفور على عمل كمرسال يقود زورقا سريعا. في البداية، قام بعدة عمليات تفريغ منفصلة. بعد ذلك، أظهر قدراته المذهلة على قيادة القوارب، فقدمت له عصابات تهريب التبغ عملا. وأصبح ربان قارب لمنظمة فيسنته أوتيرو تيريتو. تحول إلى أسطورة في منطقة المصب خلف مقود قاربه المسمى أشعة القمر، الذي بواسطته كان يراوغ القوارب المسطحة ويدخل إلى اليابسة من دون إيقاف المحركات. عندما قرر أن يميز نفسه برمز خاص، قامت عصابة «روس» المشهورة بإنشاء قارب جديد، أقوى وأخف، فأسماه «سيبرا 2»، وهو نفس الاسم الذي أطلقه على بعض شركاته الكثيرة للتغطية. كانت عصابة «روس» - كما نعلم - فرصة، وفي بداية الثمانينات أصبحت واحدة من منظمات تهريب التبغ الأكثر قوة في أوروبا.

لقد كان سائر تجار المخدرات يكنون احتراما كبيرا لمينيانكو، لأنه بدأ من الصفر، ونضج

في منطقة المصب. كان يحظى دائما بولاء رجاله. وكان يعرف ما هو البحر، وما هو الإبحار بقارب واللعب بالحياة أثناء الملاحقات. يذكر شرطي قديم في الشرطة الوطنية: «كان العاهر يظهر في الميناء بوجهه المحروق، ونحن نقول له: «ما هنالك يا سيتو؟ هل ذهبت إلى عملية إنزال؟»». وكان يجيب: «أنا لا أفعل شيئا، يا رجل!». كان مينيانكو يعرف منطقة المصب جيدا وكان يحيط نفسه بالعشرات: كان مثقفا ومحترما، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن عنيفا. كان يعرف كيف يحيط نفسه بأناس جديين ومحترفين ومعجبين به. لم ينقص أي شيء على عائلات شركائه أبدا: إذا ما ذهبوا إلى القضاء، كان سيتو يتكفل بالتكاليف ويعين المحامين. إذا اختفى أحد رجاله أو ذهب إلى السجن، كان سيتو يرسل معاشا شهريا إلى العائلة ويدفع تكاليف دراسة الأبناء. كان يعتني بمن يخصه. لذلك كان ناجحا جدا».

كانت روسا بوسو أول زوجة له، وقد أنجبت له ابنتين. استمر الزواج لمدة قصيرة. إذا كان هناك من شيء يخسر به زعيم كامبادوس فهو النساء. كانت إليخاندرينا - التي تكلمنا عنها سابقا، والتي وصفها شرطي أنها «مثال على الضيافة» - واحدة من عشيقاته المجنونات. كان لديه عشيقة أخرى تبلغ من العمر 19 عاما فقط في أروسا وثالثة في برشلونة. حتى أن هناك شائعة تقول إنه كان لديه علاقة موازية أخرى مع ابنة قائد اشتراكي من أروسا كان يترأس المظاهرات والاحتجاجات ضد الاتجار بالمخدرات، وانتهى به الأمر مهددا بالموت.

انتقل في باناما إلى الاتجار بالمخدرات، وبدأ بالعمل لصالح عصابة كالي. هناك عُرِف بالميليونير الغاليسي. كان سيتو ينتظر حقيبته في قاعة الدبلوماسيين في المطار في باناما، وكان يمضي الليالي الطوال في كازينو ماريوت. كان يجلب سيارته المرسيدس من كامبادوس ليقودها في شوارع عاصمة باناما. بعد ذلك اشترى شقة فخمة في الحي الخاص بونتا بايتيجا، والتي تشاركها بعد وقت قصير مع أوداليس ريفيرا، ابنة وزير في حكومة الجنرال نورييغا، الذي كان بالمناسبة يعمل في قاعة الدبلوماسيين حيث كان سيتو ينتظر. عندما تزوج من أوداليس انجبت له ابنة. وهي سوف تصبح قائدة لعمليات الاتجار بالمخدرات عندما يوضع الكامبادي في السجن. في نهاية الثمانينات، كان سيتو في كل مكان ولم يكن في أي مكان. كان عنده سكن في أمباريس وباناما، ويظهر مرة كل حين في كامبادوس، حيث يملك قصرا. وكان لديه جناحان دائمان تحت تصرفه في فندق رياس بايخاس في بونتيفيدرا، حيث لا تزال حفلاته تُذكر حتى الآن. لقد امتلك شققا كثيرة في مدريد وشاليه في بوسويلو دي ألاركون والذي يعتبر «منزلا آمنا». وكان يعرف بوجودها بعض رجال عصابته. بين عامي 198 - 1990، وجدت الشرطة أنه ذهب مرتين على الأقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكوستاريكا والبيرو وجمهورية الدومينيكان وتشيلي، ومرات كثيرة إلى باناما وكولومبيا وبلجيكا وهولندا. تضاعفت حركته عندما أصدر غارسون في منتصف عام 1990 أمرا ينص على البحث عنه والقبض عليه: وضعته كل من الـ DEA والإنتربول على لوائحهما. كان سيتو يظهر بين الحين والآخر في كامبادوس لقضاء ليلة مع إحدى عشيقاته، وفي اليوم التالي ينطلق في رحلة العودة إلى باناما أو كولومبيا أو إلى مكان لا يعلم به سوى الله. كان الناس في أروسا يملكون قناعة راسخة بأنه كان منيعا.

كانت السيارات عشقه الآخر: بالإضافة إلى سيارات الشيفروليه، كان الزعيم يقود الفيراري تيستاروسا، وتويوتا سوبرا، وسيارتي مرسيدس وسيارة بي. إم. دبليو. وأقدم سانتياغو غارسيا باسين،

رجل من عصابته، على تجهيز فتحات في كل سياراته لإخفاء المال أو الأكياس الصغيرة.

عاش سيتو بترف لا مثيل له، فقد كان يترأس إمبراطورية ضخمة، لقد عمل مع عصابة المخدرات الأروسانية، وهي الأقوى بين العصابات التي عرفتها غاليسيا، بالإضافة إلى سائقي القوارب: صبيان مكتب وكوكبة من المحامين ومسؤولين وصحفيين ومزوري مستندات وسياسيين وعناصر من الحرس الوطني ومن الشرطة ومن خفر الحدود (الجمارك) وغيرهم، وكلهم كانوا يتقاضون رواتب. بالمناسبة، كان يقوم بفضح العملاء «الخلدان» عبر تسريبات للصحافة عندما يفقد ثقته بهم أو يتذاكون. في الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 1989، أمام إيّا في أروسا وخلف مقود قاربه، رأى سيتو دورية من البحرية بقيادة الرقيب ماركوس كورال، الذي أوقفه. اقترب الضابط ورجاله من القارب وتفحصوه ووجدوا أنه مليء حتى الأعلى بعبوات التبغ. ذكر الزعيم لاحقا أن الرقيب ماركوس أخذ لنفسه بعض العبوات وغادر. بعد أن ضاق الزعيم ذرعا من «الإزعاجات» أرسل رسالة موقعة إلى محطة راديو أروسا، التي لم تتوان عن بثها. «(...) سوف تعرفون أن السيد ماركوس لديه زبائنه الخاصون، وأنها بالتأكيد ليست المرة الأولى التي يقوم بها بمثل هذه الغارة. (...) في النهاية هم مجرمون أكثر منا بكثير. في الوقت التي ستُطبَّق علينا العدالة، نأمل أن تطبق أيضا على جرذان الصرف الصحي أولئك». لقد اخترقت العصابة مركز الهاتف في بونتيفيدرا، من خلال خوسه مانويل رودريغيس نونييس، الذي كان يخبره عن اختراقات الشرطة. لذلك، وبعد أن علم سيتو بتنصتهم عليه، عمل على ذكر تواريخ عمليات وهمية بقصد تضليلهم.

امتلكت العصابة خمسة قوارب وشاحنات وزوارق سحب وسفينتين تجاريتين، ويختين. بالإضافة إلى شركات، خمس منها في باناما. واحدة تدعى على نحو غير مفاجئ: استثمارات بونتيفيدرا باناما غير المحدودة، وكان رئيسها قريبه مانويل لوبيس بوغايّو. وكانت شركة أخرى عبارة عن حوض بناء سفن، حيث كانوا يصلحون القوارب، ثم أصبحت العصابات تستخدمها لتجهيز السفن المرسلة إلى فلوريدا. لقد أدار شركات عديدة في إسبانيا من خلال أشخاص آخرين: أحواض بناء سفن وشركات عقارية وشركات بناء وشركات بحرية وإلى آخره.

ولقد دارت في فلك عصابة سيتو عصابات غاليسية أخرى كانت مرتبطة بها، وكانت تساعده في العمليات وفي الاتصالات. واحدة منها كانت عصابة بيخيروس، التي تزعمها خوسه مانويل تشافيس كورباتشو، وقد انتهى به المطاف مقتولا في العام 1991 من قبل مانويل أوسوريس باراتشو الملقب ببينتشيرو أثناء لقاء في كالداس دي ريس، عندما رفض الإقرار بدين. بعد عدة سنوات، في عام ، قام ابن القتيل بقيادة سيارته نحو سيارة بينتشيرو، الذي غادر لتوه من السجن، في تقاطع في فيلانوفا. لم تصدق الشرطة أبدا رواية الحادث المروري، بالرغم من أن أحدا لم يوجه أي اتهام للآخر.

من العصابات الأخرى التي كانت تتعاون على نحو وثيق مع عصابة سيتو كانت «مجموعة إيّا» التي يتزعمها خوان مانويل فيرنانديس كوستاس، المعروف باسم «لاعب الكاراتيه»، والذي أكد أثناء محاكمة بسبب تبييض الأموال في عام 2012 أن ثروته أتت من عمل بالبيدلو كان يملكه على شاطئ نيغران.

أما عصابة باناروس فهي عصابة أخرى في المدار. كان رئيسها خوسه أغرا أغرا، الذي قبض عليه في كافيتيريا في بونتيفيدرا عام 2010، بالرغم من أنه كان يضع نظارة شمسية ويعتمر قبعة وقد أطلق لحيته. حُكم عليه لأنه أدخل عام 2003 في أروسا 4000 كيلوغرام من الكوكايين في عملية إنزال واحدة بواسطة قاربين. وكانت عصابة بولغوس - وهي عصابة عائلية من بويرو - أيضا على ارتباط به. لم تُتَّهم هذه العصابة التي يترأسها ثلاثة أخوة أبدا بالاتجار بالمخدرات، بل اتُّهِمَت بتهريب التبغ. لقد أظهرت قدرة عالية، وهذا ما جعل المحققين يرون بوضوحٍ نشاطهم. في العام [illegible]، حضر سيتو شخصيا حفل زفاف أحدهم في بادرون. سوف نتحدث عن كل «الخطوط الثانية» لاحقا، حيث إنهم - وغيرهم الكثير من العصابات التي تعمل في ظل الكبار - تلك التي صارت تتحكم في كل شيء يخص الاتجار بالمخدرات في غاليسيا بحلول القرن الحادي والعشرين.

كان من أعضاء عصابة سيتو السابقَ ذكره مانويل الكتلوني ودانيليتو كاربايّو، الذي انتهى به الأمر مقتولا برصاصة في الرأس عام 1993. ومع كاربايّو في قمة العصابة نجد خوسه ألبيرتو أغين ماغدالينا، الملقّب بـ «الأشقر»، والذي تعتبره الشرطة الشخص الثاني في المجموعة. كان لـ «الأشقر» شريك سياسيّ من الحزب الشعبي من كامبادوس الذي كان يملك شركة يقوم سيتو مينيانكو عبرها باستثمارات عدة. صدفة غريبة! كان كل من خوسه غاريدو غونساليس الملقَّب بفيكو وخوان فيرنانديس سينيرو الملقَّب بماتشوتشو رجلان آخران في قيادة المجموعة. انتهى الأمر بالثاني متهما باختفاء تاجر المخدرات خوسه أنتونيو بوسو الملقب بيلوبينتشو، الذي لم يُعرف عنه شيء مطلقا فيما بعد. حتى إن المجموعة كانت تملك أيضا خبيرا بالمظهر، الصحفي بيدرو غاليندو غيرا، الذي كان يعمل سابقا في الـ TVE وهو الآخر قُبض عليه بتهمة الانتماء للعصابة. عندما قبضوا عليه كان يعمل مديرا لمجلة كازينوهات إسبانيا.

كانت عصابة سيتو تعمل بسلاسة، دون تصدعات. وكانت تحظى بوقود أساسي: التقبل الاجتماعي. كما كانت تحافظ على التقاليد. بعد مرور سنوات من التعامل مع المخدرات، كانت العصابة تمرر التبغ في المصب. كانت مناورة للاستعراض أمام الناس لكي يقدم سيتو نفسه كسيد الدخان بدون أي علاقة مع المخدرات. وكان الجميع سعداء.

كيف لا! وسيتو كان يدفع تكاليف عدة عمليات جراحية وعلاجات طبية للسكان الذين لم يقدروا على تحمل التكاليف. حتى أنه أراد تمويل اختراعات وهمية، مثل لقاح مفترض ضد السرطان. ليس ذلك نكتة: فقد سجلت الشرطة عدة محادثات مع بروفيسور من هنغاريا الذي كان يتناقش معه بشأن الاختراع. قال سيتو إن هذا العمل سوف يؤدي إلى تقاعده.

على ملف الزعيم الكبير أن يكتمل مع كرة القدم. لم يكن نادي شباب كامبادوس واحدا من الفرق المعروفة في غاليسيا لولا مينيانكو. تحوّل إلى رئيس للنادي عام 1986، عندما كان يناضل للوصول إلى تصفيات الإقليم (التصنيف الخامس). وبعد ثلاث سنوات وضعه في المجموعة الثانية ب، وبقي على أبواب لعب مباراة فاصلة للارتقاء إلى الثانية بعد أربع سنوات. في بداية كل بطولة كان سيتو يضع 30 مليون بيزيتا (180 ألف يورو) فوق الطاولة، وكان نادي الشباب يخطط للموسم من خلال الاستعانة بلاعبين من ديبورتيفو أو سيلتا فيغو. كل يوم أحد كان الملعب يمتلئ، وكان سيتو

يحضر بعض المباريات، وكان الناس يحتشدون بكثرة. عندما كان «الريِّس» يأتي إلى كامبادوس، كان الفريق يصل إلى الملعب على متن يخته الكابوس. لقد كان كبيرا كفاية ليتسع لهم جميعا، وكان اليخت الذي يبلغ طوله 13 مترا، ومزود بثلاثة محركات بقوة 2200 حصان يرفع علم بريطانيا. يقول السكان في بروبا دو كارامينيال على الجهة الأخرى من المصب أنهم كانوا يسمعون صوت المحركات عندما كان سيتو يشغل قاربه.

كان مينيانكو يدفع كثيرا، فهو كان يأخذ الفريق قبل الدوري برحلة إلى باناما - كان يغطي جزءا من الحملة السياسية للجنرال نورييغا بـ 12 ألف دولار - وإلى كوستاريكا، وكان يجلب أفضل فرق الأوركسترا من بلغاريا إلى كامبادوس في الاحتفالات. لم تكن البلدية تدفع قرشا. كانوا ممتنين جدا حيث لقّب العمدة سانتياغو تيرادو (الحزب الشعبي) في السابع من أيار/مايو من عام 1989، الزعيم بالابن البار لكامبادوس وقدّم له ميدالية شرف. في ذلك اليوم كان تيرادو يقاتل لكي يظهر في الصورة. بعد سنة من ذلك، في حزيران/يونيو من عام 1990، كان مينيانكو مطلوبا من قبل وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية DEA، ذهب تيرادو إلى تجمع ضد المخدرات نظمته أمهات الجيل الضائع. هذه المرة كان القتال لأجل الهروب من هناك تحت مطر من الإهانات.

عندما بلغ نادي شباب كامبادوس المجموعة الثانية ب، وافق سيتو على إجراء مقابلة مع راديو أروسا يتحدث فيها عن الرياضة. قام بمقابلته فيليبه سواريس، الذي كان يعرف بشكل وافٍ ما الذي يقوم به الزعيم فعلا. عندما انتهت المقابلة، جلس فيليبه إلى جانب تاجر المخدرات ووجه إليه بعض الأسئلة غير المريحة. «أحلف بحياة بناتي، أكثر من أحب في هذا العالم، أني لم أضع يدي مطلقا على المخدرات. بل أكثر من ذلك، هذه اليد اليمنى التي تراها أنت والتي لا أستطيع العيش بدونها، ليتني أخسرها إذا كنت أخدعك». حافظ سيتو على قلعته حتى عندما قام القاضي غارسون في حزيران/يونيو عام 1990 بإصدار أمر للبحث عنه والقبض عليه. مرر الأمر إلى الـ DEA وإلى الإنتربول، وتحول الكامبادي في 24 ساعة إلى واحد من تجار المخدرات الأكثر ملاحقة في العالم. ونمت أسطورته: في الرابع والعشرين من حزيران/يونيو عام 1990، ومع أمر البحث والقبض الذي صدر لتوه، دبّر لقاء مع كولونيل الحرس الوطني أرسينيو أيوسو[19]. التقيا في فندق بينتاكس في ليشبونة، وحضر سيتو إلى اللقاء محاطا بالحراس الشخصيين. وهناك، ومع دموع في العيون - كما يحكي فيما بعد الكولونيل أيوسو - قام بتكرار المنصوص عليه: «أنا أدرك أني كنت قد تعاملت مع علب التبغ، هذا ما يعرفه كل العالم، ولكن يدي لم تلمس يوما غراما واحدا من الحشيش أو الكوكايين». تبادلا الوداع بعد ذلك بقليل، واختفى سيتو. علم الحرس الوطني بعد سنوات من ذلك أنه في ذلك الشهر تماما أنزل سيتو كمية من الكوكايين تبلغ 2.5 طن إلى أروسا.

سقط الزعيم في التاسع عشر من كانون الثاني/يناير من عام 1991 - بعد نصف سنة من نجاحه في تجنب عملية نيكورا - سقط في عملية أندريس (الاسم المستعار لسيتو الذي وضعته الشرطة)، والتي يقودها أيضا بالتاسار غارسون. خلال عام من التحقيق المعمق والمراقبة الدقيقة للعصابة، حاصرت الشرطة، بقيادة قائد المجموعة الرابعة لمركز مكافحة المخدرات، رودريغيس سيمونس، الشاليه الآمن الخاص بالعصابة في بوسويلو في الوقت الذي كانت فيه العصابة تقود عملية

إنزال. يُقال إن مجموعة العمليات الخاصة قبضت على سيتو فوق مجموعة من الصناديق البحرية وهو يتحسس عبر هاتف يعمل عبر الأقمار الإصطناعية. وقال الزعيم عندما رأى الشرطة: «اللعنة! الآن تمكنتم من القبض عليّ».

شعر سيتو بالغضب والإهانة كثيرا. كان يعلم ما الذي أدى إلى القبض عليه؛ لقد باعه الكولومبيون. قبل أسابيع من توقيفه قبضت الشرطة أيضا على كريستينا أوسوريو وجورج إسحاق فاليس في مدريد، اللذين ينتميان إلى عصابة كالي، وبحوزتهما 200 كيلوغرام من الكوكايين. وقد توصلا إلى اتفاق مع المحققين، وبموجبه خرج إلى الصدارة اسم الزعيم الغاليسي. في الثامن عشر من كانون الثاني/يناير، أي قبل يومين من القبض عليه، اتصل سيتو بفابيو أوتشوا، أحد رؤساء العصابة، وكانت الشرطة تتنصت على المكالمة:

- لقد أوقع بي أصدقاؤك، لم يتصرفوا بأخلاق عالية.

- ما الذي حصل؟

- لا، لا، لم يتصرفوا بأخلاق عالية. لا يمكن أن أكون أنا من يملك الشاحنة هناك لثلاثة أشهر وهم من يضحكون علي.

أعطى تاجر مخدرات لبناني الدفعة الأخيرة للخيانة، وهو من الذين كانوا يشاركون في العملية. يبدو أنه كان يحظى بثقة الـ DEA، فقد كشف مكان وساعة وتفاصيل عملية الإنزال. يشرح ضابط في الشرطة: «كان مينيانكو مهووسا بقيادة عملياته بنفسه. لم يعرف كيف يوكل المهام للغير. كما لو أنه يريد أن يتذكر عهده عندما كان سائق زورق سريع».

قبض مع سيتو على 13 شخصا من عصابته، من بينهم: خوسه ماريا دياس لافيّا، ابن قاضٍ في المحكمة الدستورية، وأيوخينيو دياس، قريب لتيريتو. كان في الشاليه مع سيتو غارسيا باستين، الذي كان يقوم بإصلاح سياراته، وماتشوتشو، بالإضافة إلى ثلاث عاهرات من الكاريبي.

بالطبع لم تنته قصة سيتو هنا. حكم غارسون عليه بعد ثلاث سنوات بتهمة الاتجار بالمخدرات، لكن الزعيم استمر بكتابة صفحات مفاجئة من قصته عندما حصل على حريته. في الحقيقة، وبالنسبة لعدد غير قليل من الشرطة، فهولا يزال يكتب صفحات قصته حتى هذا اليوم.

لاوريانو أوبينيا وقبقابه

«انظروا يا سادة، أنا لست تاجر مخدرات، لكن حتى

لو كنت كذلك، فلن أدور من منزل إلى آخر كي

أبيع المخدرات».

- لاوريانو أوبينيا

في أول ظهور له في المحاكمة في عملية نيكورا التي جرت في لا كاسا دي كامبو في مدريد، ظهر لاوريانو أوبينيا منتعلا قبقابا. لقد استعمل زعيم الحشيش كل ما هو متاح ليدعي أنه ريفي وأمي، وانه لا يمكن لمن هو مثله أن يكون زعيم عصابة تهرب المخدرات أو تتاجر بها. وبعد أن طرح عليه القاضي ثلاثة أسئلة أجاب بجواب قاطع: «لم أستثمر قرشا واحدا في المخدرات، ولا في البيوت، ولا في المزارع، ولم أتبرع».

لقد وصفه أحد الصحفيين بأنه: «كان متهورا وغبيا وجاهلا». ويقول شرطي في الحرس الوطني: «كان يصطدم بالناس، وكان سيئ الطبع وجاهلا وحمارا، لم يكن بحاجة إلى القبقاب ليظهر غباءه». يلعب أوبينيا دائما أمام القضاة دور الريفي المظلوم الذي خرجت الأمور عن سيطرته. في مقابلة لصالح مجلة Vanity Fair التي أجراها الصحفي دافيد لوبيس في العام 2011، صرّح الدون لاوريانو بدون تردد: «أحلم بأن تعيد الدولة تأهيلي، كما تعيد تأهيل مدمني المخدرات، لأن للتهريب مفعول مخدر شأنه شأن سائر المخدرات».

وُلد أوبينيا في كامبادوس في العام 1974، وتعلم فن التهريب تقريبا منذ كان يحبو، وعندما بلغ الخامسة عشرة من العمر، كان يدفع عربة بقالة تعود لأبيه، ويجري الصفقات، وعندما بلغ السابعة عشرة، وبالرغم من أنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة إلا أنه كان يدير عصابة من رواد السوق السوداء، وهكذا تدرج في المهنة من العربة إلى الشاحنة ومن القهوة إلى الوينستون. وعندما بلغ الثامنة عشرة أصبح من أشهر المهربين في منطقة المصب. في ذلك الحين تزوج من روسا ماريا كارو، التي أنجبت له من الأبناء ثمانية! لكن في العام 1983، وقع في غرام سكرتيرته، إيستير لاغو، فتزوجها، لتصبح بعد ذلك العقل المفكر للعصابة التي كانت على وشك أن تظهر للعلن.

إن علاقة هذا الرجل مع القضاء تستحق كثيرا من التفصيل لا مجرد ذكرها أو المرور عليها مرور الكرام. قليلة هي السنوات التي لم يُستدعَ فيها للمثول أمام السلطات. ومن يعرفه حق المعرفة

أجاد وصفه بدقة: «إن شخصيته كانت سببا في هلاكه». لقد مثل للمرة الأولى أمام القضاء في العام 196، بعد أن اعتدى بالضرب على أحد السكان في كانغاس. ثم مثل أمام المحكمة المحلية في بونتيفيدرا لأنه لم يدفع الكفالة. وفي العام 1977، قدمه الحرس الوطني للمحاكمة لأنه استهزأ باثنين من الحرس الوطني في الشارع، وفي العام نفسه، حاول بكل وقاحة أن يرشي قائد موقع «غروفه». لم يعلق الضابط بسنارته وأوقفه. في العام 1978 وبعد عام فقط من حادثة الرشوة، ونتيجة ظن السلطات بتورطه بعملية إنزال تبغ جرى تفتيش كل ممتلكاته، وفي السنة التالية حوكم بقضية رشوة قائد موقع «غروفه» ولكن لم يحكم عليه لنقص في الأدلة، وفي العام 1981 أعيد فتح المحاكمة من جديد وزج به في السجن عام 1982.

بعد أربعة أيام من إطلاق سراحه، اتهمه القاضي بالانتماء إلى عصابة سيفراندوس لتهريب التبغ. بعد فترة من الهدوء مع السلطات أوقف في العام 1987 في خيرونا لتهريبه 700 صندوق من السجائر. بعد عام من ذلك التاريخ، ركل أحد الضباط أثناء تفتيش منزله، فزج به في السجن مجددا، حيث اعتدى بالضرب على ريكاردو بورتاباليس، أحد المتعاونين مع السلطات في عملية نيكورا. أطلق سراحه في العام 1990. وبعد أسابيع أعاد غارسون المحاكمة. سوف نتابع بهذه القائمة لاحقا، كانت التسعينات بدون شك أعظم سنواته.

أنجبت له إيستير لاغو ابنتين، لارا وإيستير، في العام 1984استقر الأربعة في شاليه في لاخه (فيلاغارسيا). بعد أربع سنوات، أي في العام 1988، جعل زعيم الحشيش طموحه حقيقة: اشترى قصر بايون، الذي كان السبب في هلاكه. واشترى مزرعة عنب الألبارينيو ذي النخب الأول التي تبلغ مساحتها 286 هيكتارا مع مجموعة من الأشخاص حصلت على قرض يبلغ 138 مليون بيزيتا (830 ألف يورو). كان هناك أمر ما مريب بشكل فاضح: لقد وهب القرض للويسا كاستيلا فيرنانديس، أرملة عامل في رينفه[20] والتي تعيش في منزل صغير مستأجر بـ 200 بيزيتا شهريا في كاسريس. وتبيّن أن هذه السيدة كانت عمة بابلو فيوكه، المحامي السابق لأوبينيا، ومؤسس التحالف الشعبي في فيلاغارسيا، ورئيس غرفة التجارة في أروسا، ومهرب مخدرات.

لقد اشترى أوبينيا القصر من بعض رجال الأعمال من «جمعية يسوع» وحوله إلى شركة تغطية أكثر وحشية. كان العقار أكبر كرم عنب ألبارينيو في كل جنوب غاليسيا. وتحول الدون لاوريانو إلى مزارع كروم قوي يضع أفضل زجاجات نبيذ قصر ألبارينيو بايون على موائد أفضل المطاعم. إن مثل هذا التباهي كان مكلفا. سوف تتحول الملكية - وما زالت كذلك اليوم - إلى رمز العصر الذهبي للاتجار بالمخدرات.

أوبينيا هو مهرب المخدرات الوحيد في منطقة المصب الذي يعرف عنه أنه لم يلمس الكوكايين أبدا. كان الدون لاوريانو يهرب الحشيش فقط. بالرغم من ذلك، وجه له بعض ضباط الشرطة الاتهام، ولم يستطع أحد أن يثبت أنه يعمل في الكوكايين. قام بأول عملية إنزال حشيش له في العام 1989، وكان عبارة عن 23 صندوقا في بايو. كان يملك على جدول الرواتب 16 رجلا على الأقل كانوا يعملون لصالحه بشكل حصري.

بالإضافة إلى ذلك، كان يملك أسطولا خاصا من قوارب الصيد التي كان يجلب بواسطتها الحشيش من المغرب. كان المسؤول عن عملية النقل هذه المغربي مصطفى بوليش، واسمه المستعار: «غوستافو».

إن قوارب فيكتوريا أ، المحترمة، تايس، شهر العسل، فيرونيكا، توريا، الأمريكية، كاتي، كلها كانت تعود ملكيتها للزعيم. بالإضافة إلى ذلك، كان يمتلك زورقا سريعا يدعى النورس ويرفع علم ليبريا.

كانت العصابة تنقل البضاعة برا إلى ألمانيا وهولندا وإنكلترا، وتقوم بذلك بواسطة أسطول شاحنات شركة بينيدو وترانسغاليسيا، وكانت ملكية هاتين الشركتين تعود بكل تأكيد لأوبينيا. كان فيتال نونييس كارفاليو، المعروف باسم «فيتال = الحيوي»، المسؤول عن عمليات التحميل التي يصل بها الحشيش بنجاح إلى شمال أوروبا، وكان مانويل لوبيس موسو من ينسق حركة أسطول الشاحنات. في مقابلة أجريت معه في العام 2011، يؤكد أوبينيا: «أود أن أوضح، بأن الموضوع سيبقى كما هو إلى الأبد، أنني لم أشتر ولم أبع غراما واحدا من الحشيش. في واحدة من العمليات الثلاث المُحبَطة والتي اتُّهِمتُ بسببها كنت ببساطة أنقل الحشيش عبر البحر واليابسة».

وفي مدار المجموعة - كما هي الحال بالنسبة إلى مينيانكو - كانت تدور بعض العصابات التي تتعاون مع عصابة أوبينيا في بعض العمليات. إحدى هذه العصابات الذائعة الصيت هي عصابة مانويل غونساليس كروخيراس، المشهور باسم «كارايّان»، هو زعيم تاريخي من ريبيرا وكان في حينها تاجر المخدرات الأكثر أهمية الذي عرفته مقاطعة باربانسا[21]. كانت عصابته محمية بسبب إطار العمل القانوني، الذي هندسته مجموعة من نخبة المحامين، والذين قبضوا مقابل عملهم ذهبا.

يروي مسؤول في الحرس الوطني: «كانوا يستنزفونه، ويطالبونه بكميات كبيرة، وبما أنه كان شبه أمي، كان يقبل». كانت شركاته الثلاث الرئيسية مؤسسة في باناما؛ بيتفيل رانجر، وفاشن إيرينغز، ونورويتش كريستي، ومن بين الشركات في غاليسيا شركة «أولا»، وهي شركة بناء وعقارات، وكان يملك من خلالها 16 مزرعة وعدة شقق. لم تكن أي من هذه الشركات باسمه، بل كانت بأسماء ملاك صوريين، ولم تتوقف المهزلة عند هذا الحد فقد كان أوبينيا فقيرا وفقا لسجلات دائرة الضرائب في غاليسيا، فبنظرها لم يكن يمتلك أي أموال منقولة أو غير منقولة. وقد بلغ به إتقان التمثيل أن ذهب في العام 1989 ليطلب معونة مالية تمنح للعاطلين عن العمل من مكتب البرنامج الوطني للعمل في كامبادوس، مؤكدا أنهم أقالوه من إدارة شركة «أولا». لا داعي للقول إن طلبه رفض، ولا داعي للقول إن الزعيم استنكر رفضهم تقديم المعونة له.

إن الشاب الذي كان يخوض كل المعارك القانونية والمالية تلك كان بابلو فيوكه، المحامي الخاص بالمخدرات، وكان يساعده محامٍ آخر يزج بنفسه دوما في أتون تجارة المخدرات في غاليسيا، وهو فرانسيسكو فيلاسكو نييتو. كان أنتولين ريوس خانيرو الملقب «تولين» المسؤول عن جلب المال والعودة به بعد أن يتم إيصال الحشيش إلى البلدان المرسلة إليها. كان هذا الرجل يحظى بثقة أوبينيا.

على رأس قيادة كل هذه الأعمال كانت زوجته، إستير لاغو، وهي التي تبين - في ما بعد - أنها الرئيسة الفعلية للمنظمة. يقول شرطي متقاعد: «كانت فطنة». لقد قتلت إستير في العام 2001 عندما كانت تقود سيارتها بسرعة لتصطدم بمنزل في كوربيّون، على مشارف كامبادوس. كانت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وكانت ذاهبة لاحضار ابنتها من حفلة ديسكو. على ما يبدو، ووفقا للتحقيقات، لقد غفت إيستر أثناء القيادة. وكانت على قيد الحياة عندما وصلت سيارة الاسعاف، ولكنها ماتت في الطريق إلى المستشفى نتيجة لنوبة قلبية. في تلك الأثناء كان أوبينيا في السجن، وأعطي إذنا للخروج والمشاركة في الجنازة.

يذكر أحد الضباط: «كان حادثا مريعا، اصطدمت واجهة السيارة بزاوية أحد المنازل». بالمناسبة، وكان هذا المنزل - وهذه ليست مزحة - مركز التنصت على الهاتف التابع للواء مكافحة المخدرات في الشرطة الوطنية.

لقد أوقف القاضي غارسون أوبينيا في عملية نيكورا، التي نُفّذت في حزيران/يونيو عام 199. قاموا بالبحث عنه أولا في القصر، لكنه لم يكن هناك، فتوجهوا إلى الشاليه في لاخه. دق عناصر الشرطة على الباب وقبضوا على الزعيم في ملابس النوم. تمكن بعد ذلك من التملص من هذه الغارة، إلا أنه ظل متابعا لأعماله خلال التسعينات إلى أن أوقع به مجددا عام 2000 على وجه التحديد. تابع ابن زوجته، دافيد بيريس، خطاه. لكن آل أوبينيا لم يقل حتى الآن كلمته الأخيرة وما زال حيا يُرزق.

آل تشارلين، عصابة على النمط الصقلي

«هل أملك المزارع؟ يا رجال، يا سادة، ليكن بعلمكم،

في غاليسيا يطلقون اسم مزرعة على قطعة أرض

تبلغ مساحتها 20 مترا مربعا».

مانويل تشارلين غاما

نظر الضابط عبر النافذة فرأى «الكبير» في مطبخه يرتدي ملابس نومه. أعطى الإشارة إلى رفاقه ودقوا على الباب. ففتحت زوجته خوسيفا بوماريس الباب وقالت: «لا، مانولو ليس هنا».

كان الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1995، وقبل ذلك بيوم، أصدر القاضي بالتاسار غارسون قرارا بسجن غير مشروط لزعيم آل تشارلين، الذي خرج إلى الحرية من دون كفالة عبر عملية نيكورا. لكنه ومن جديد صار هدفا ملاحقا حين عمد إلى نوع آخر من البضائع التي وصلت رائحتها إلى أنوف رجال الشرطة.

لم تصدق الشرطة خوسيفا، كما هو واضح، ودخلوا المنزل. لم يكن هناك أي أثر لتشارلين الكبير. فتشوا الشاليه غاضبين، لكنهم متعوا النظر بفخامة المسكن، حيث القاعة الرياضية الهائلة في الطابق الأسفل. بعد ذلك بفترة قصيرة، رأى أحدهم علامة على الجدار: كان بابا مموها يقود إلى غرفة صغيرة آمنة مساحتها 10 أمتار مربعة. حاولوا فتح الباب، لكنهم فشلوا. صرخوا، وشرحوا له أن لا مفر، وبعد قليل فتح الأب الكبير الباب، وهو لا يزال في ملابس النوم، وسلّم نفسه.

وُلد مانويل تشارلين غاما في فيلانوفا في أروسا منذ 82 عاما. وهو رجل يزن كلماته ولا يتفوه بالترهات. عندما كان طفلا كان يعمل مع والديه في مزرعة رخويات كانت تؤمن حياة العائلة. لم يقتنع بالمال الذي كان يحصل عليه نهاية كل شهر، لذلك افتتح شركته الخاصة وهو لا يزال شابا، شركة تجارة مأكولات بحرية وجمبري وسرطانات. كان يستشعر بأمور كثيرة: في سن السادسة والعشرين أوقف بسبب الصيد بالديناميت. بالرغم من ذلك، جرت الأمور بشكل جيد وافتتح معملا لثمار البحر. من خلاله بدأ بإدخال الأموال التي حصل عليها من السوق السوداء في البرتغال: البنسلين والنحاس والكحول.. وعلى الفور، انتقل على يد فيسنته أوتيرو «تيريتو» إلى التبغ. فوسّع علاقاته مع السلطات وقتها. وفي العام 1960 كان لقاؤه الأول مع السلطات عندما قبض عليه في شاحنة مليئة

بصناديق الوينستون.

«العراب»، كما أصبح معروفا في فيلانوفا، هو الوحيد من بين تجار المخدرات التاريخيين الذي لا يزال طليقا حتى اليوم. وكان أيضا أول من عمل في تهريب المخدرات. لفت أبناؤه نظره لضرورة الاتجار بالحشيش، ولم يضيع «الكبير» الوقت. لقد عمل في تهريب الحشيش عندما كان الحرس الوطني يلاحق صناديق التبغ.

كما حصل مع سيتو في سجن كارابانتشيل، قفز تشارلين إلى الكوكايين من خلال علاقات أسس لها في سجن موديلو في برشلونة، بعد أن حكم عليه بسبب الضربة التي وجهها لسيليستينو سوانيس، ذلك المهرب من فايّادوليد، الذي انتهى به الأمر في غرفة التبريد بسبب دين. في ذلك الوقت بدأ مهنته كمهرب مخدرات على مستوى كبير، وفي عمله هذا أشرك كل أفراد عائلته. إن عصابة آل تشارلين كانت عصابة حقيقية، حيث كانت تجمع بين جميع أعضائها رابطة الدم. وبتعبير آخر يمكننا القول، هي عائلة أصبح كل أفرادها تقريبا تجار مخدرات. ويشرح صحفي: «وبالإضافة إلى ذلك، تراهم سعيدين بأبيهم الكبير. لم تكن مصلحة أبنائه أو أولاد إخوته مهمة. لقد أشركهم جميعا بالعمل (أخواه، أولاده الستة، حفيداه، أصهرته، وأولاد أخواته) وعرّض حياة الجميع للخطر. كان أحد أفراد العائلة مدمنا على المخدرات، فقرر «الكبير» أن يتولى أمر إحدى العمليات التي كان احتمال فشلها كبيرا، بحيث إذا سارت الأمور بشكل سيئ، فسيخسر البيدق الأكثر ضعفا في العصابة. كان جل همه مصلحة العمل لا العائلة». كانت أيضا عصابة، ومن دون أي شك، كانت العصابة الأكثر عنفا. كانوا يصفّون حساباتهم بدون تفكير، وغالبا ما كانوا يتركون خلفهم جثة ما تدل - بشكل قاطع - على أنهم عبروا من هنا.

لقد حافظ خوسه بينيتو - الأخ الأكثر رصانة للأب الكبير - على سجله نظيفا حتى العام 2000 فلم يتهم بأي تهمة، ففي تلك السنة قامت قوى الجمارك باعتراض 3 آلاف كيلو من الحشيش في صهريج قادم من ميناء طنجة. كانت الشاحنة تنقل زيت سمك. ويجب الاعتراف أن الفضل في الكشف عن الحشيش يعود إلى كلب[22]. إن الأخ الثاني لل- «الكبير»، خوسه لويس تشارلين غاما، قد حظي بشرف الحصول على أكبر عقوبة بسبب الاتجار بالمخدرات حتى تاريخ اليوم: 36 سنة بسبب إدخال ألف كيلو من الكوكايين في العام 1991 على متن القارب «رند»[23]. وهو ذاته حل في المرتبة الثالثة في عام 2002.

بعد عشر سنوات أمضاها في السجن، قدم للمحكمة التماسا لإطلاق سراحه بحجة أن لديه عرضا للعمل في متجر أحذية في مركز لاس روساس التجاري في مدريد. بدت المحكمة متقبلة: «إن سلوكه في السجن حسن، وبعمر ال- 65 وبعد عشر سنوات في السجن لا بد أنه فكّر بقوة سيادة القانون». لكن لم يبدُ أن خوسه لويس فكّر بذلك مطلقا. وفي غضون بضعة أسابيع، اكتشفت المحكمة أن عرض العمل في متجر الأحذية كان كاذبا.

انتهى المطاف بابنة أخرى لخوسه لويس، تدعى يولاندا تشارلين، في السجن أيضا بسبب قضية قارب رند. بعد سنوات كثيرة، في العام 2013، حُكم عليها مرة ثانية بسبب علاقة مع مخبر

هيروويين في فايّادوليد يقوده تجار مخدرات أتراك.

أما بالنسبة إلى أبناء الأب الكبير فاللائحة تطول وتطول. الابنة الكبرى، خوسيفا تشارلين بوماريس، أطلق سراحها في العام 2012 بعد أن أمضت أحد عشر عاما في السجن بتهمة الاتجار بالمخدرات وتبييض الأموال، كانت تعتبر اليد اليمنى للأب الكبير. لكن حقيقة الأمر أنها تولت بنفسها زمام الأمور في المنظمة عندما كان أبوها في السجن. كانت تقود المنظمة عن بعد في معظم الأحيان: في العام 1994 أصدر القاضي غارسون أمرا بالبحث عنها والقبض عليها، لم يظهر لخوسيفا أي أثر. بقيت لسبع سنوات هاربة، حتى وجدتها السلطات البرتغالية في أبورتو، على بعد 170 كيلومترا من أروسا. كان مانويل تشارلين «مانوليتو» وميلتشور تشارلين ملحقين في الجسم التنظيمي. نجح ميلتشور في إنزال أربعة آلاف كيلو من الحشيش في بايونا في العام 1989. وقد هرب الأخوان عندما كان غارسون يلاحقهما. استقل ميلتشور طائرة إلى تشيلي وبقي هناك فارا طيلة خمس سنوات، حتى ألقي القبض عليه في الرباط. أما «مانوليتو» فاختار أيضا أمريكا اللاتينية كأرض وسيطة، في العام 1 صدر بحقه أمرا بحث وجلب، وكان الإنتربول يلاحقه بحزم. وفي خضم هذه البانوراما، التقى به أحد السكان المحليين في يوم من أيام تشرين الثاني/نوفمبر في إيّا في أروسا، وكان يرغب في بيع منزله. استقل «مانوليتو» طائرة، واقترب من أروسا، سأل عن سعر هذا المنزل، وغادر من جديد إلى أمريكا الجنوبية. بالمناسبة، قال له الرجل أن البيت لم يكن معروضا للبيع.

كانت أديلايدا تشارلين الأخت الرصينة والخجولة. لكن لا تنخدعوا: في العام 1991 قادت عملية إنزال 800 كيلو من الكوكايين، وفي العام نفسه نظمت نقل ألف كيلو برا. اتهمت في القضيتين - وكيف لا - وسحبت عائلتها معها. في العملية الأولى تم اتهام زوجها الأول أنتونيو أكونيا ريال، وفي العملية الثانية، اتُهم صديقها الإيطالي باسكاله إمبيراتور.

عندما كان كبار العائلة مسجونين، استلم زمام الأمور في العصابة الإخوة الآخرون. وقد بدأ كل من أوسكار وتيريسا تشارلين بتنسيق الجزء المالي، وانتهى الأمر بهما في العام 2007 محكومين بتهمة تبييض الأموال وجرائم مالية عرفت لاحقا باسم عملية ريبيسكا (=الفرصة الثانية). وأيضا تم اتهام إحدى الحفيدات وهي، ابنة خوسيفا تشارلين، نعومي أوتون، التي اختصرت مدة الحكم إلى 7 سنوات عبر دفع مبلغ فوري وصل إلى 30 ألف يورو، وتم اتهام نتاليا سوموسا، وهي حفيدة أخرى، بتبييض الأموال أيضا. أوقفوها عندما كانت الدولة تقوم ببيع ممتلكات مصادرة للعصابة ووصل المزاد فيها إلى 800 ألف يورو.

كان آل تشارلين يعملون يدا بيد مع عصابة آل كانيوس. كان رئيس هذه المجموعة مانويل باولو تريغو، إما شابا شجاعا للغاية، أو مجنونا، وهو الذي تورط في كثير من العمليات ودائما في صحبة عائلته: أبنائه الثلاثة (دانيال وأنسيلمو ورامون) وزوجته كارمن كاربايّو خويغين (أخت الزعيم مانويل كاربايّو)، التي كانت تقوم بإجراء الحسابات للعصابة.

خلال تلك السنوات، أوشكت المجموعتان على الاندماج، حتى أنه كان هناك روابط دم بينهما: دانيال باولو، ابن مانويل، كان يخرج مع يولاندا تشارلين، ابنة خوسه لويس وابنة أخ الأب

الكبير. إن علاقة الحب والكره عندهما ستحدد طبيعة التعاون بين العصابتين. مثل قصة شغف جيدة انتهت نهاية تراجيدية.

في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1989، كان آل كانيوس وآل تشارلين يحتفلون بإنزال 600 كيلو من الكوكايين في موخيا عندما عُرض عليهم بضاعة أخرى. في تلك الفترة كان الأب الكبير في السجن، وكان عليهم انتظار إذنه لتنفيذ هذه العملية الجديدة. أعطاهم «الكبير» الضوء الأخضر، وفي يوم عيد الميلاد من العام 1989 غادر قارب الصيد «هالكون الثاني» من سانتا كروس، تينيريفه، باتجاه كولومبيا، حيث كانت تنتظر هناك عصابة بوغوتا، التي كانوا يتعاملون معها عادة. التقوا بسفينة كولومبية أمام غواخيرا، وسلموهم 535 كيلو من الكوكايين، وسلمهم الغاليسيون دانيل باولو كعلامة ثقة. ثم باشروا بالعودة وأكياس الكوكايين معلقة على المرساة، وفي أقرب ما يمكن أن تكون عليه من مياه البحر، لربما احتاجوا التخلص منها. وهذا ما كان عليه الأمر، بعد مغادرتهم بقليل، رأوا دورية أمريكية فرموا الكوكايين في البحر كما لو أنها قنابل موقوتة يكاد يصل مؤقتها إلى الصفر. لم يصدق الكولومبيون القصة ووجهوا لهم إنذارا نهائيا: إما أن يدفعوا 60 مليون بيزيتا (360 ألف يورو) أو أن يعود دانيال باولو في صندوق إلى أروسا. رفض الأب الكبير دفع كامل المبلغ، وقامت أم الرهينة بالتحدث إلى ابن أخيها: دانيليتو كاربايّو - الذي كان حينها شريكا لـ «سيتو مينيانكو»، لكي تقوم منظمته بدفع باقي المبلغ. في نهاية الأمر جُمع المبلغ وعاد باولو إلى غاليسيا. ثم بدأت الشائعات بالانتشار: بأنه لم تظهر في الحقيقة أية دورية، وأن الأكياس كانت ناقصة، وأن أحدا احتفظ لنفسه بجزء من البضاعة... وأضيف بند جديد على لائحة الشكوك بين العصابتين. وانعدمت الثقة بينهما: كان آل تشارلين يدينون بالكثير من المال لآل كانيوس. واكتمل الكوكتيل مع علاقة دانييل ويولاندا، الأمر الذي أثار حفيظة الباقين. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى العام 1992 حيث اتهم دانيال بالتعاون مع السلطات. أعلن عن ذلك عندما أتت حبيبته يولاندا لزيارته في السجن برفقة حبيبها السابق.

في هذه الحالة لم يكتب للتعاون أن يصبح حقيقة، لكنه أصبح كذلك في العام 1994، عندما تم اتهام العصابتين بنقل الكوكايين في «رند» و«هالكون الثاني». وبعد أن ضاقوا ذرعا بالأمر جراء التأخر في الدفع والتلاعب والخيانات العاطفية، وجد آل كانيوس الفرصة مؤاتية لتخفيف الأحكام الصادرة بحقهم، وبذلك فإنهم يسعون للانتقام من آل تشارلين. قال مانويل ودانيال - الأب والابن - للقاضي غارسون أنهم يريدون التعاون. التقوا بريكاردو بورتاباليس ومانويل فيرنانديس بادين، التائبين الآخرين. التقى الأخير في يوم من الأيام مع عائلة باولو في ردهة حرس الحدود. «أتذكر أني رأيتهم وسألوني: ألست بادين؟ وقلت لهم نعم، وأنتم؟ فقالوا لي من كامباوس. ثم سألتهم: ألا تخافون؟ وأتذكر أن مانويل قال لي: نخاف ممن؟ ما بك يا رجل! إذا كان لديهم أيادٍ، فنحن لدينا أيضا أيادٍ!» لقد كان إما شجاعا للغاية، أو مجنونا: بعد أربعة أيام تم العثور على مانويل باولو ميتا في منزله.

في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر عام 1994: «كان باولو يقرأ الصحف في غرفة الطعام في منزله في كامبادوس. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع صباحا. دخل ثلاث شبان كولومبيون إلى حديقة عائلة باولو: لويس ألديمير (20 عاما) وجون سالسيدو (24 عاما) وآبيل دي خيسوس

فاسكيس (25 عاما). دق أحدهم على الباب وقال إنهم الشرطة وأنهم أتوا للتفتيش. فتحت كارمين الباب ورأت الشاب يحمل مسدسا في يده. حاولت إغلاق الباب، لكن الوقت كان قد فات. ركض مانويل نحو الهاتف للتبليغ، وكانت تلك آخر حركة قام بها في حياته. أطلقوا عليه النار من مسافة قريبة. كما أطلقوا النار على كارمين أيضا لأجل إسكات صرخاتها. ثم بحثوا عن الابن، دانيال، لكنه لم يكن في المنزل. كان هناك أخوان آخران، تمكنا من جرح أحد الكولومبيين. جعلهم هذا الجرح يؤخرون عودتهم الفورية إلى كولومبيا الأمر الذي أتاح للشرطة أن تقبض عليهم.

مات مانويل باولو على الفور. أما كارمين فأكملت ما تبقى لها من حياة على كرسي مدولب بسبب رصاصة دخلت إلى نخاعها الشوكي.

كل ما تمكنت الشرطة من الوصول إليه من التحقيق أن المسلحين كانوا قد أُرسلوا من قبل عصابة بوغوتا بطلب من آل تشارلين. الذين لم يكونوا على استعداد لتقبل الخيانة. ولم تنعقد جلسة المحاكمة للبت بقضية عمليات قاربي رند وهالكون الثاني إلا بعد أشهر من عملية اغتيال مانويل بابلو ومع القضاء على الشاهد الرئيسي، تمت تبرئة آل تشارلين. وليس هذا فحسب، بل أن العصابة ورطت مانويل باولو، وأكد «الكبير» أمام المحكمة أنه لم يكن لديه أبدا أية مشكلة معه. وبذلك فإن كل التبعات الجرمية أسندت إلى باولو، وهكذا فإن كل التهم قد ماتت عندما تحملها متهم ميت.

بعد أشهر، شرحت كارمين كاربايّو وهي جالسة على كرسيها المتحرك أن زوجها وابنها دانيال كانا قد تعرضا لتهديدات من قبل رجل كولومبي قبل أيام في مرفأ كامبادوس لكي يتراجعا عن إفادتهما. حتى أن دانيليتو كاربايّو، ابن أخ وشريك ستيو، طلب منه أن لا يتعاون وإلا فإن ذلك سيجلب مشاكل جدية. إن ما يثير الانتباه في هذه القصة هو دانيال باولو الذي نجا من الرصاص في ذلك الصباح إذ لم يكن في المنزل، فقد تم إيقافه بعد سنوات في عملية الومضة[24]. وأوقف مع دانيال باولو في العملية نفسها خوسه بينيتو تشارلين باس، ابن أخ «الكبير». وأخذ آل تشارلين وآل كانيوس يعملان معا من جديد. تغلب الحب مرة أخرى على الكراهية.

كان آل تشارلين يبيضون أموالهم عبر شبكة مذهلة من الشركات. كانت الشركة الرئيسية هي شركة تشاربو للكونسروة، والتي تقع في فيلانوفا، وشركة باسيّه للأسماك. تطول القائمة وتتعدد الشركات: محطة تنقية مياه، وعدة قوارب، ومزارع أسماك، وشركة إنشاءات، وأخرى للنبيذ، وواحدة زراعية. أما جوهرة التاج فكان قصر فيستا ريال، الذي كسبه آل تشارلين في محاولة غير ناجحة للمزايدة على قصر بايون. بالإضافة إلى ذلك، كانت العصابة تملك في ذلك الوقت 29 مزرعة، وعددا هائلا من الشقق. بالإضافة إلى أسطول نقل مؤلف من أربعة قوارب صيد وستة زوارق سريعة: لا نومينا، نافيلا، وأربعة باسم «الصقر». لم يغلق الحظ أبوابه في وجه آل تشارلين، فقد ربحوا اليانصيب [مرة. ويقول المحامي لويس روبي، الذي كان يحقق بإرثهم: «لقد كان الحظ يحالفهم مع اليانصيب قبل شروعهم باستثمار كبير، في الحقيقة، كان اليانصيب واحدا من الأمور التي سمحت لنا بتفكيك شبكتهم. رأينا أن بطاقتين أو ثلاث بطاقات قد بيعت في سوبرماركت في ضواحي قرطبة. علما أنها كانت غير صالحة بالتأكيد».

حتى يومنا هذا، يتابع جيل ثالث من آل تشارلين احتلال صفحات الجرائد وأماكن في قاعات المحاكم. لا تزال العصابة حية ولا يزال كفاحها مستمرا. إن «الكبير» يرعى كل شيء منذ تقاعده في فيلانوفا، حيث يمكن رؤيته كل صباح يتناول القهوة ويقرأ الجريدة: جديّ، ومرتاب، ويزن كلماته.

مارسيال دورادو، في يخته مع الرئيس

«لا أعلم ما هو لون الكوكا ولا لون الشوكولا، لم يسبق لي أن رأيتهما في حياتي. ولا أريد أن أراهما».

مارسيال دورادو للصحفي فيليبه سواريس

«كان ذلك في العام 2006، عرفنا ذلك من قبل أحد الأشخاص الذين نثق بهم. إن تاجر مخدرات كان هناك في ذلك اليوم. لكننا لم نتمكن أبدا من القبض عليهم، ولم يتمكن القضاء من الاستناد إلى دليل ثابت». تعود الجملة السابقة إلى ضابط يتحفظ على ذكر اسمه، ويتابع: «كان ذلك على شاطئ فوس، في لوغو. وصل زورقان، واحد يحمل أكياس الكوكايين والآخر الوقود. أخرجوا البضاعة ووضعوها في سيارتين برمائيتين. كان هناك ألفا كيلو على الأقل. ذهبت السيارتان إلى موقع قريب، وهناك أنزلوا الأكياس بواسطة حفارة حمراء. ثم قاموا بأخذها. سار كل شيء بشكل ممتاز. لاحقا وصلنا، ولكن بعد وقت طويل، لأني أتذكر العلامات التي تركتها الزوارق على الرمل». إن ما يصفه الضابط على الأرجح هو واحدة من مئات عمليات الإنزال التي كانت تجري في غاليسيا، واحدة من تلك العمليات التي لن نسمع عنها أبدا: فقط العمليات الفاشلة هي التي تطفو على السطح. كان يقود تلك العملية خوسه أنتونيو كريو فيرنانديس، تاجر مخدرات ليس له ملف مهم في هذا المجال وقد اختفى بعد أسابيع من تلك العملية. «من الممكن أن مشكلة قد حصلت فيما يخص الحمولة أو ربما هي مشكلة دين ما. وقد حصل شيء ما، فقد فر هذا المهرب إلى البرتغال». كانت زوجته تزوره هناك إلى أن تُرك يموت قبل بضعة شهور.

لا يزال الغموض يكتنف تلك القصة، ولربما أن الغموض الأكبر هو في ما قاله الشاهد في نهاية كل شيء: كان مارسيال دورادو باولده ينسق العملية مع خوسه أنتونيو. «كان هناك، هذا المخبر رآه. وصدقني، إنه لا يكذب».

إن الكشف يستحق السرد التشويقي، لأن النقاش في ما إذا كان مارسيال دورادو قد كرّس نفسه لتهريب المخدرات أم أنه فقط كان يعمل بالتبغ هو نقاش لا يزال دائرا في غاليسيا. فقط العدل من استطاع إيضاح ذلك في قضية في عام 2003، عندما اتُّهِمَ ببيع سفينة «ساوث سي»، التي استُخدمت في عملية إنزال كوكايين. إنه يقضي عقوبته في الوقت الحالي جراء ذلك. يقول شرطي قديم في الحرس الوطني، وهو مقتنع أن مارسيال لم يكن سوى «سيد الدخان»: «ارتكب خطأ في تلك الحادثة

ولعبوا عليه. لقد عومل كمهرب مخدرات بينما هو لم يكن كذلك. وأعتقد أن هذا الرجل لم يكن له علاقة بالتهريب لا من قريب ولا من بعيد، فهو بكل بساطة لم يكن بحاجة إلى ذلك». ويضيف صحفي يعرف جيدا مسار حياة مارسيال: «لا أعتقد أنه كان مهربا، ارتكب هذا الخطأ سنة 2003 وتم اعتباره شاهد ملك. لكن كل المال الذي حصل عليه كان من التبغ». من ناحية أخرى، يعتقد آخرون أن الزعيم عمل بالتأكيد مع عصابات المخدرات، لكنه كان أكثر كفاءة من الآخرين. في شباط/فبراير من العام 2015، وجّهت الجمارك الوطنية لمارسيال تهمة وصلت عقوبتها إلى ست سنوات من السجن بتهمة تبييض الأموال، بعد أشهر من الغوص في إرثه الفاضح. ذكرت المحكمة في حيثيات الحكم: «من المعلوم أن مارسيال دورادو كان مهرب تبغ، لكن هذا لا يعني أنه لم يعمل في تهريب المخدرات». لقد أخذ القضاة على عاتقهم التأكد من أن الزعيم نقل 106 ملايين فرنك سويسري (69 مليون يورو) في التسعينات. أكثر من 50 مليونا تم إيداعها نقدا في حسابات سويسرية. (هل تتذكرون جوسيف أرييتا الذي أخذ مال الزعماء إلى سويسرا في صندوق سيارته؟).

قدرت المحكمة أنه «من المستحيل أن تكون تلك الحسابات البنكية قد أتت فقط من بيع التبغ». واعتبرت المحكمة أن شحنة خشب من توغو في العام 2000، والتي كانت إحدى الحاويات فيها تنقل الكوكايين، دليل على أن مارسيال كان يهرب المخدرات. وقد ارتبطت عملية النقل هذه بشركتين تعودان إلى مارسيال.

يؤكد ضابط في الشرطة الوطنية: «مارسيال كان ذكيا بالفطرة، لم يدرس، لكنه كان فطنا للغاية». يتفق الصحفي خوليو فارينياس مع هذا الوصف ويقول: «كان يتمتع بمهارات من أجل العمل، لأجل أي نوع من الأعمال». إن مثل هذا الجدال ظل مستمرا، ولطالما غذت هذا النقاش تصريحات قوى الجمارك والرجال الذين عرفوه عن كثب.

بالرغم من أن مارسيال وُلِدَ في كامبادوس في عام 1950، لكنه يشعر بالانتماء إلى إيّا في أروسا، المكان الذي انتقل إليه عندما كان طفلا. في ذلك الوقت، كانت والدته تعمل في التنظيف في منزل زعيم التبغ فيسينته أوتيرو «تيريتو» (ما من زعيم كبير بدون اتصال ملائم مع تيريتو)، وكثمرة للحاجة، أرسل مارسيال وإخوته لكي يعيشوا في منزل نارسيسو سواريس، مليونير كتائبي[25] صاحب أسطول الزوارق الصغير الذي يربط إيّا بالبر. كان هذا الطريق الوحيد للتواصل بين الطرفين حتى عام 1989، حين تم إنشاء الجسر الحالي. بدأ مارسيال منذ نعومة أظفاره بقيادة زوارق السيد نارسيسو، فتفوق بسرعة على اقرانه ليصبح واحدا من أسرع سائقي القوارب في منطقة المصب. استدعاه «تيريتو» إلى الصفوف، وبعد سنوات قليلة، كان مارسيال يدخل الأشقر الأمريكي[26] إلى أروسا. في نهاية الثمانينات - حين كان يلقب بـ «مارسيال الجزيرة» - أصبح سيد التبغ في كل منطقة المصب، بإمبراطورية قاومت شبكة الأبحاث في تبييض الأموال في سويسرا. تزوج من ماريا دي كارمين فارينيا التي أنجبت له ابنتين، أرسلهما إلى إنكلترا للدراسة. محاولا أن يبقيهما بعيدتين عن ميدان أعماله بعد أن أمن لهما أفضل تعليم ورغم كل ذلك فإنه لم يستطع الحصول على كل ما يريده: تم توجيه الاتهامات إلى ماريا دورادو، المحامية، في محكمة في شباط 2015 بتهمة تبييض الأموال. وكانت تشارك في إدارة أعمال العائلة. وبسقوطها تكون الشريكة الحالية للزعيم أوتيليا راموس قد

سقطت معها.

جعله التبغ أكثر من مليونير، لكنه، وعلى عكس أترابه، لم يرق له التباهي بثرواته. فقد بنى منزلا له في إيّا وأصبح هذا المنزل رمزا شخصيا له، وقد بدا هذا المنزل كبقية منازل تلك المنطقة جميلا من الخارج، إلا أنه لا يثير دهشة العابرين أمامه. من الداخل كان المنزل يحوي بركة سباحة على السقف الزجاجي لغرفة الجلوس وقبو نبيذ وصالة ألعاب وملعب تنس. وكثيرا ما كان مارسيال يبدو أكثر رصانة من زملائه في العمل، إلا أن هذا لم يكن يعني أنه كان صارما ومتزمتا. كان مارسيال زبونا ثابتا في أفضل مطاعم منطقة المصب، ولم يكن ليطلب إلا أفضل أنواع المأكولات البحرية وأفخم أنواع النبيذ.

كما هو معلوم في غاليسيا، تجاوزت شهرة مارسيال حدها في آذار/مارس من عام 2013. عندما نشرت جريدة إل باييس صورا له في يخته برفقة الرئيس الحالي لحكومة غاليسيا المحلية ألبيرتو نونييس فيخوو، هذه الصور أعادت إلى الذاكرة شبح السياسة الصديقة لتجار المخدرات إلى غاليسيا. كانت الصدمة كبيرة جدا: رئيس حكومة غاليسيا في قارب واحد مع أكبر زعماء التهريب في منطقة المصب. يعود تاريخ الصور إلى صيف عام 1995. لقد أرفقت جريدة إل باييس الصور بالتالي: لقد تعرف فيخوو ومارسيال إلى بعضهما ذلك العام عندما كان الرجل الثاني في الحزب الشعبي في وزارة الصحة. توطدت أواصر صداقتهما، وبدأ المسؤول الواعد يزور على نحو متكرر منزل الزعيم في إيّا، حيث كانا يحتفلان بموائد ممتلئة بما لذ وطاب ولقاءات يتناقشان فيها ولطالما شهد هذه المناقشات رجالٌ من منظمة مارسيال وقادةٌ رسميون.

يقول خوليو فارينياس شارحا: «كان يروق لمارسيال أن يقيم علاقات، كان مهووسا بذلك. وكان لديه أصدقاء في كل المجالات، وخاصة في السياسة».

قام السياسي والمهرب برحلة مشتركة. ذهبا إلى كاسكايس وأندورا وإيبيسا، حيث كان مارسيال يرسو بيخته في أوراتوس. وكانا يقضيان أياما أيضا في المنزل الذي يملكه الزعيم في بايونا، حيث كان لديه يختٌ آخر.

بعد نشر الصور بدأ الناس في غاليسيا يفتحون أفواههم متفاجئين ما جعل فيخوو مرغما أن يقدم تفسيرات. أكّد أن علاقته مع مارسيال شخصية، وأعلن أنه كان في قاربه وفي منزله وأنه قام برحلة واحدة على الأقل معه. «لكن دائما كان هناك أصدقاء آخرون يرافقوننا». نفى الرئيس بشكل قاطع أن تكون لديه علاقات عمل مع الزعيم، ونفى أن يكون على علم بنوع الأعمال التي يقوم بها. إن الأمر الأخير لم يكن مقنعا، لأن مارسيال كان في العام 1995 واسع الشهرة في غاليسيا، وقد مثُلَ مرتين أمام المحكمة حتى ذلك الوقت: مرة في عام 1984، بسبب القرار 11/84، ومرة أخرى في عام 1990، عندما تمت تبرئته في عملية نيكورا. اعتذر فيخوو موضحا أنه كان قد وثق ما قاله أصدقاء مشتركون في تلك الأوقات، مؤكدين له أن دورادو لم يعد يعمل في التهريب.

في العام 1997، وبحسب ما شرح القائد الغاليسي في مذكراته، قطعت العلاقة بعد أن فتحت

قوى الجمارك تحقيقا مع المهرب. لكن بعد سنوات اضطر أن يعترف عندما علم بوجود تسجيل لدى الشرطة أنه استمر في التحدث مع الزعيم بشكل متقطع حتى عام 2003. تم تسوية المسألة عبر ذلك، ولا يزال في الرئاسة في الوقت الحالي، حتى أن هناك شائعات تشير إلى أنه مرشح محتمل لخلافة راخوي.

في الحقيقة، كان فيخوو يعرف بأمر الصور منذ عام 2004، عندما استولت عليها الشرطة في تفتيش لمنزل مارسيال.

من المفترض أن أحدا ما قام بتمرير الصور إلى حزب العمال الاشتراكي الإسباني في غاليسيا، وأخذ هؤلاء يهددون بنشرها إذا لم يخفض الحزب الشعبي لهجة هجومه. كل واحد يدير اللعبة بحسب مصلحته.

ساعد مارسيال قليلا في بناء صورة الرئيس الغاليسي عندما قرر التصريح من سجنه: «إنه شاب جيد، مجتهد جدا. دائما ما كنت أشعر بأنه سيصل إلى أعلى المراتب، أنه ينشر الصدق والعاطفة في العمل». ويكمل: «أنا واثق من أنه يعرف أني لم أكن، ولست، ولن أكون رجل مخدرات».

يعيش مارسيال محافظا على كلامه ودونما تغيير، ففي كل مرة يتيحون له الحديث فإنه يوظف كلامه من أجل إبعاد الشبهة عن نفسه في تهريب المخدرات. منذ سنوات اتصلت شريكة دورادو بشرطة أروسا لكي تسأل إن كان بإمكانها الذهاب لكي تشهد في قوى الجمارك لصالح الزعيم، لكي توضح لهم أنه كان يعمل في التبغ فقط. يروي ذلك الشرطي نفسه: «قلت لها: إذا كان مارسيال يعمل في التبغ فقط، فأنا لا أثق بذلك. هل تعرفين حضرتك ما الذي تطلبينه مني؟ تطلبين مني أن تذهبي إلى قوى الجمارك وأن تشهدي في صالح زوجك. لكن يا امرأة أنا عندي كرامتي. ابحثي عن حياتك في مكان آخر».

مهربون أم تجار مخدرات، إن مجموعة مارسيال كانت مجموعة عظيمة القدرة، لديها بنى تحتية وعمال محترفون أفضل من أي عصابة مخدرات. أحد رجال مارسيال الثقاة كان خوسه لويس هيرميدا باس، الملقب بـ «كالابروته»[27]، الذي دمج انتمائه إلى عصابة مارسيال وعمل مع آل تشارلين. كان «كالابروته» واحد من الشركاء في عملية القارب «رند»، وقد حُكم عليه بالسجن 14 عاما بسبب ذلك.

كان مانويل برادو لوبيس رجلا آخر من رجال مارسيال، وانتهى به المطاف أيضا في تجارة المخدرات عندما تفككت العصابة في عام 2003. وبأي طريقة: حضر برادو لوبيس مرة أخرى إلى جحيم آل تشارلين، وانتهى به الأمر ليكون إحدى صلات الربط بين العصابة الغاليسية وعصابة بوغوتا الكولومبية.

في أواخر العام 2006 قبض عليه في عملية الومضة، تلك العملية نفسها التي سقطت فيها الأكياس في البحر ووصلت إلى الشاطئ مع الأمواج.

كما لو أنه لا يمكن إنجاز ذلك بطريقة أخرى، فقد أنشأ مارسيال أيضا حصنه المالي. كان المهرب يدير واحدة من الثروات الأكثر وفرة في غاليسيا، وكان يحرس أمواله في حسابات في بنوك سويسرا والبرتغال والباهاماس. كان يملك كثيرا من العقارات ومحطات الوقود. في البرتغال كان لديه شركة نبيذ مهمة ومزرعة ضخمة، وفي المغرب كان يستثمر في شركة إنتاج زيت زيتون. ثم أدار ائتمانا لـ 28 شركة إسبانية وأجنبية. وإلى أن سقطت عليه مطرقة خزينة الدولة في العام 2009، كان مارسيال يملك أربع مزارع في البرتغال، وست شقق في غاليسيا، وعشرة محال تجارية في سانتياغو دي كومبوستيلا، ومعملا في فيلانوفا. كذلك امتلك شققا في أفيلا ومدريد وليون وإشبيلية ومالاغا. وعبر متجره الكبير كان يملك 208 ممتلكات أخرى. وإذا لم يكن هذا كافيا، فقد ربح عام 1998 اليانصيب.

إن الجدل حول ما إذا كان مارسيال قد قام بالقفزة أم لم يقم بها يُظهر أن مهربي التبغ، بالرغم من أن أحدا لا يلاحظ ذلك، لا يزالون موجودين في غاليسيا حتى بضع سنوات خلت. إنهم محميون في ظل تجار المخدرات الإعلامي، عشرات السنين من «أسياد الدخان» ولا يزالون موجودين حتى منذ وقت قليل بفضل الوينستون في القوارب والشاحنات.

أحد أسياد التبغ الآخرين هو خوسه رامون بارال الملقب بنينه، عمدة ريبادوميا، الذي تابع نشاطه في التبغ حتى سنة 2003 على الأقل، الآن هو متهم - بالإضافة إلى بناته الثلاث - وينتظر المحاكمة بسبب قضية احتيال على خزينة الدولة. لقد طلب المدعي العام لكل منهم ثماني سنوات من السجن. وكان مانويل سواريس الملقب «مانوليتو» رجلا آخر استمر بالعمل في التبغ، وهو ابن الرجل الكتائبي من إيّا الذي عاش معه مارسيال. استمر «مانوليتو» بالعمل مع الأشقر الأمريكي حتى سنة 200، عندما قبضوا عليه وعلى زوجته. وسقط معه أيضا «سيد دخان» ذائع الصيت في غاليسيا: خوان مانويل لورينسو، الملقب بـ «فيرّاسو». في العام 2008، وضع نهاية لعمله في التبغ من خلال توقيع اتفاق مع محكمة مكافحة الفساد: غطت الدولة مليون يورو من الغرامات، وتم تحريره هو و30 مهربا آخر كانوا أعضاء في عصابته من السجن. ومع هذا الاتفاق سقطت آخر أكبر عصابة «أسياد دخان» في منطقة المصب. وأغلق ملف تلك المرحلة ليصبح من التاريخ.

المد الأبيض

«هل يحصل كل هذا حقا؟».

دعونا نعشْ

لم يكن من السهل إقناعهم لكي يقوموا بإدارة الفريق. لم يرغب أي واحد من «مدخني الحشيش» - كما كانوا يسمونهم في فيلانوفا - أن يلعب كرة القدم. في الحقيقة، لم يرغب أي منهم أن يفعل أي شيء ما عدا أن يجلس في الخاردين (=الحديقة) كما تدعى الحديقة في فيلانوفا، لأجل تدخين بعض اللفائف أو تجريب بعض الأمفيتامينات. الأمر الوحيد الذي كان من الممكن أن يحركهم هو اقتراح للذهاب إلى كامبادوس أو إلى فيلاغارسيا، والجلوس في بار وشرب كل ما يتاح لهم. أي نشاط آخر كان هدرا للطاقة. لذلك، لم يكن ذاك الصيف في عام 1982 سهلا لإقناعهم بأن يقوموا بإدارة فريق كرة قدم.

إن قصة فريق كرة القدم «دعونا نعش» هي قصة عن كيفية قيام تجارة المخدرات بجرح شباب منطقة المصب جرحا عميقا. ما هي العواقب التي ستحل بمقاطعة صغيرة بسبب وجود عصابة تهريب الكوكايين الأكثر نشاطا في أوروبا على أراضيها؟ طرح هذا السؤال راوي الوثائقي «المد الأبيض»، عمل صارم وقوي حائز على جائزة الملكة صوفيا ضد المخدرات عام 2001. يُظهر الوثائقي ما هي عواقب تركّز أكبر زعماء المخدرات في القارة في بضعة كيلومترات. لقد انجرف جيل كامل، الجيل الذي وُلِدَ في الستينات في منطقة المصب في أروسا. إن الفرق بين هؤلاء الشباب وبين الرواد - تشيس وتشيما وتاتي وداماسو من فيلاغارسيا في فترة السبعينات، الذين فتحوا الأعين على آل تشارلين - أن هذا الجيل الجديد لم يكتفِ بالحشيش فقط. كانوا في الوسط، بين العصابات الأمريكية (اللاتينية) والعصابات الغاليسية، ودفعوا ثمن كونهم في الزمان والمكان الخاطئين. كانوا معروفين في غاليسيا باسم الجيل الضائع: مات مئات الشباب أو تم وسمهم إلى الأبد بموجة البضائع الممتدة والزوارق وعمليات الإنزال والمنازل الكبيرة والسيارات المكشوفة.

إن فكرة إدارة النادي كانت فكرة مانويل فيرنانديس بادين، واحد من التائبين على يد غارسون. في العام 1982، وبعمر العشرين فقط، كان يتعاون مع الجمعية الثقافية أونوبا، التي كانت تنظم الاحتفالات في فيلانوفا. وفي تلك الاحتفالات كانت تقام كل أنواع النشاطات الرياضية، ومن بينها بطولة كرة قدم تشارك فيها عشرات الفرق، والتي لم تجذب اهتمام إلا عدد من شباب الحديقة (الخاردين) البائسين. كان على بادين أن يقوم بعمل جبار لاستمالة وسحب زملائه من البار لينتعلوا أحذية رياضية. بدأ بالتحدث مع نيتو «سوبيتاس» ومع «غيلوتشو»، وهما الأكبر. رد عليه الأول بالإيجاب، لكن قبل بضعة أيام من بدأ البطولة قرر اللعب مع فريق آخر. وافق الثاني على عرض المدرب: لم يكن لديه أدنى فكرة عن كرة القدم. كلاهما كانا المسؤولين عن توزيع الحشيش والأمفيتامينات، ثم أخيرا الهيروين، إلى باقي أعضاء العصابة. وكلاهما اليوم فارق الحياة.

***

تقول فيرونيكا، وهي واحدة من سكان فيلاغارسيا: «أول ذكرى لي عن المخدرات كانت عندما كنت طفلة. كنت عائدة من المدرسة ورأيت شابين يتحدثان، أعطى أحدهما للآخر بعض الأكياس التي ظننت أنها تحتوي على السكر. كان ذلك في شارع في مركز فيلاغارسيا، نعم، ليس في زقاق مظلم. في الأسبوع التالي رأيت ذلك مرة أخرى. في بعض الأحيان كان هناك أكثر من شابين، أربعة أو خمسة، وعدة أكياس من السكر. في يوم من الأيام سألت والدَيّ: «ما هذا الشيء الذي يتبادلونه؟ سكر؟ لا، لم يكن سكرا». كانت فيرونكا تعيش في ذلك الوقت بالقرب من شارع بالدوسا، شارع في مركز فيلاغارسيا، إلى جانب المرفأ. «كان ذلك مريعا. كان مليئا بال- «جانكيس» (المدمنين). وأنت تمر من هناك يمكنك أن ترى الكثير منهم في كل مكان». تتذكر ماريا، إحدى السكان، شارع بالدوسا بشكل جيد: «كان يمثل ما كان يحصل حقا. كان الشباب كلهم كالزومبي في مركز فيلاغارسيا». وكذلك كان المرفأ ذو المئة متر تقريبا، كان مليئا بالشباب الذين في حاجة ماسة لجرعتهم. كانت أروسا في تلك السنوات تعاني من أعراض فراغ وانسحاب من ميادين الحركة والحياة.

كانت المشكلة منتشرة في كل إسبانيا تقريبا: خسرت مئات الأحياء والقرى عشرات الشباب بسبب الدخول غير النظامي للهيروين في الثمانينات. حصلت نفس الظاهرة في أورسا، لكن على عكس المعتقد العام، لم يدخل الهيروين عبر غاليسيا. من الممكن أن الإدمان على هذه المادة قد يكون دخل عن طريق فيلاغارسيا بسبب سهولة الحصول على الكوكايين وبسبب التقبل الاجتماعي فيها للمخدرات. هناك تقليد يتمثل بمد السجاد الأحمر لأي مادة تصل إلى الساحل. يجب أن نأخذ بالحسبان أن كثيرا من الشباب الذين كانوا يساعدون في إنزال البضائع وإنجاز تلك المهمات يحصلون على عينات من تلك البضاعة التي يسعون إلى تسويقها.

في حالة الإيدز في إسبانيا بين عامي 1984 و1986 - الفترة التي كان فيها سبب غالبية الحالات هو العدوى بين مدمني المخدرات - كان هناك 105 إصابات بين كل 100 ألف شخص.

في غاليسيا، كان المعدل الوسطي 72 شخصا، لكن في مقاطعات مثل سالنيس ارتفع العدد ى 147[28]. في عام 1995، اعترفت ثلث المدارس الغاليسية أن المخدرات كانت تباع في أرجائها. فقط في ذلك العام، مات 53 شخصا في غاليسيا بسبب جرعات زائدة. وكان معدل استهلاك الكوكايين في سالنيس الأعلى في إسبانيا[29].

***

بعد إقناع «غيلوتشو»، تمكن بادين من أن يوقع في شركه شخصا آخر. كان الأمر سهلا مع أخيه رافائيل بادين، الذي كان يلعب في فريق فيلانوفا والذي وصل إلى المنافسة في دوري الدرجة الثالثة. ومنذ الدقيقة الأولى برز كنجم للفريق. إن رافائيل هو من القلة التي بقيت على قيد الحياة من تلك العصابة، بعد أن أجرى عملية زرع كبد. أما باقي الفريق فقد ساهم في انخفاض المستوى. كان مانولو «باناديرو» قائد الفريق، وكان يلعب تقريبا في كل دقيقة وهو تحت تأثير الحشيش. مات بعد

سنوات بسبب زيادة جرعة هيرويين. في الدفاع كان مانولو «ماكوتو»، ومات أيضا بسبب الهيرويين. كحارس مرمى كان «باتشيرو»، الذي انتهى به الأمر ميتا حرقا في حادث حريق سببته سيجارته، بعد أن كان يعيش سنوات كثيرة وحيدا متنسكا ومدمنا إدمانا شديدا على الكحول. كان خوسه لورنسو لاعب هجوم. وهو أيضا ميت: عانى من نوبة صرع على الشاطئ، وبقيت صورة كلبه الذي يحاول انتشال جثته من بين الأمواج وإحضارها من عرض البحر عالقة في أذهان أصدقائه. كان أدولفو ريغوسا وباولينو باريتا آخر من تشجّع للمشاركة في الفريق. مات الاثنان بعد سنوات بسبب الإيدز. قام بادين بإنجاز آخر عقد قبل بداية البطولة، وتعاقد مع خيسوس ماريا كارنيسيرو، الذي لم يكن من عصابته. إن هؤلاء الثلاثة - كارنيسيرو والأخوين بادين - هم الوحيدون في فريق «دعونا نعش» الذين لا يزالون أحياء حتى يومنا هذا.

لم يكن لاسم الفريق حينها أي علاقة مع كونه نداء استغاثة من مآسي الإدمان. قاموا باختياره ببساطة لأن كل الشعب كان يكرههم وكانوا هم يكرهون كل الشعب. «دعونا نعش» يعني دعونا وشأننا. دعونا نكن هنا تائهين، نستهلك ما يطيب لنا ونشاهد الحياة تمر. بعد سنوات قليلة أصبح الاسم يرسل رسالة أخرى أكثر ميلا نحو الأدب. معظمهم كانوا أبناء بحارين وعمال. معظمهم كانوا قد تركوا دراساتهم وقامت عائلاتهم بلعب ألعاب الخفة الاقتصادية التقليدية في إسبانيا الثمانينات. كان لبعضهم الخيار للخروج إلى البحر مع آبائهم، لكنهم لم يقوموا بذلك.

كان الشعار هو أن لا يفعلوا أي شيء ما عدا الشرب والتعاطي والاستماع إلى الموسيقى. إن القمصان التي اختاروها لأجل البطولة كانت تحمل حرف A على الصدر رمزا للأنارخية. كما صنعوا رايات أيضا تحمل نفس الرمز والتي كانوا يلوحون بها في وجه الفرق المنافسة. وبشكل مفاجئ، وبينما كان المدرب «غيلوتشو» يحتسي زجاجة بيرة على المقعد جانب الملعب، ربحوا المباراة الأولى.

كان الحكم في تلك البطولة مانولو فارينيا، الذي كان يحيي قائد كل فريق كما لو أن المباراة كانت مباراة نهائية، ثم يطلق صافرته حالما يخطر الموضوع على باله. كان هنالك مباريات طُرد فيها ثلاثة لاعبين قبل بدايتها. في اللقاء الثاني، ربح أيضا «دعونا نعش» ما أثار شكوك العامة. وحصل نفس الأمر في اللقاء الثالث، حتى وصلوا إلى المباراة النهائية. كان في مواجهتهم المفضلون، فريق مشكل من شباب من فيلانوفا الذين كانوا يلعبون في فئة الهواة. بالمناسبة، كان هذا الفريق الذي هرب إليه نيتو «سوبيتاس» ويضم في صفوفه كوكو ولاوريانو ومينغوا، وهم لاعبون ذوو مستوى عالٍ في منطقة المصب. كان «سوبيتاس» هو من حصل على راية من زملائه وسط الابتسامات، وكانت الراية تحمل علامة الـ A الأنارخية وذلك قبل صافرة البداية. هناك صورة عن تلك اللحظة التاريخية، التي ترتسم فيها الضحكة حتى على وجه مانولو فارينيا أيضا.

في تلك اللحظة حصل أمر في الملعب، أمر يفوق العادة: وصل الحشاشون إلى النهائيات، كان هذا أمرا جللا. وحصل أن الناس وقفت جانبا أمام هذا الأمر غير الاعتيادي. وفي ذلك النهائي قام المشجعون بتشجيع الضعفاء. خسيسون وسقيمون تحت قمصانهم الأنارخية، انتهى الوقت الأساسي للمباراة بتعادل سلبي. كانوا يتعرقون في وسط الغبار الناتج عن ركلاتهم وهرولة أفخاذهم النحيلة

تحت سراويلهم القصيرة. في الوقت الإضافي وقبل خمس دقائق من النهاية، سجل خوسه لورينسو - ذلك الشاب الذي انتهى به المطاف متخشبا على أمواج البحر - هدف الفوز.

احتفلوا سوية على نحو لم يسبق لهم أن فكروا به. وفي تلك الليلة ذاتها، في الفيربينا[30]، قام «غيلوتشو» المدرب الذي لا يفقه شيئا حيال كرة القدم برفع الكأس أمام سكان مدينته وهم يصفقون.

توحدت أسماء أولئك الشباب بعد سنوات في قائمة الجيل الضائع الطويلة في غاليسيا. واستمروا بتعاطي الأمفيتامينات وال- LSD مع الهيرويين. وسقطوا. كانوا الأوائل في جيل شباب حمل وصمة عار الحياة مع المخدرات في منطقة المصب وفي كل غاليسيا.

بالمناسبة، حاز فريق «دعونا نعش» على البطولة من دون أن تتلقى شباكه أي هدف.

انهض!

في صباح يوم من أيام عام 1994، وصل شرطيان من الحرس الوطني بلباسهما الموحد في سيارة إلى بوابة قصر بايون، وهو من أملاك لاوريانو أوبينيا. كانت مهمتهما مراقبة مظاهرة نفذتها جمعية كانت معروفة باسم «أمهات ضد المخدرات». لم يكن لديهما أمر ولا رغبة بفك التجمع. وبعد وصولهما، وجد الشرطيان نفسيهما في مواجهة مجموعة من الأمهات الغاضبات (كان هناك آباء أيضا) وهن يهززن بوابات القصر، وسط الصرخات والصخب. عندما رأين الشرطيين من الحرس الوطني قادمين، قمن بإلقاء أنفسهن عليهما. حاول الشرطيان التحكم بالموقف، لكن الأمر انتهى بهروبهما من الموقع إلى السيارة. «كانا يركضان نحو الأعلى. لأنه في ذلك الوقت كان هناك منحدر. أتذكر كيف أن المسكينين كانا يركضان نحو الأعلى. حاولت أن أهدئ من روع الناس، لكن في ذلك اليوم... كان الأمر مستحيلا. كان الناس يظنون أن الشرطيين قد أتيا لقمع التجمع. يا إلهي! يا له من تجمع في ذاك اليوم!». هكذا تقول كارمين أفيندانيو، الناطقة باسم جمعية «انهض»، التي كان يُظن أنها تتكون من «حفنة من الأمهات» من فيغو، الأمهات اللواتي تابعن قتالهن ضد أولئك الذين كانوا يبيعون بسعر بخس ما كان يقتل أبناءهن. «كانوا يقولون لنا: انتبهوا! يوجد في الداخل أناس مسلحون». وهذا صحيح. كانت إستير لاغو تمشي محاطة بشبان مسلحين، ولكن في ذلك اليوم لم يهتم الناس بالأمر».

يتذكر ذلك اليوم أيضا المحامي والمسؤول القضائي عن القصر لويس روبي عندما كان حينها مجندا مع أوبينيا. ويقول: «كان على قصر بايون التدخل لأن الأمهات كنَّ على وشك الاقتحام. اندفعن بشدة لأنهن لم يحتملن رؤية أولئك السادة يستمتعون بما جنوه بينما يموت الشباب على جوانب الطرقات».

إن التجمعات أمام أبواب قصر بايون بقيت كرمزٍ للقتال الموجه ضد الإتجار بالمخدرات الذي شكّل جزءا من مجتمع غاليسيا، الذي يتخلص من العار والصمت. أمهات يائسات ضد زعماء يدخلون ويخرجون إلى قصورهم وهم محاطون بالحراس الشخصيين المسلحين. لعبت غاليسيا دور ملاذ للمخدرات، وكان قسم من السكان يتجنب التدخل في ذلك. إن الضغط الاجتماعي الذي مارسته جمعيات مثل جمعية «انهض» أو المؤسسة الغاليسية ضد المخدرات هو التفسير الأخير - أو الأول - للسبب الذي من أجله اندلع القتال السياسي والقضائي ضد «أسياد المخدرات».

وكما هي الحال دائما، في البداية كان العدد قليلا. يقول فيرناندو ألونسو، المدير الحالي للمؤسسة الغاليسية ضد المخدرات: «كانوا لوحدهم، فيليبه سواريس وباستور أولنسو وثلاثة آخرون من سكان فيلاغارسيا. لم يكن الباقون يريدون أن يعرفوا أي شيء». أربعة شجعان، أربعة فاقدين

لعقولهم بالأحرى، رفعوا الصوت ضد المنظمات التي تضخمت بدون عوائق في غاليسيا في النصف الثاني من الثمانينات. إن خطوتهم الأولى كانت تأسيس مقر المؤسسة في قلب فيلاغارسيا. لا يزال المقر اليوم يتحدى في وسط ساحة غاليسيا، مع شعاره المعلق على شرفة شقة في الطابق الأول. في الداخل، في قاعة اجتماعات صغيرة حيث تتسلل شمس منطقة المصب، يستعرض فيرناندو عضلاته: «نحن هنا، في المركز، وها نحن نصرخ ونقول بوضوح: في غاليسيا لا نريد مخدرات ولا مهربي مخدرات. وها نحن نقولها في وجوههم».

كانت مشكلة الخطوات الأولى هي أنهم يستطيعون إفشال كل شيء في حال استعرضوا عضلاتهم. «كانوا معدودين على أصابع اليد، لم يدعمهم أحد، لم يقل أحد شيئا. لم يحضر أحد إلى التحركات الأولى التي نظموها». واحدة من تلك المبادرات الأولى التي جمعت عددا هزيلا من السكان كانت حملة «الراية البيضاء»، وهي نشاط احتفالي منسوخ من صقلية لأجل تجميع تواقيع ضد المنظمات المافيوية على راية ضخمة بيضاء اللون. «وبقيت بيضاء اللون في السنوات الأولى، لم يأتِ أحد ليوقع».

كان فيليبه وباستور والآخرون لوحدهم، لأن أحدا لم يرد أن يعرف شيئا عن تلك التحديات. لأن الإتجار بالمخدرات، كما سبق ورأينا، كان متجذرا، كان لديه سلطة كبيرة جدا، ولأن تجار المخدرات لم يقوموا بأي شيء خاطئ، كما كان معروفا حتى ذلك الوقت. على العكس من ذلك، كانوا يوفرون العمل ويضخون أموالا كثيرة في تلك المنطقة المهملة من قبل الدولة. ما هو خطب أولئك السادة الذين يحاولون الآن تفكيك الصناعة الوحيدة التي تعمل في منطقة المصب؟

«لتكن حذرا». لم يتأخر أول التهديدات على الهاتف. يقول فيرناندو ألونسو: «المشكلة هي أنك فضحت ولا تزال تفضح مجرمين هم أيضا جيرانك. إن تلك هي الخطوة الأولى، تلك المرة الأولى التي قمنا بها بذلك، كانت صعبة جدا. ويحتاج المرء إلى شجاعة إضافية لأننا نواجههم في ساحتهم».

حاولوا قتل كارمين أفيندانيو، الناطقة الرسمية باسم «انهض»، حاولوا قتلها على الأقل ثلاث مرات. «كنت مع أبي في السيارة، كنت أقود، وكنا على مشارف أركاده، وكان هناك طريق مستقيم طويل جدا. ضغطت على المكابح فلم تستجب. ضغطت مرات أكثر، لكن ما من شيء يستجيب. نظر أبي إلى وجهي وسألني ما الذي يحصل، لكني قلت له إن كل شيء على ما يرام. تمكنت من الحفاظ على هدوئي وقمت بتخفيض السرعة حتى توقفت السيارة إلى جانب الطريق. أخذوا السيارة إلى الورشة وقالوا لي أن أحدا ما قام بفك العجلة اليسرى الخلفية وتفريغ زيت المكابح. منذ ذلك اليوم وأنا أتفحص المكابح دائما». بعد ذلك خربوا سيارة كارمين مرتين. «لكنهم لم يتمكنوا من القيام بأي شيء. لم تنجح خططهم».

تصلح قصة كارمين أفيندانيو لفيلم سينمائي. في الحقيقة هناك فيلم يروي قصتها. عنوان الفيلم «هيروبين» للمخرج خيراردو هيريرو، أُنتج عام 2005. أدت دور كارمين بيلار - في الفيلم - أدريانا أوسوريس، التي رُشّحَت لجائزة غويا بسبب هذا الدور. «قضت معي كثيرا من الوقت، وأصبحنا أصدقاء. وقمت بمساعدتهم في السيناريو». من وجهة نظر سينمائية، لم يكن الفيلم ملهما والنقد لم يكن

لطيفا جدا. إن ميزته الكبيرة هي أنه يعكس القتال الذي أسسته تلك الأمهات بشكل ناجح ولافت.

«أعتقد أنه جيد، بالرغم من أني لم أستطع أن أشاهده. هنالك جزء في الفيلم فيه شيء عن ابني، الأمر الذي يدمرني سماعه. لقد قبلته في السيناريو لأنه كان حقيقيا، لكني أرفض مراجعته. لا أستطيع». من المحتمل أن كارمين بيلار تشير إلى مشهد في الفيلم تقول فيه شيئا قاصدة ابنها المدمن: «أحيانا أقول إنه من الأفضل لو يموت. سوف نعاني سنة أو سنتين ثم تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي». كارمين هي واحدة من كثيرات من الأمهات الإسبانيات اللواتي شهدن في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات كيف دخلت المخدرات مثل إعصار إلى المنازل، ابتلع أبناءهن من دون أي تفسير، ودمر حياتهم. وفي بعض المرات، إلى الأبد.

بدأ كل شيء في الثمانينات - القصة الحقيقية لـ «انهض»، وليس الفيلم - في حيّ في فيغو يدعى لافادوريس، وهو حيّ شعبي متواضع منكوب بالمخدرات.

في ذلك الوقت، كانت كارمين تنتمي إلى مؤسسة سكان لافادوريس، وهي في الحقيقة تدعى ماريا ديل كارمين، ويعرفها الجميع تقريبا باسم ماري. كان يتم التطرق إلى موضوع المخدرات في الاجتماعات بين الحين والآخر، حيث كانت المخدرات قد بدأت بالوصول إلى الحي. «لكن كان يُنظر إلى الأمر كموضوع عصابات، كموضوع مجرمين، وليس كمشكلة اجتماعية يمكنها أن تؤثر على أي أحد أو تورطه». تغير الوضع عندما سقط أبناء الكثير من الأمهات في تلك المؤسسة في الإدمان. في حالة كارمين كان خايمه، ثاني أبنائها الخمسة، الذي كان يعاني من انسدادين، يؤثران عليه حتى اليوم وسوف يبقيان معه إلى الأبد.

«في ذلك الوقت عدنا إلى القضية. إن هؤلاء الشباب لم يكونوا مجرمين، كانوا مرضى. تفهمنا الأمر، وقمنا بالبحث والكثير من القراءة... لكن صعب علينا أن نجعل باقي المجتمع يفهم. كان المعالجون والمرشدون النفسيون أنفسهم يرفضون المدمنين. بدأنا كلنا من الصفر». كما كان الحرس الوطني لا يعرف ما هو الحشيش عندما كان شباب فيلاغارسيا يجلبونه من المغرب. كما كان السكان لا يعرفون ولا يريدون أن يعرفوا ما هي تلك المادة الجديدة التي تُنزل على الشواطئ. تأخرت كل إسبانيا، بشكل عام، في فهم ما الذي كان يحصل.

في العام 1986، دعت أمهات «انهض» أوساطا محلية وسياسية لحضور عرضهن. ظننا أنهن سيقدمن حلقة من الصحافة الرسمية، لكن ذلك الاجتماع انفجر بعد دقائق قليلة، وتبنى هذا «القتال ضد المخدرات» العام والواهن سيناريو غير متوقع. أحضرت كارمين ودورا وباقي الأمهات قائمة وبدأن بتلاوة الأسماء، بصوت عالٍ وواضح، 38 اسما لبارات يتم فيها بيع المخدرات في فيغو. «كنا على علم أن ذلك من الممكن أن يسبب لنا مشكلة كبيرة، لكن أولئك الناس هم من كانوا يملأون المدينة بالمخدرات حقا. كانوا هم من يقتلون الشباب، ونحن كنا أمهاتهم».

لم يبقَ الأمر على ما هو عليه. في الاجتماع التالي كررن قراءة القائمة. هذه المرة، كان من بين الحضور مالكو بعض تلك البارات. «كنا على علم بوجود تجار مخدرات، يستمعون إلينا، وكان

هناك شرطة أيضا، أولئك الذين يتعاونون معهم، لذلك كان علينا أخذ الحيطة. لأننا في تلك المرة قمنا بتلاوة أسماء تجار مخدرات».

واحد من الأسماء التي نشرتها كارمين في ذلك اليوم كان اسم محارب يملك ملهى ليليا في شارع هيريريا، في البلدة القديمة في فيغو. بالإضافة إلى الهيرويين، كان يهرب الأسلحة ويدير أعمال دعارة. «لقد قلنا ذلك. قلنا كل ذلك. إن قولنا ذلك كان بمثابة قنبلة». في اليوم التالي ذهبت كارمين مع ابنها الصغير إلى السوق. ركنت سيارتها، وكان عليها أن تعبر في شارع هيريريا. هناك كان الشاب، يقف على الباب ويدخن. «لقد اهتززت، كنت أفكر بابني، فيما إذا كانوا سيقتلون ابني. لكني تمالكت أعصابي، وتابعت المشي ونظرت إليه. تابعت النظر إليه حتى وصلت إلى حيث كان يقف. وهو، هل تعلم ما الذي فعله هو؟ نكّس رأسه. في ذلك اليوم عرفت أننا ربحنا». بعد عام ونصف من حادثة المحارب المهرب، قتلوه بعيارات نارية في البرتغال عندما كان يخرج من نادي ضيافة[31].

حظيت مؤسسة «انهض» بشعبية واسعة وسريعة. كان وقع الشجاعة صاخبا، وكانت صفعة على وجه الوعي الاجتماعي في فيغو. إن السياسيين المحليين - حتى تلك اللحظة، وحتى معظم المسؤولين الغاليسيين، الراضين والسعداء بتهريب المخدرات - انحازوا على الفور إلى صف أولئك الأمهات. بدأت القضية تأخذ شكلا. وحين كانوا يبدأون بتشكيل الصفوف للانتشار في غاليسيا، سقط آبيل الابن الرابع لكارمين في تعاطي الهيرويين. «كان الأمر صعبا. لقد غرقت بالحزن. أغمضت عينيي ولم أرد أن أصدق. أعتقدت أني لن أتحمل ذلك، انهرت بالكامل». كانت حملة كارمين على وشك أن تنتهي في ذلك الوقت. لكنها أعادت السيطرة وذلك بفضل باقي الأمهات. «أتذكر أن دورا قالت لي: حسنا، انظري، سوف نترك الأمر. سوف يصلح الأمر من عليه أن يصلح الأمر، وهم القضاة والسياسيون». وجعلني هذا أقول: «كيف لنا أن نترك الأمر الآن؟»».

«عندما بدأنا نسافر على طول الساحل، لكي نقوم بمحادثات واجتماعات مع السكان المحليين، بدأت تصلنا تهديدات أكثر جدية. كانت زميلاتي متهورات جدا، وأنا كنت حذرة جدا لأني كنت أعلم أنهم يستطيعون القيام بأذى كبير». حضر عدد قليل من السكان إلى الاجتماعات الأولى. كان الأمر يشبه الوصول إلى أرض عذراء، إلى مجتمع متحجّر، كفتح فوهة حفرة أرضية ظلت مغلقة لعقود. حافظ أولئك الذين كانوا يدعمونهنّ على صمتهم، ثم تقربوا من كارمين ومن بقية الأمهات لكي يسألوهنّ بكل حزم ويأس ما الذي يمكنهم أن يفعلوه مع أولادهم. ذهبت الاجتماعات بعد ذلك إلى الأبعد. «لقد احتشدت الاجتماعات بالناس، كانوا يأتون بأعداد كبيرة. وعندئذ بدأت العصابات بإرسال الناس. كانوا يرسلون أولا المخربين. كانوا يتركوننا نتكلم أثناء الاجتماع. كنا نقول: «نحن نعلم إنهم يستخدمون أبناءكم لأجل عمليات الإنزال. وأنتم لا تهتمون بذلك. حسنا، نحن نعلم أن ما من عمل ولا مال هنا، لكن كثيرا من الناس يموتون. وأنتم قابعون في الصمت»». هل تعلم ماذا يعني الوصول إلى هناك، إلى أروسا، وقول ذلك؟ حينئذ بدأ الشباب المرسلون من قبل العصابات يقولون: عن ماذا تتكلمن؟ إن عمليات الإنزال لا تحتوي إلا على التبغ، قالوا إننا مجنونات، وأن علينا أن نتعلم كيف نربي أبناءنا... ذات مرة، كان علينا أن نبقى هادئات، لكن لم يكن هناك أي مشاحنات. أعتقد لأننا نساء. لو كنا رجالا لكانوا ضربونا». من المقاطعة انتقلنا إلى نوع آخر من التهديد، أكثر خشونة. عندما

أصبحت الاجتماعات علنية وموسعة، بدأ بعض الزعماء يأتون للحضور شخصيا. «جاء إلى أحد الاجتماعات سيتو، وإلى اجتماع آخر حضر أوبينيا، مع قتلته المأجورين. لقد تأكدوا من أننا نراهم رأيناهم، ثم غادروا».

على الفور، وبالإضافة إلى الاجتماعات، قامت مظاهرات واحتجاجات. بدأ القتال، بعيدا عن الترهيب، بدأت الأمهات يسرن ويغنين لفيلاغارسيا ولكامبادوس. كن يصرخن: «نعم للتبغ، لا للمخدرات»، «القتلة إلى السجن»، «لسن مجنونات ولا إرهابيات، بل أمهات». قابل الزعماء تحرك الأمهات بحملة من المضايقات وتشويه السمعة. بدأت الأمهات ينفذن حملات تشهير عندما لم يكن أحد يجرؤ على النطق في إسبانيا. واحد من الأولين الذين عانوا من ذلك كان لويس فالكون، فالكونيتي. نُقل الزعيم إلى سجن باردا القديم، في بونتيفيدرا، وهو محكوم عليه بـ 12 سنة سجن بسبب تهريب الحشيش في نهاية الثمانينات. كانت الأمهات هناك ينتظرنه بين الصرخات والإهانات والتدافعات... تم نقل فالكونيتي في نهاية الأمر إلى سجن آخر. في كل مرة يحاكم فيها تاجر مخدرات أو يتم إيقافه، كان المكان يغص بهجوم كاسح من الأمهات. شجاعة لم يسبق لنا أن رأيناها، ربما وُلِدَت من المعاناة الأمومية، جعلتهن وجها لوجه مع أكثر منظمات الاتجار بالمخدرات قوة في أوروبا. كان الزئير عاليا، لقد أيقظن غاليسيا، وأنهضن غاليسيا.

من الممكن أن يكون ما حافظ على مسافة بين تجار المخدرات وأولئك الأمهات هو الضجة التي قمن بها، عدا عن كونهن نساء. ضجة جعلت منهن على الفور نقطة جذب للاتصالات السياسية رفيعة المستوى ولرد الفعل الإعلامي الملائم. تحولت «أمهات ضد المخدرات» بعد وقت قصير إلى مؤسسة في المنطقة الساحلية، أما تجار المخدرات، فبالرغم من أنهم ازدروا الأمر، لكنهم فضلوا الانخراط في الشغب. ولّدت تلك الاتصالات - وما زالت حتى اليوم - القليل من قلة الثقة بين بعض الصحفيين والسلطات، الذين أظهروا انتقادهم لدور كارمين. يؤكد صحفي: «لديها بطاقة عضوية في حزب (كانت كارمين تنتمي لصفوف لحزب العمال الاشتراكي الإسباني). وكان الحزب مهتما بأن تقوم كارمين بتلك الضجة، بأن يقوم أحدهم بتنظيم هذه الفوضى لكي يخرج تهريب المخدرات إلى الأوساط وأن يصبح واضحا وجود مشكلة لا تعرف الحكومة المحلية طريقة لحلها. كانت تقاتل، لكنهم سيّسوها». وافقت كارمن: «أنا أعلم أن هناك أناسا ينتقدونني، وأنا أحترم ذلك، لكني أقوم بذلك لأنني كنت دائما مناضلة اجتماعية. ولم يعنِ لي كون ذلك الأمر يعود بالربح على اليمين أو اليسار طالما أني أجد نفسي محاطة بأناس مخلصين وذوي ضمير. كنت منسجمة أنا وفارغا على نحو رائع. كنا نحترم بعضنا جدا. كنت أقدره جدا. كان يتصل بي ويقول: سيدة كارمين، أين يجب أن نضغط الآن؟ ما الذي يجب أن نفعله؟».

في العام 1988، جرى أول اجتماع بين أفيندانيو وفراغا الذي كان وقتها في صفوف المعارضة، وكان من المتوقع أن يصبح رئيس الحكومة المحلية القادم. «دونت 13 نقطة مهمة للتطوير، والتي كانت تشرح ما الذي كان يحصل في منطقة المصب. قلت له: سوف أقرأها لك واحدة واحدة. وقال لي: لا، لا، أذكريها كلها دفعة واحدة. وبدأت أقرأ، كان يجلس ويده على جبينه ورأسه يميل نحو الأسفل. لم يكن يتحرك. وعندما انتهيت، رفع رأسه ورأيت أنه كان يبكي. وقال: هل حقا

يحصل كل ذلك؟». تؤكد كارمين أن السياسيين لم يكن لديهم يقين بما يحصل، ولا المعلومات الضرورية عما كان يحصل. كان الوضع قابلا للأخذ والرد بوضوح. لقد سبق لنا ورأينا الاتصالات التي كانت بين السياسة والتهريب، على وجه الخصوص، العلاقات بين فراغا نفسه وبين زعيم زعماء التبغ فيسنته أوتيرو «تيريتو»، الصديق الشخصي والمناصر للحزب الشعبي. من الصعب التصديق أن أعضاء الحكومة في غاليسيا كانوا يتجاهلون التحول الجاري. كما لو أنهم كانوا يستخفون بما يحصل. كما لو أن سلطة العصابات كانت كبيرة لدرجة أنهم يفضلون أن لا يتدخلوا في الأعمال التي ضخت كثيرا من الأموال في تلك السنوات إلى الكثير من الناس. وفي هذا السياق يقول قاضٍ غاليسي: «لم يكن هناك من حزب واحد في غاليسيا لم يموله تجار المخدرات. ولا أي حزب». قال ذلك بكل صراحة وبدون أي شك.

تقول كارمين: «هذا صحيح، لكني مقتنعة أن الأمر كان في المستويات الدنيا. إن المسؤولين الكبار لم يكونوا على علم بخطورة القضية. واحد من الذين قاتلوا بشراسة ضد الاتجار بالمخدرات كان ماريانو راخوي، عندما كان في الحكومة. كان يعارض دخول بارال وفيوكه وتيريتو والآخرين إلى الحزب. وقد كلفته تلك المعارضة أن يخسر منصبه. وعندما كان وزيرا للداخلية، أوقفوا سيتو مينيانكو، حينها التقيت به، وسمعته يقول: «إن اليوم الذي قام به موظفيّ (هكذا كان يسمّي السياسيين) بإيقاف سيتو كان اليوم الأسعد في حياتي». وقامت كارمين بطرح مثال آخر: «عندما كان فراغا رئيسا للحكومة المحلية أعطانا الكثير. لقد قالوا لي إنه اجتمع مع روماي بيكاريا عندما كان وزيرا للصحة وقال له: «اعطِ كل ما تستطيع إلى تلك المؤسسة». وأجاب بيكاريا: «أيها الرئيس، لا أعلم إذا كنت على علم أن تلك السيدة من اليسار...» قالوا لي إن فراغا أجاب صارخا: «نعم أعلم أنها من اليسار! وأتمنى لو كان لدينا الكثير من أمثالها في الحزب!». تبتسم كارمين. يقول ضابط في الشرطة ناقدا: «كانت أفيندانيو تحب الشهرة والظهور على التلفاز. لقد جعلت من نفسها شخصية مشهورة وأنقذت أولادها بسبب ذلك، حيث كانوا متورطين حتى شحمات آذانهم. أنا لا أقول أنهنّ لم يكن جديرات، بل كثيرون يشيرون إلى ذلك. يبدو الأمر أحيانا أنهنّ يقمن بالبحث عن أدلة تدين الاتجار بالمخدرات». إن هذا الموضوع، موضوع أبنائها وخلفيتها، موضوع لا يروق لكارمين التطرق إليه. نظرت إلى مسجّل الصوت، فكرت وأخذت نفسا: «حسنا، انظر، لم يعد يهمني الأمر الآن». وحكت أنه حكم على ابنها آبيل في العام 1991 بالسجن لسنتين بسبب جريمة ارتكبها أثناء تعرضه لأعراض الاختفاء والفرار من وجه العدالة. هرب الشاب إلى البرتغال، وطلب مساعدة أمه، التي تواصلت مع محامٍ وطلبت منه صراحة أن يؤمن جواز سفر لابنها. نجح في القيام بذلك. دفعت له 150 ألف بيزيتا (900 يورو). تابعت القيام بما يلزم، ثم تحدثت مع لويس فيليبه، ممثل حكومة كوبا في إسبانيا، وتمكنت من الحصول على فرصة عمل في لا هابانا لأجل آبيل. طار الشاب إلى هناك وبدأ العمل، ورافقته حبيبته. وكانت هي من اتصلت بكارمين بعد خمسة شهور لكي تخبرها أن الإنتربول أوقف آبيل. «كان تشارلين من قام بذلك. عرفت ذلك لاحقا. قام بإعطاء معلومات للشرطة البرتغالية. كان عليّ الطيران إلى لا هابانا، وفي نهاية الأمر، تمكنا من ترحيله. في ذلك اليوم أقسمت أني سأرد لتشارلين الصاع صاعين». ثم تنفست كارمين: «أنا أعلم أن هنالك أناسا لا يحبوننا. لكني أعتقد أن الأغلبية تفهم ما الذي نفعله».

بعد غاليسيا، بدأن بالاتصال ببعض الأشخاص في مدريد. في العام 1989 قامت الأمهات

بالاجتماع مع فيليبه غونساليس في قصر المونكلوا. في السنة التالية قمن بالاجتماع مع رئيس المعارضة، خوسه ماريا أسنار. «قلنا لفيليبه غونساليس أنه من الأساسي زيادة التبرعات».

«لقد فوجئ جدا بكمية المعلومات التي نملكها». بالإضافة إلى السياسيين، زرن قضاة وحقوقيين، من بينهم كان بالتاسار غارسون وخافيير ساراغوسا. ركزت أفيندانيو وبقية الأمهات حيث لم يسبق لأحد أن فعل ذلك. كان على الأجندة السياسية أن تفسح المجال لما كان يحصل في غاليسيا، وبدأت أوساط الاتصالات بتخصيص صفحات الصحف الرئيسية ومقدمات الأخبار لهنّ. «أعتقد صراحة أن الشرطة والقضاء لن يقدروا على القيام بشيء وحدهم من دون المجتمع المدني. سيصبح الأمر مثل صقلية. كان من الأساسي أن يقوم المجتمع برد فعل رافض للواقع. وهذا ما فعلناه».

بالنسبة إلى كثيرين كان هذا الشغب والصراخ والنحيب والتحدي وحتى الهجومات على القصور صفعة وفضيحة لسياسة مخدَّرة وممتثلة تعيش بين التجاهل والتواطؤ بشأن الاتجار بالمخدرات. بعد سنتين فقط من الاجتماعات والتظاهرات الأولى التي قامت بها الأمهات، شرع القاضي غارسون ينفذ عملية نيكورا، لقد كان أول تحرك كبير تقوم به الدولة ضد العصابات في غاليسيا. «حتى تلك اللحظة، كان الزعماء يضحكون منا. كانوا يدعوننا بالمجنونات والعاهرات. لم يكونوا يأخذوننا على محمل الجد». خلال المحاكمة في عملية نيكورا التي جرت في لا كاسا دي كامبو في مدريد، كانت الأمهات في الصف الأول. استُدعيت كارمين لتشهد ضد لاوريانو أوبينيا. عندما كان عليها الإدلاء بشهادتها، دخلت القاعة، جلست، وعندما رفعت رأسها، تقاطع نظرها مع نظر مانويل تشارلين. حدّق «الكبير» إليها، ثم رفع أصبعه ووضعه أمام حنجرته كما لو أنه يشير إلى قطع رقبته.

«لقد تم تبرئة الجميع تقريبا، لكن عملية نيكورا كانت قد كشفت الغطاء عنهم. لم يعودوا يؤمنون بأن ما من أحد يستطيع المساس بهم. أما نحن فارتفعت معنوياتنا جدا». بالرغم من أنهنّ كنّ غاضبات بسبب التبرئة، لكنهن أدركن أن الوضع تغير. أصبح الزعماء الآن على مرأى الجميع، إذا ما لمسوا واحدة من أولئك الأمهات فسيكلفهم الأمر كثيرا. وكانوا يعلمون ذلك. لم يعد أمامهم سوى الإنحناء أمام العاصفة. لقد تضاعفت الفضائح.

كانت كارمين تعمل متطوعة في سجن باردا. في يوم من الأيام، التقت داخل السجن مانويل تشارلين، الذي حُكم عليه بعد عملية نيكورا. «كان اللعين يمشي بجلبة كبيرة، لم يكن مسنا، لكنه كان يدّعي ذلك. أثناء المحاكمات نظرت إليه وقلت له: «أيها المقرف، اللعنة عليك». أما هو فتابع المشي بدون أن يتفوه بأي كلمة». وفي مناسبة أخرى، التقت كارمين بإستير لاغو، زوجة لاوريانو أوبينيا، في مطار فيغو. «كانت ترتدي فستانا من جلد الفهد وتنتعل حذاء من جلد الفهد أيضا. كانت تبدو كعارضة أزياء. كانت تنتظر أحدا ما، اقتربت منها وقلت لها: «ابنة العاهرة! يا قاتلة! من أين لك المال لكي ترتدي ملابس كهذه؟» لم تتفوه بشيء. في ذلك اليوم لو ردت عليّ، كنت لأضربها على وجهها، أقسم لك، كنت لأضربتها في ذلك اليوم».

«لقد لاحظوا أن عقلية المجتمع قد تغيرت، ولاحظوا أنهم لم يعودوا محبوبين. لقد عريناهم. كانوا يعرفون أن لدينا قوة. عندما وصلوا إلى المحاكم، لم يعودوا مهتمين بالصحفيين ولا بالقضاة. بل

كانوا يقولون: إن مجنونات «انهض» هنا!». تتذكر كارمين اليوم الذي كان على الكبير تشارلين أن يصعد به على درج السجن على أطرافه الأربعة. «كان هناك الكثير من الناس ينتظرون في لاما، في بونتيفيدرا. ذهبنا إلى هناك، كنا على علم بأنهم سوف يحضرونه (منقولا من كارابانتشيل)، وبما أن لدينا اتصالات جيدة، أعلمونا في الوقت الذي كانوا في بونتيفيدرا. عدنا بأقصى سرعة وجمعنا حشدا. أحطنا بالسيارة وقمنا بهزّها. كان الوضع خارج السيطرة. طوقت الشرطة المكان، وخرج تشارلين من السيارة مسحوبا وصعد على الدرج على أطرافه الأربعة، كالزواحف». وتعيد مرة ثانية: «كالزواحف».

تقول كارمين: «لن أرضى حتى أراهم جميعا يُساقون إلى السجن، واحدا تلو الآخر، ربما أن تجعلهم يخافون ويعانون فهذا ربما يجدي نفعا». لا تزال «انهض» فعالة حتى اليوم، ومركزها في نفس الحي، حي لافادوريس، حيث بدأ كل شيء. ومن أولئك الأمهات اللواتي جعلن المستحيل ممكنا واللواتي لا يزلن على قيد الحياة كارمين ودورا، بالرغم من أن الأخيرة لم تعد تنتمي إلى المؤسسة. إلا أنهما لا تزالان تقدمان الدعم والخدمات للمدمنين وللسكان المحليين الذين هم في حالة تهميش في المدينة.

في تقرير بُثَّ في تلفزيون غاليسيا في نهايات الثمانينات، قام مراسل بمقابلة واحدة من الأمهات في فيلاغارسيا وهي تقف خلف نافذتها. ابنها مدمن. بدت الأم كسيرة. إنها صورة كل ذلك الجيل من الأمهات في غاليسيا الذي لم يرَ فقط أبناؤه يسقطون، بل عاصر تجار المخدرات.

«وماذا نفعل نحن الأمهات ونحن نقف لا حول لنا ولا قوة، نشاهد كيف تُباع المخدرات وكيف يُباع كل شيء؟ إن أما مثلي فقط تعلم ماذا يعني أن يكون هناك مشكلة مخدرات في المنزل. حيث يأخذون أولادنا، ويجعلوننا نحن الأمهات ندفع ثمن مصائبنا، ندفع ثمنها أولادنا أنفسهم».

عملية نيكورا

«القبض عليهم في ملابس النوم».

الأحاجي

«لم ننم في ذلك اليوم. كنا في فندق كومبوستيلا في ساحة غاليسيا، في سانتياغو. في تمام الساعة الرابعة صباحا، استحممت وارتديت ملابسي وذهبنا إلى مركز الشرطة الوطنية. قمت بأخذ صورة: مئات من الشرطة في كل مكان، بعضهم باللباس الموحد، والبعض الآخر بلباس مدني. كان المكان ممتلئا جدا: الغرف والممرات والقاعات... الجميع واقفون على أقدامهم، ينتظرون في صمت، واحدا مقابل الآخر. وصلنا وظلوا ينظرون إلينا. انقطع الهواء في تلك اللحظة، انتظر الجميع ما سنقوله. قام غارسون بنكزي، ونظر إليّ وقال: «قل ما خططنا له»».

كان ذلك في الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام 1990، حين بدأت عملية نيكورا.

***

في صباح أحد الأيام في كانون الثاني/يناير من عام 1988، قام الحاكم المدني لبونتيفيدرا، خورخه بارادا ميخوتو، بالقدوم إلى مدريد مع تقرير. دخل مسرعا هاربا من غضب الحركات الاجتماعية مثل «انهض» وبقية المؤسسات إلى مكتب وزير الدولة لشؤون الأمن، رافايل فيرا، وشرح له ما شرحته قبل شهور كارمين أفيندانيو لفيليبه غونساليس، وما كانت تحذر منه الـ DEA والإنتربول، وما كان يعرفه مسبقا السياسيون في غاليسيا: الكوكايين الكولومبي يُضَخ إلى غاليسيا، وعشرات العصابات ذات النفوذ الكبير تنظم عمليات الإنزال، والبنية التحتية والاتصالات هي ذاتها بنية تهريب التبغ الفالت من العقاب.

بعد يوم من ذلك، حضرت فيرا إلى اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات. حضر إلى المكان بعض الكسالى من الشرطة والحرس الوطني ووفد حكومي ووفد من الجمارك ووزارة العدل. وقاموا ببناء قاعدة تحقيق واسع المجال والذي دُعي: عملية بونتيفيدرا، الأمر الذي كان ينفذ سابقا بشكل مقسم إلى عدة عمليات. والواحدة من هذه العمليات تدعى بالمناسبة عملية ديبينده (= هذا يعتمد). يقول شرطي قديم في الحرس الوطني في مدريد أن الاسم ولد مما هو واضح: في كل مرة يطلقون فيها تحقيقا في غاليسيا ويسألون واحدا من السكان، يأتي الجواب غامضا وليس من جواب نهائي قاطع. مئات من (هذا يعتمد) فيما بعد، جعلت الموضوع واضحا لإطلاق هذا الاسم على العملية.

أدت تلك الحركات الأولى إلى بعض التوقيفات في بدايات عام 1989، مثل توقيف لاوريانو أوبينيا أو مانوليتو تشارلين. لكن وزارة العدل لم يكن لديها أي إثبات إدانة يجعلها تحتفظ بالزعماء. على سبيل المثال، سُجن أوبينيا في سجن باردا بسبب توجيه ركلة لأحد أعضاء الشرطة أثناء مهمة

تفتيش. بعد أسابيع قليلة خرج إلى الشارع وعاد إلى العمل. في تلك السنة، وفي مرحلة سجنه القليلة، تمكن مانوليتو تشارلين من تنسيق عملية إنزال 4 آلاف كيلو من الحشيش في بايونا.

استمرت التسريبات. كان أي شيء يُخطط له في مدريد لا يصل إلى غاليسيا إلا متأخرا أياما. فالدولة لا تصل إلا متأخرة. لأجل تحطيم هذه الديناميكية كان من الضروري التخطيط لضربة كبيرة ومنظمة لم يسبق لأحد أن رأى مثلها من قبل. وكان هذا ممكنا فقط بفضل شهادات التائبين: ريكاردو بروتاباليس ومانويل فيرنانديس بادين.

***

كان بروتاباليس يعمل مع خوسه باس كاربايّو، وهو رجل ذو سلطة من الخط الثاني من روبيانس (أبرشية في فيلاغارسيا) الذي بدأ كتاجر ماشية وانتهى به الأمر مع الكوكايين وعمل بين الاثنين بالحشيش. في العام 1988 هرّب 80 طنا من القنب عبر أروسا، وبعد سنة من ذلك حصل على ثروته من خلال مئة كيلو من الكوكايين باعها في مارين. تحول بروتاباليس - بحسب شهادته هو - إلى اليد اليمنى لخوسيه، تحول نوعا ما إلى متدرب سيثق به فيما بعد.

في ذكرياته التي جمّعها ابنه في كتابه «مذكرات أبي» يتذكر التائب أول يوم أخذه فيه باس كاربايّو ليشهد عملية عد أموال بعد عملية إنزال. ذهبا في السيارة إلى جبل قريب من منطقة المصب، حيث دخلا حظيرة تقودهما امرأة كانت تقوم بمراقبة المكان. كان هناك قش على الأرض، أزاحوا القش وضربت المرأة بقدمها على الأرض مرتين. كُشف باب مخفي يقود إلى سرداب. كان هناك في الأسفل ألبينو باس ديس، ابن عم باس كاربايّو، ورجلان آخران من العصابة يعدون الأموال مثل موظفي بنك على عجلة من أمرهم. يقول بروتاباليس: «بقيت منبهرا بكمية المال الهائلة وبأنواعه المختلفة. كان هناك الدولار والبيزيتا والمارك والفرنك والليرـ... كلها موضوعة في علب كرتونية وفي أكياس. كانوا يعدون المال فوق طاولة، وكانت الطاولة مليئة بالرزم». لاحظ بروتاباليس أن واحدا من الرجلين كان «مانولو الكتلاني»، من عصابة سيتو، أما الآخر فكان مدير هيئة بنكية في أروسا. كان يقف في الخارج شاب متخفٍ يراقب وكان يحمل جهازا لاسلكيا في يد وفي اليد الأخرى بندقية صيد. شرع باس كاربايّو وبروتاباليس يعدان الأموال مع الباقين، ظلوا 46 ساعة، وقاطعوا عملهم فقط لمدة قصيرة للخروج للأكل، وساعدتهم خطوط الكوكايين على البقاء مستيقظين. كان عليهم إعادة العد ثلاث أو أربع مرات، وكانت نسبة الخطأ تتراوح في كل مرة بين 10 أو 15 مليون. وعندما انتهوا من العد، كان على الطاولة مليار و800 مليون بيزيتا (10 ملايين يورو).

تحول بروتاباليس خلال أشهر قليلة - بحسب شهادته هو مرة أخرى - إلى عضو مهم في العصابة. في إحدى المناسبات سافر إلى كولومبيا في مهمة حساسة للالتقاء بأعضاء من عصابة كالي، وذلك للاعتراض على نقص جودة آخر إرساليات الكوكايين. انطلق من بوغوتا إلى البراري: قطع 200 كيلومتر في شاحنة، بعد ذلك تابع رحلته على ظهر بغل، وبعد قضاء ليلة في الحرارة والرطوبة، أكمل الرحلة في طائرة مروحية. وصل في النهاية إلى غابة كثيفة حيث استقبله السيد غاتشا، رأس العصابة. شرح له ألفونسو المشكلة. فرد عليه غاتشا: «إن البضاعة التي أحضرها جيدة لدرجة أني

مستعد للقتال من أجلها... وأيضا تقول لي إذا كنتَ لا تكسب مني فما عليك إلا أن تطردني. حسنا، أما أنا فأقول لك شيئا لا تعرفه أنت: ليس مسموحا لك أن تتخلى عني، وليس مسموحا لي بأن أطردك. وأنا على علم أنك لا تخدعني. أليس هذا صحيحا يا ألفونسو؟ [...] انظر يا ألفونسو، أنا أعلم أن هنالك منافسين يحاولون أخذ زبائني مني، وأعلم أنهم كانوا يعرضون عليك مواد من مواقع أخرى ليست في كولومبيا، بل في البيرو وبوليفيا. كما أن البضاعة المعروضة أرخص منها وعمولتك في عملية النقل أعلى. لكن اعلم أن أولئك الملاعين لن يُسمح لهم بوضع أنفسهم في سوق الآخرين. [...] غدا أيها الأصدقاء الأحباء، ستشاهدون عرضا صغيرا مخصصا لكل الناس الذين يعملون معي».

حصل المشهد في أحد المختبرات، في منطقة أخرى من البرية، حيث أنتج نوع آخر من مادة الكوكا الأولية. «أيها الأصدقاء، الآن سوف تعرفون ما الذي أهديه لأولئك الذين لا يفهمون أن هذا العمل هو عمل عائلي وليس مرتعا للتعاون بين الأعداء الذين يريدون تحطيمنا». إلى جانب النهر، فوق شجرة، شوهد عميل مشتبه به مربوط من قدميه ورجليه على شكل X. كان محطما جراء الضربات. «هذا ما يحصل للذين يتلاعبون بحياة زملائهم. هذا البائس كان على وشك فضحنا جميعا، لأن الغرينغوس[32] من الـ DEA وعدوه بأشياء كثيرة، وهنا يعرف الجميع هذا... إن الذي يظن أنه يستطيع بيعنا والهرب، أقسم بكل أمواتي أننا سنتمكن منه عاجلا أم آجلا، ولن يكون هناك أي مكان يمكنه الاختفاء فيه». قاموا بربط ذلك الرجل وهو مستلقٍ على بطنه فوق بابٍ من خشب الخيزران فيه ثقب في وسطه، حيث قاموا بإدخال قضيبه بعد جرحه جرحا صغيرا. ثم وضعوا الباب في النهر ليطفو. وقامت أسماك البيرانيا بباقي العمل.

إن الشاب، كما يتذكر بورتاباليس، تضرع لكي يقتلوه. بعد ذلك عادوا إلى المنزل وتودّعوا. إن هذا المشهد رسّخ وجهة النظر عما كان عليه شركاء العصابات الغاليسية. ذات مرة أوقفوا بورتاباليس في واحدة من العمليات الأولى التي قام بها رافايل فيرا. في الرابع من شباط/فبراير من عام 1989، أوقفته الشرطة في مارين بينما كان يقود سيارته. كان هناك في السيارة 38 غراما من الكوكايين، 230 غراما من الحشيش، 64 ألف بيزيتا ومسدس تاوروس عيار 38.

اقتيد إلى سجن باردا، حيث قرر التعاون مع السلطات بعد 6 أشهر من السجن. كان يصر دوما أنه فعل ذلك بدافع من ضميره، بعد أن رأى رفاقه السجناء مكبلين، يشدون شعرهم ويلعقون كلس الجدران. بدون الأخذ بعين الاعتبار للشعور بالذنب الذي يؤكد أنه شعر به. في الحقيقة كانوا يتلاعبون بشعور بورتاباليس بالذنب خلال وجوده داخل السجن. فقد كان شريكه ومعلمه، باس كاربايّو، يدين له بسبعة ملايين بيزيتا (42 ألف يورو)، وطالبه بها بورتاباليس من داخل الزنزانة. لكن كاربايّو أعطاه فقط 800 ألف بيزيتا (أقل من 6 آلاف يورو) وقال له إن الباقي قد ضاع. لا شيء يشبه كسر الخواطر ماليا لإطلاق عنان اللسان: في الثاني والعشرين من آب/أغسطس من عام 1989 اتصل بالطبيب الشرعي رقم 3 في بونتيفيدرا، لوسيانو فاريلا، وباح له بكل ما يعرفه. وصل تقرير الاعتراف إلى قوى الجمارك الوطنية، حيث سقط هذا التقرير في يد قاضٍ شاب انطلق إلى النجومية قبل أشهر بفضل تحقيق حول منظمة GAL[33]. كان يدعى بالتاسار غارسون.

بعد سنوات، سيؤكد بورتاباليس أن السلطات ألزمته بالتعاون بعد أن عرضت عليه شروطا لم

تلتزم بها لاحقا، كما أنه تعرض للتهديد بعقوبة سجن طويلة إذا هو رفض التعاون. إن شكاويه على كل هذا تتضاعف حتى يومنا هذا، مع مقابلات مستمرة، شكاوى على صفحته الخاصة للنشر، وحتى على صفحة فيسبوك التي يديرها ابنه. من الصعب معرفة نشرة التعليمات الخاصة بتلك الاتفاقيات. لكن الأكيد أن بورتاباليس أدلى بهذه التصريحات بعد أن سحبت الدولة حمايتها عنه، في العام 2011، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يعد تحت التهديد. أما هو - من باب الحيطة - فيعيش في البرتغال ويتجنب أي ظهور عام. بمرور الوقت أصبحت صدقيته شهادته بالية، بل صارت ورقة باهتة ولكنها يمكن أن تسمح له بأن يطلق صوته بين وقت وآخر. حتى أن هناك بعض من يؤكد أنه لفق كل شيء تقريبا، أي أن كل شيء كان عبارة عن كذبة ملفقة. لكن في ذلك الحين تأكد غارسون وخافيير ساراغوسا أن ما قاله تاجر المخدرات التائب كان يتقاطع مع التحقيقات.

لم يرق تعاونه كثيرا لبقية الزعماء الذي كانوا يشاركونه مدة احتجازه. دعونا نتذكر؛ من بين الكثيرين كان هناك أوبينيا ومانوليتو تشارلين. في صباح أحد الأيام، بينما كان بورتاباليس في المستوصف، سَمِعَ الباب يُغلق. عندما أراد أن يرى من دخل الغرفة، غطت منشفة رأسه وبدأوا ينهالون عليه بالضرب. ضربوه حتى ملّوا. سببوا له أذية في فقرتين والأنف الذي أصبح لونه أحمر. قبل أن يغادروا، هددوه بالموت. وهو منكمش على نفسه على الأرض تعرف إلى صوت مانوليتو تشارلين ورأى الحذاءين الأبيضين بالأشرطة السوداء الخاصة بلاوريانو أوبينيا. يروي غارسون في كتابه «بيلار أوربانو، الرجل الذي رأى الفجر»: «كتب لي مذعورا. أنا أشك في كل الناس. لقد أفزعتني هشاشة تحقيق مبني على شهادة متورط، يحاول أن يقنع الآخرين بأنه تاب. لذا، بالنظر إلى أن بورتاباليس كان يسرب معلومات، فإن الشرطة رأتها معلومات دقيقة: منزل، سرداب، حفرة، كوخ تُخفى فيه الوثائق، أسلحة، مال وأكياس كوكايين، مصيدة بلح بحر، قارب يقوم بمناورات خارجية، ملهى ليلي... إن الأمر مقنع». حقق القاضي لثمانية أشهر مع بورتاباليس. إن الشهادة التي كانت في البداية غير متماسكة، أصبحت تتخذ شكلا الآن. وثبتت عندما دخل إلى المشهد التائب الثاني، مانويل فيرنانديس بادين.

***

يعيش بادين اليوم في ضواحي مدريد، بشكل خفي لكنه ظاهر. «إني أخاف، نعم. لطالما كنت أخاف». يقول ذلك وهو جالس في تيراس إحدى الكافتيريات، الظهر مشدود، والنظر مثبَّت، والجسم ينحني إلى الأمام. لقد سحبت الدولة حمايتها عنه منذ سنوات. «لا أعلم إذا ما زالوا هم (آل تشارلين) يخططون للقيام بشيء. إن من يدير الأمر الآن هو الكبير، لكن عندما يقوم الأحفاد وأولاد الأخوة بإدارة زمام الأمور كلها، فمن الممكن أن يعودوا من أجلي. إن هؤلاء لا ينسون». كان بادين يعيش مدة 2 ساعة كاملة برفقة ثلاثة عناصر شرطة وطنية. «عندما كنت أذهب إلى غاليسيا كان الرقم يتضاعف. لم يكونوا يسمحون لي بالمغادرة مساء».

«في واحدة من زياراتي الأولى تلك، نهضت صباحا لأرى سيارتي محروقة، والكتابات لا تزال على جدران منزل والدي. أما الآن فأنا استمر بالذهاب، لكني أمضي وقتا سيئا. كما أني لم أعد أثق بأحد». عمل مانويل لأجل عصابة آل تشارلين وشارك في عمليتي إنزال على الأقل. كما يتذكر

القارئ: إنه ذلك الشاب الذي قام بعملية الإنزال الأولى له وابتعد منهكا واستلقى بين الأعشاب. إن فرط الجرعات المسائية في بورتونوفو جعلته يدفع الثمن على شكل ذهان وهوس اكتئابي. وبعد أن سئم، قرر أن يروي ما كان يعرفه، لكنه لم يدل بذلك في المحاكم أو للقضاة، بل فضل أن يأخذ طريقا أكثر خطورة. «ذهبت إلى برنامج «الحدس» في التلفزيون الغاليسي. حضرنا مقابلة كان عليّ أن أظهر فيها مظللا وبصوت مُعدَّل. في اليوم الذي كانوا يبثون فيه تلك المقابلة، ذهبت لأرى الحلقة في بار أركو دي فييّا، في فيلانوفا. قبل البدء وصل أحد أحفاد تشارلين، وجلس بالقرب مني لمشاهدة البرنامج. وعندما بدأ البرنامج، ضحك وقال لي: «هذا أنت». قلت له لا. «انظر إلى ضفائر شعرك في الخلفية، انظر إلى القدمين، أصغِ إلى طريقة الكلام، هذا أنت». فقلت في نفسي: «اللعنة! لقد كُشف أمري».

قررت عصابة آل تشارلين أن تلقنه درسا ويكون في الوقت ذاته فخا. بعد أيام من بثّ البرنامج، طلبوا من بادين أن يأخذ عبوة كوكايين تزن 4 كيلو إلى بونتيفيدرا مخفية في محرك سيارته. في منتصف الطريق، أوقفته سيارة شرطة. يقول بادين: «أتذكر البرنامج اللعين، لقد كان مزعجا حقا». إن ذلك الشرطي المرسل من قبل «الكبير» لم يجد شيئا لأن بادين كان قد أخفى البضاعة على نحو فائق الجودة. تابع القيادة حتى مركز تجاري في بونتيفيدرا حيث كان من المفترض به أن يقوم بتسليم البضاعة. لكن لم يكن هناك أحد. أطلق مانويل العنان لغضبه، وقد استفزه وجود عنصر من الأمن الذي لم يبعد ناظريه عنه. «كنت أتعرق، بحيث قررت أن أترك العبوة بين منصات البضائع. وبعد أن تركتها، قام العنصر توا باحثا عنها، ووجدها وأعلَمَ الحرس الوطني. لقد كنت أعرف ذلك الشاب. كان بوابا يعمل في ديسكوتيك «الفضاء الأزرق» مع صهري في بارانتيس. لاحقا قال لي إنه ظن العبوة قنبلة». انضم بادين إلى الزنازين القضائية في بونتيفيدرا. قاموا هناك بالتحقيق معه «عشر مرات في اليوم، ولم أقل سوى الأكاذيب. بعد عدة أيام قدموا لي عرضا: إذا تعاونت، فسيقللون مدة سجني، ويحمون عائلتي، وسوف أعمل في الخارج». ظهرت أسنان بادين فرحا، لكنه رفض العرض. «كنت أعلم أنهم لن يستطيعوا أن يحققوا ذلك». أرسلوه إلى سجن فايّادوليد، حيث بقي ثلاثة أشهر، ومن هناك نقلوه إلى كارابانتشيل، حيث طلب الحماية بسبب وجود الكثير من عصابة آل تشارلين. المدة التي أمضاها في مدريد جعلته يغير مظهره. وعندما زاره غارسون يرافقه ريكاردو بورتاباليس تغير أكثر وأكثر. «اعترفت بكل شيء بدون محامٍ. قلت كل ما أعرفه. كنت منهكا، لم أستطع تحمّل المزيد».

أصبح المخطط ملائما. تحقق غارسون من تعاون بادين قبل أن يتكلم بورتاباليس.

***

في أيار/مايو من عام 1990، اجتمع القاضي غارسون على مائدة طعام مع المدعي العام خافيير ساراغوسا ومع عدد من قادة سياسيين، لم يكن أي منهم من غاليسيا. وضعوا فوق المائدة خطة ضخمة تطلبت واحدة من أكبر الترتيبات السياسية في تاريخ الديموقراطية، عملية مداهمة متزامنة ضد أكثر من خمسين متهما. كانت الخلية الأولى لعملية نيكورا، التي كانت تدعى في البداية باسم عملية ماغو (=المشعوذ). مرت شهور من التحقيقات، ومن المعطيات، ومن اعترافات الموثوقين، ومن التنصت.

لم تتقدم الأمور إلا قليلا. عندما كان كل شيء جاهزا، قام خورخه أرغوتة بزيارة بادين على غير توقع، وهو محامٍ من وزارة الداخلية في قضية الـ GAL، وهي الأحجية الأخرى التي كان يحقق فيها غارسون في ذلك الزمن[34]. وبحسب رواية بادين، قام أرغوته بزيارته في السجن. «لم أكن أتوقع ذلك. ولم أكن أعرف ذلك أيضا. جلسنا وقدّم لي شيكا على بياض. هكذا مرره لي، وقال: هل أنت مستعد للتعاون؟ ما عليك فقط سوى أن تقول الحقيقة». كل ما كان يريده أرغوته هو أن يقول بادين أن كل ما تم الاعتراف به كان خاطئا. لقد قصد بذلك تدمير التحقيق والإضرار بغارسون، على نحو أن قضية GAL ستُبطّأ أيضا. «قال لي: دوّن المبلغ أخذت الشيك وكتبت 20 مليار بيزيتا (120 مليون يورو في عام 1989). نظر الشاب إلى الشيك وقال لي: «هل أنت مجنون؟» قلت له: «حسنا إذا، 200 مليون». ووقعنا» كان بادين يحضر لتوه للتبليغ عن غارسون بسبب مخالفات عندما صعدت محاكمة أميندو ودومينغيس إلى المسرح. «لم أعد مفيدا لهما، حيث إنني خسرت فرصة إنقاذ حياتهما». بعد أسابيع، تحدث بادين عن كل هذا لغارسون نفسه. بعيدا من الغضب، أتى جواب القاضي بين الحنكة والإحباط. قال له: «نعم أعلم. هناك كثير من الحيل المشابهة. لا تقلق».

الغارة الكبرى

يروي المسؤول العدلي خافيير ساراغوسا، وهو جالس على أريكته في مكتبه في قوى الجمارك الوطنية، وقدماه متشابكتان وإحدى ذراعيه تمتد على المسند، أنه حتى عناصر الشرطة الذين صعدوا إلى ناقلات الجند تلك الليلة لم يكونوا يعرفون الوجهة التي يقادون إليها. ظن السائقون أنهم ذاهبون إلى الأندلس للمشاركة في عملية ضد تهريب الحشيش في المضيق. عثر كل واحد منهم على ظرف قرب المقود. وفقط عندما فتحوه علموا أن الوجهة كانت غاليسيا. هكذا كانت السرية التي تُمارس في عملية نيكورا. ورغم ذلك، كان هناك من تمكن من الهرب قبل وصول الغارة.

في العام 1988، قامت الحكومة بإصلاح القانون الصبياني ضد تبييض الأموال[35] الذي كان حتى تلك اللحظة فعّالا في إسبانيا. منذ تلك اللحظة، وعبر عمليات إصلاح متوالية[36]، بدأ الزعماء الكبار يتساقطون كما حصل مع آل كابوني نفسه: لقد هُزموا من قبل الخزينة. بعد سنة، في العام 1، أسست الدولة محكمة مكافحة المخدرات في غاليسيا، وتمت الموافقة على قانون صارم يحدد شروط بناء الزوارق والقوارب وامتلاكها. كان هناك رد فعل على الطريق. وكانت عملية نيكورا، التي خطط لها غارسون وساراغوسا خلال شهور على نيران اعترافات بورتاباليس وبادين، بمثابة الذروة. كانت أول حركة جدية قامت بها الدولة ضد تهريب المخدرات في غاليسيا.

يقول خافيير ساراغوسا: «إن أكثر ما فوجئنا به عندما بدأ كل من بورتاباليس وبادين بالتحدث إلينا عن كل شيء كان وجود سلسلة من العصابات ذات التنظيم العالي وذات القدرات الكبيرة والتي كانت تسرح وتمرح بحرية. كنا نجمع المعلومات لمدة شهور. ونقوم بكتابة تقارير. ونحقق. أدركنا الحجم الذي وصلت إليه المشكلة في غاليسيا. كان تهريب المخدرات متجذرا، ويحظى بتقبل اجتماعي. تحدثنا عما أصبح معروفا: كان الوضع في طريق التحول إلى صقلية. لا أعرف إذا كان الأمر كذلك، لكن الدولة لم تصل إلى هناك إلا مرغمة».

عندما أظهرت التحقيقات الصلابة الكافية، أخذ غارسون القرار لتنفيذ غارة ضد العصابات الرئيسية في غاليسيا. إن التاريخ المختار كان الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام 1990. كان الأمر الأول واضحا: ولا كلمة للقادة في غاليسيا. لم يكن هناك أحد خارج مدريد يعرف ما كان يُحضَّر. حتى من بين المعنيين بالعملية، قلة هم الذين كانوا يحيطون بتفاصيلها.

تمثلت الفكرة بتطويق منازل رؤساء العصابات في الوقت نفسه. كان عليهم أن يقوموا بذلك فجرا. يبتسم خافيير ساراغوسا ويقول: «اقبضوا عليهم في ملابس النوم».

يروي ساراغوسا: «ذهبنا بالطائرة بعد ظهيرة اليوم السابق إلى غاليسيا، إلى سانتياغو دي كومبوستيلا، في رحلة طيران عادية». كنت على الطائرة نفسها مع المدعي العام غارسون، ورئيس شرطة الوحدة المركزية لمكافحة المخدرات، ألبيرتو غارسيا باراس، والمفوض العام للشرطة القضائية، بيدرو رودريغيس نيكولاس. تناول الثلاثة العشاء في مطعم فرانكو، المنطقة الرفيعة المستوى في بلدة سانتياغو القديمة. «قررنا أن يكون مقر مفوضية سانتياغو مقرا للعمليات. تناقشنا أثناء العشاء في التفاصيل: الساعات الدقيقة، من وكيف... استمر العشاء حتى الفجر. لم ننم في ذلك اليوم. استحممنا قبل الذهاب إلى المفوضية». هناك وجد ساراغوسا الصورة التي سبق ووصفناها: مئات من رجال الشرطة كتفا إلى كتف، متوترين في وسط غمامة من التبغ. كان عددهم الإجمالي 217 عنصرا، ولم يكن لديهم أدنى فكرة - أغلبيتهم - لماذا كل هذا. «أتى الكثير من العناصر من أجل الدعم، بدون أي معلومة عن سبب وجودهم هناك. يمكنك أن ترى التوتر على وجوههم». شرح لهم غارسون عن العملية، وأعطاهم القادة التفاصيل، ووصلت قافلة الناقلات في الساعة الخامسة صباحا وهي تتوجه إلى فيلاغارسيا. «كنا ذاهبين في رتل من العربات، بدون أصوات ولا إضاءة». تقاطع هذا الرتل مع موكب في الاتجاه المعاكس وهو موكب فيسينته أوتيرو «تيريتو». كان على زعيم التبغ أن يركب طائرة باكرا في سانتياغو. لاحقا اعترف أنه بعد أن رأى المهمة، ظن أنها غارة ضد مزارع المحار غير القانونية. إن المنطق المستبعد لتيريتو لم يمنع حضوره بعد أيام إلى مكتب غارسون لكي يقول له إن أوتيريتو الذي تحدث عنه بورتاباليس لم يكن هو، وأنه هو «تيريتو» بدون «أو» في بداية الكلمة[37]. في نهاية المطاف تمت تبرئة الدون فيسينته.

جعل غارسون وساراغوسا قيادة العمليات في مفوضية فيلاغارسيا. عندما دخلوا إلى المقاطعة، انقسمت قافلة العربات. أيقظ صوت مروحية في سماء أروسا السكان، كانت تُحلق على علو منخفض. كان شيء ما يحصل، شيء مهم.

إن أول من سقط كان لاوريانو أوبينيا، لقد اقتحموا الشاليه خاصته في لاخه فيلاغارسيا عبر تحطيم الباب بمطرقة. كبلوا يديه كما كان ساراغوسا يتمنى: في ملابس النوم (المخططة، على وجه التحديد)، وهو جالس خلف مقود سيارته ذات الدفع الرباعي. وبالمزامنة مع ذلك، في روبيانس، قبضوا على خوسه باس كاربايّو، وفي فيلانوفا سقط مانوليتو وميلتشور تشارلين، ابنا الأب الكبير (تشارلين الكبير)، الذي لم يُقبض عليه إلا بعد أشهر، عندما قبضوا عليه في ناديه الخاص. وبالمناسبة، كان أيضا يرتدي ملابس النوم. بدأوا يفهمون كل شيء في أروسا. خرج بعض السكان إلى الشارع، وفي تلك الساعة خرجت «أمهات ضد المخدرات» تترأسهن كارمين أفيندانيو وترافقهن الصيحات والتصفيق أمام مفوضية فيلاغارسيا. من الجدير ذكره أن بعض السكان الآخرين بقوا في منازلهم صامتين.

ومن إيّا في أروسا قبضوا على مارسيال دورادو، الذي كان عائدا إلى المنزل منذ بضعة أيام. أكد أحد القضاة المهمين في غاليسيا أن مارسيال كان يعرف بأمر الغارة، وقرر أن يسلّم نفسه. وبعد مرور وقت في تأهيله تحول من متّهم إلى شاهد ولم يعاقب.

يقول القاضي: «مارسيال ذكي جدا، اجتمع في المكتب مع غارسون. وتمكن من الخروج

غير ملوّث».

وعلى العكس من ذلك، الأمر الأكثر غرابة كان الذي عاشوه في كامبادوس. كان على سيتو مينيانكو أن يكون هناك، لكن الزعيم هرب. يقولون إنه هرب في ذلك الفجر بفضل معلومات مسربة. كان هناك شريكه، دانيليتو كارباِيو. وأيضا مانولو الكتلوني ونارسيسو «باريدو» من منظمة سيتو.

على نحو موازٍ، أوقفت الشرطة في مدريد رجلي الأعمال كارلوس غويانيس وسيلسو باريروس، اللذين وضعا آخر اللمسات على العملية. قام غارسون نفسه بإنهاء الانتشار عندما أعطى الضوء الأخضر لهبوط المروحية في قصر بايون. لقد ضربت الدولة ضربتها. سُمع صوت التصفيق في كل مكان وغنت الأمهات. كانت حصيلة الغارة منتصف اليوم 18 موقوفا من لائحة تحتوي على 2 اسما. بالرغم من ذلك لم يضبطوا غراما واحدا من المخدرات. إن العملية ستكتمل في الأشهر التالية، مع عمليات توقيف أكثر، تصل إلى 48 موقوفا، ومع افتتاح ما سيتحول إلى محكمة قضائية تُقام في «لا كاسا دي كامبو» في مدريد. إن عملية الإيقاف الأكثر شهرة بين تلك العمليات السابقة كانت العملية الخاصة بـ «سيتو مينيانكو»، الذي سقط - كما سبق ورأينا - في الشاليه الآمن الخاص به في بوسويلو دي ألاركون بعد أن خانه أعضاء عصابة كالي الكولومبية. حُوكم في غرفة مستقلة.

تراجعت جميع الأسماء الكبيرة. وبالرغم من النجاح الواضح، كانت تلك العملية المهيبة هي اللكمة الأولى. بحسب إحصائيات عام 1990، حصلت في هذا العام عمليات إيقاف لـ 1800 شخص بسبب الاتجار بالمخدرات في غاليسيا، بشكل مباشر أو غير مباشر. بدا أن المعركة قد فتحت، ولا يعلم متى تنتهي. في اللحظات الأولى، سُجن الرؤساء بشكل منفصل في زنازين مبنى المفوضية القديم في فيلاغارسيا، ثم نقلوا على الفور إلى مدريد، إلى سجن ألكالا - ميكو. يقول ساراغوسا: «نادرا ما كنا ننام في الأيام التالية. ساعة أو ساعتين في اليوم. كنا نأخذ الإفادات كل اليوم. وكنا نراهن أن ما من شيء سيُسرَّب، لا استراتيجيات ولا تنسيقات دفاع». لكن بالتأكيد كان هناك تسريبات خطيرة. في أيام التحقيقات تلك كان أساسيا أن لا يتكلم الزعماء إلى بعضهم، لذلك نسق غارسون لوضعهم في زنازين انفرادية. كان عليهم أن يبقوا منعزلين، بدون أن يشاهدوا التلفاز ولا أن يسمعوا الراديو ولا أن يقرأوا الصحافة. وأيضا كان عليهم أن لا يعرفوا مَن مِن بين الزعماء الآخرين أوقف ذلك الفجر. تلقى سجن ألكالا - ميكو تعليمات دقيقة، لكنها تعليمات تم تجاهلها وعدم التقيد بها على نحو محرج جدا.

بعد أسبوع من الغارة، قامت جريدة إل بابيس بكشف ما قام به مسؤولو ألكالا - ميكو بعد إدخال الزعماء إلى السجن، حيث أفصحوا عن أسماء من كان في الداخل على أبواب السجن. تروي جريدة إل بابيس أن الرؤساء بدأوا يتحدثون صارخين من زنزانة إلى أخرى. وإذا كانوا بعيدين جدا، كانوا يرسلون الرسائل بشكل متسلسل. كما أنهم وجدوا قصاصات ورق مخفية في الكتب أو في الملابس. قاموا على هذا النحو بتنسيق النقاط الرئيسية لاعترافاتهم، وكانوا يستعلمون من بعضهم البعض بعد كل تحقيق.

استشاط غارسون غضبا. طلب تفسيرات من المدير العام لهيئة السجون في ذلك الوقت، أنتوني أسونسيون، الذي فتح بدوره تحقيقا لأجل تحديد ما الذي كان يحصل. إن مخالب الزعماء،

وقدرتهم الهائلة، أوقعت من دون سابق إنذار بالمحققين. أما السجن فنفى بدوره المعلومات التي نشرتها إل باييس وأكد أن أسماء المسجونين كانت معلقة على البوابات فقط لبضع ساعات، وأن المساجين لم يتواصلوا مع بعضهم ولا للحظة.

إن فضيحة ألكالا - ميكو كانت واحدة من النكسات الكثيرة التي واجهها غارسون وساراغوسا. قام الدفاع بعمله بشكل جيد، وتمكن من إسقاط بورتاباليس في تناقضات. إن ظهور التائب في الإعلام لم يقدم أي مساعدة، حتى ظهوره في ذلك البرنامج الذائع الصيت لخوليان لاغو والذي يدعى «آلة الحقيقة». يقول ساراغوسا: «بشكل عام، كانت الشهادات صلبة، مع إن شهادات بادين كانت أكثر ترابطا وبدون صدوع، وسليمة للغاية. إن ما يحصل هو وجود كثير من الناس المهتمين بعدم استمرار الأمر. كان هناك كثير من النقد وكثير من السياسيين في غاليسيا الذين لم يرق لهم ما كانوا يرون. كانوا ينتقدوننا جميعا وعنى ذلك الكثير لبورتاباليس. لكن كان على العملية أن تجري هكذا، على الطريقة الإيطالية، إذا أردت القول، لكنها كانت الطريقة الوحيدة».

في شباط/فبراير من عام 1992 اكتمل التقرير، وفي تموز/يوليو أُعلن افتتاح المحكمة الشفهية. يشرح ساراغوسا: «في الحقيقة، توقفنا، لأننا لم نستطع القيام بأي شيء أكثر. كانت المعلومات كثيرة بحيث إما أن نضع نقطة لإعلان النهاية، من أجل الانتقال إلى المحكمة، أو نبقى لسنين نحقق. كان ذلك ضخما». بعد شهور، بدأت المحكمة في «لا كاسا دي كامبو». ولتاريخ تلك العملية، التي امتدت حتى تموز/يوليو من عام 1994، ستبقى بعض تصريحات الزعماء الغاليسيين، وأيضا صور، مثل تلك الخاصة بأوبينيا وهو ينتعل القبقاب وهو يجيب بدون رغبة. يتذكر ساراغوسا: «كان غير قابل للترويض. لم يجب على أي سؤال بشكل معقول». كانت إجابات «باتوكينيو» (= باتوكو الصغير) غير المعقولة أقل حدة. كان مانويل أبال فيخوو، الملقب «باتوكو»، في ذلك الوقت سائق قارب لم تنبت له ذقن بعد، وكان يعمل لصالح «سيتو مينيانكو». انتهى به الأمر زعيما لناقلي المخدرات الذين استحوذوا على زمام أمور تهريب المخدرات في غاليسيا في القرن الحادي والعشرين، لكنه لم يكن في ذلك الوقت سوى شاب من أروسا حضر إلى المحكمة بملابس وأحذية رياضية. في واحد من تصريحاته، أظهر ساراغوسا صورة يظهر فيها «باتوكو» في فيانا دو كاستيلو (البرتغال) خلف مقود قارب. رد عليه «باتوكو» مباشرة بأن عنده «تفسيرا بسيطا» لهذا. وبين ابتسامات الموجودين التي تحولت إلى ضحكات صاخبة، روى كيف كان قد ذهب إلى ذلك المكان البرتغالي لكي يقضي الوقت مع حبيبته، التي طلبت منه أن يأخذ صورة. وأضاف: «أيها السادة! يقوم آخرون بذلك في سيارة بورش أو من نافذة قطار». لم يُحكم على «باتوكو».

كانت إجابات الزعماء سريالية أحيانا. وخاصة عندما ينفون الدليل بدون تردد. لم يتوانَ خوسه باس كاربايّو، زعيم بورتاباليس، بهدوء منقطع النظير، عن تعليل رحلته التي قام بها بالسيارة من غاليسيا حتى ألغيسيراس. عندما سألوه أجاب أنه ذهب إلى هناك «لكي يتناول بعض الكؤوس». لم ينتهِ الموضوع هنا. كان باس كاربايّو يأخذ معه في السيارة جهاز مسح. إن الحوار بين ساراغوسا وباس كاربايّو كانت كالتالي:

ساراغوسا: «لماذا لديك جهاز المسح هذا؟».

باس كاربايّو: «لا أعلم ما هو دور جهاز المسح هذا. كان عندي في السيارة جهاز صغير يصدر حين أقود على الطريق السريع صوت: «بيب بيب بيب»، فقط لا غير».

ساراغوسا: «وما فائدته؟».

باس كاربايّو: «حسنا، أنا لا أعلم. أنا لم أشتره. لقد وضعه ابني، لأنه كان يحبه».

ساراغوسا: «في منزلك أيضا يوجد جهازا اتصال لاسلكي (ووكي - توكي)، لأجل ماذا كنت تستخدمهما؟».

باس كاربايّو: «كنا نستخدمهما عندما كنا نذهب بين سوتيلو وإسترادا، من أجل أن نتواصل أنا وحميّ عندما نذهب لشراء الماشية».

تم إصدار الحكم في أيلول/سبتمبر من عام 1994. قبل أشهر، كان الكبير تشارلين قد خرج بريئا. أتت النتيجة بعد عمل مضنٍ منزوعة الكافيين. من بين المتهمين الثمانية والأربعين، صدر 33 حكم سجن فقط. أما الخمسة عشر الباقين، ومن بينهم الزعماء الرئيسيون، مثل أوبينيا وباس كاربايّو وألفريدو كورديرو وتشارلين، فخرجوا من دون أن تصدر بحقهم أي أحكام.

منذ اللحظة الأولى، عادت وبكل خباثتها، أسطورة حصانة زعماء المخدرات. ولكن الأمر لم يستمر طويلا فقد شهدنا في السنوات التي تلت أن الجميع سيسقطون في تداعيات عملية نيكورا التي لم تُغلق نهائيا حتى سنة 2004، ولم تترك نتيجتها التي وصل صداها إلى كل العالم مكانا للشك: حيث سجن جميع الزعماء الغاليسيين الكبار. ولا يزال الجميع في السجن حتى يومنا هذا، ما عدا الكبير تشارلين وسيتو مينيانكو (الذي حصل في نيسان/أبريل من عام 2015 على إجراء من الدرجة الثانية من السجن، الذي كان عليه من خلاله الحضور إلى السجن فقط في نهايات الأسبوع).

بعيدا من التداعيات القانونية، أظهرت عملية نيكورا وللمرة الأولى أن تجار المخدرات ليسوا محصنين. اهتزت غاليسيا وتحطمت صورة الحصانة في منطقة المصب. كان الأمر بمثابة نفحة من الهواء. يلخص فيليكس غارسيا، مدير وحدة الـ UDYCO في غاليسيا الأمر كالتالي: «بدلا من عملية واحدة، كان عليهم القيام بمئة عملية، مع مئات المدانين. لكنها كانت نقطة تحول، ورغم أنها كانت لمسة. إلا أنها تركت فيهم أكثر الأثر.

تعيش المخدرات،

يستمر القتال

«طالما هناك شخص ما على الطرف الآخر، فإن

العصابات الكولومبية ستستمر بإرسال البضاعة.

وعلى الطرف الآخر كان هناك دائما أحد ما».

ما بعد عملية نيكورا

«لقد انتهى عصر التباهي. انتهى الأمر بلاوريانو أوبينيا ينفق مليون بيزيتا في ليلة شرب».
هكذا يصف ضابط في الشرطة الوطنية تأثيراتَ عملية نيكورا. إن أحكام عام 1994، التي برّأت جميع الزعماء الكبار، شكلت خيبة أمل قانونية، لكن تحذيرا واحدا واضحا أعاد رسم المشهد في منطقة المصب. إن النعاج التي لم يسبق لها أن أظهرت الذئب الذي في داخلها وجَّهت تهديدات للعصابات، التي كانت حصينة حتى تلك اللحظة. لقد وجّهت الدولة تحذيرها.

قرر الزعماء أن لا يخرجوا في السيارات المكشوفة. تابعوا نشاطاتهم، لكنهم اختاروا أن يكونوا متحفظين. إن الظهور على التلفاز كشفهم، فقد افتتح البرنامج التلفزيوني على محطة TVE يوم الغارة بخبر عرفت كل إسبانيا من خلاله وجوه الزعماء وقرأت أسماءهم، كان شيئا لم يتوقعه هؤلاء الزعماء أبدا. لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الصدى الإعلامي. لقد اتضحت أبعاد أفعالهم، وتراجعوا. أصبحوا أكثر تحفظا. وبتطهير المشهد في الساحل الغاليسي، خفت حدة الشعور بأن غاليسيا هي ملاذ وأرض تهملها السلطات ويديرها «أسياد المخدرات». منذ ذلك الحين، توجب على من يريد أن يتابع ذلك العمل، أن يقيس خطواته، بحيث لا يمكنه بعد تلك الأخبار المتلفزة أن يخرج مكشوف الوجه. قد يبدو الأمر اليوم عاديا، لكن ذلك شكل قفزة كبيرة. لقد تم تحديد الخط الذي يفصل المجتمع عن تجارة المخدرات بشكل أوضح، خط كان حتى ذلك الوقت شفافا كالماء المرشوش على كل أرض المقاطعة.

لكن ما تبقى استمر مثلما كان، أو أسوأ. في التسعينات أصبح الأطلسي هو الطريق الرئيسي بين العصابات الكولومبية والساحل الغاليسي أكثر من أي وقت مضى. طالما هناك أحد ما على الطرف الآخر، كانت العصابات الكولومبية تتابع إرسالها للبضائع. وكان هناك دوما أحد ما على الطرف الآخر. وهكذا، فإن المال عاد ليفعل فعله كالسحر وقد أفاضته من جديد كميات الحشيش والكوكايين على المنطقة. لم يتمكن أحد من استئصال الصمت ولا التواطؤ. «كان هنا سرطان فيما سبق، لكن الخلايا السرطانية ما زالت موجودة». هكذا يعلن عمدة فيلانوفا في ذلك الحين، خوسه فاسكيس، في مقابلة تلفزيونية. ويتابع: «ولا أعتقد أن هناك رفضا اجتماعيا. لقد ضاع الشعور الأخلاقي، والناس - بالإضافة إلى ذلك - ينسون سريعا». إن الذين كانوا يعرفون الظاهرة بشكلها الحقيقي، كانوا متشائمين. وقد أعطاهم الزمن السبب.

بعد عام فقط من الغارة الإعلامية، في الثالث والعشرين من شباط/فبراير من عام 1991، أوقفت قوى الجمارك قارب إل بونغو، وهو قارب صيد من دون راية كان يحمل في مؤخرته 35 كيس كوكايين تزن 1200 كيلو. إنها أكبر كمية يتم إيقافها في عرض البحر حتى تلك اللحظة. فلتعتادوا على

هذا النعت، لأنه سوف يتكرر بشكل مستمر منذ الآن. صعد عناصر الجمارك على متن القارب إلى بعد 300 كيلومتر جنوب جزر الكناري ودخلوا في وسط مشهد مؤسف: أفراد الطاقم، تسعة كولومبيين من عصابة كالي، وشخص من البيرو، كانوا على حافة الموت بسبب سوء التغذية بعد شهر من الرسو في عرض البحر، لأن المحرك كان معطلا. ولأجل مكافحة الجوع، قاموا باستخراج الكوكايين من واحد من الأكياس. تظاهر الضباط أنهم وسطاء من غاليسيا وأظهر الكولومبيون البضائع لهم. عندئذ قاموا باعتقالهم ونقلهم إلى مستشفى في لاس بالماس[38].

صنفت الضربة على قارب إل بونغو في إطار عملية سانتينو، التي تُرجمت إلى عدد كبير من الاعتقالات في حين كان الزعماء يُحاكمون في عملية نيكورا. إلى جانب غارسون الذي يحتل الموقع الرئيسي في العملية الشاملة، وضع القاضي كارلون بويرين يده على العمل واتحد معه من أجل القتال ضد سيل الإنزالات في الساحل الغاليسي. إن عملية سانتينو لم تنل الشهرة التي نالتها عملية نيكورا، لكنها حققت عددا أكبر بكثير من الاعتقالات، وضبطت أطنانا من المخدرات، واشتملت على كثير من عمليات تفتيش القوارب والغارات التي من المستحيل وصفها جميعها بدون تحويل هذا الكتاب إلى موسوعة.

وجهت عملية سانتينو بعض الضربات الملفتة للنظر، كإجهاض محاولة إنزال 1100 كيلو من الكوكايين في مرفأ كورونيا[39]. خُططت العملية في نيسان/أبريل من عام 1992 من قبل تجار المخدرات خيسوس بينييرو وإلديفونسو تريوس كاستيلو، شركاء قدماء لـ «سيتو مينيانكو»، الذين كانوا يحاولون في تلك الأثناء نيل حريتهم. انتقل الاثنان إلى كولومبيا من أجل إكمال اتفاق مع عصابة كالي، لكنهما أوقفا من قبل البحرية الأمريكية في مياه فنزويلا (كان الإسبان ومنظمة الـ DEA يتشاركون المعلومات)[40]. عاد بينييرو إلى الصفحات الأولى في عام 2014، عندما حضر إلى مفوضية بويرو من أجل تجديد بطاقته الشخصية وهو متهرب من حكم سجن لمدة أربع سنوات بسبب إنزال 250 كيلو من الكوكايين في فيغو. أدرك عناصر الشرطة، وهم مذهولون بعض الشيء، من كان هذا الرجل عندما قاموا بإدخال معلوماته إلى النظام. أُوقِفَ هناك لحظتها، على نحو فاجأ عددا غير قليل من السكان، والذين عبروا لاحقا كيف أن بينييرو عاش بينهم سنوات وسار في بويرو على نحو طبيعي تماما.

قبل أسابيع فقط من هذه العملية، كان قارب من فيغو قد استرد عن غير قصد كمية تصل إلى 44؛ كيلو من الحشيش بواسطة شباكه أمام غواردا. قبل شهور، وليس بعيدا عن هذه النقطة، رفع قارب آخر ألف كيلو من الحشيش. إذا تمكن التطور التقني في يوم من الأيام من مسح كل شبر من الساحل الغاليسي، فإن المفاجأة ستكون عظيمة. في كانون الأول/ديسمبر من عام 1994، بعد ثلاثة أشهر من إطلاق سراح الزعماء الكبار في عملية نيكورا، سقطت ألسا، وهي سفينة صيد جلبت إلى فيستيرا عشرة آلاف كيلو من الحشيش من مصدر مغربي. تم الإيقاع بالسفينة من جديد من قبل الجمارك عندما كانت على بعد 20 كيلومترا من إيّا دي أونس، في مصب بونتيفيدرا. في ذلك الوقت انطلقت عملية ملاحقة بالمروحية استمرت سبع ساعات، حتى قرر تجار المخدرات الجنوح نحو الشاطئ بعد أن يئسوا، وذهبوا إلى أمام شاطئ ساردينييرو، بين فيستيرا وكوركوبيون. ومن هناك، وبدون إضاءة

للوقت، نزلوا اليابسة حيث أغاثهم بعض السكان ظانين أنهم بحارة يعانون من ورطة ما. حتى إن واحدا منهم أخذ أحد زعماء العملية في سيارته إلى موروس، وهو رامون كوريس كالديراس - وهو نفسه الذي تورط في محاولة الإنزال في مرفأ كورونيا، والذي تمكّن من الهرب. ثم اختفى كوريس كالديلاس في البرتغال بعد أن كان يلاحقه نصف فيلق من الحرس الوطني. في النهاية، قُبض عليه وسُجن في البلد المجاور. لكنه تابع عمله من خلف القضبان. هذا وظهر كالديلاس في مشهد تراجيدي نهائي في العام 1998 متفحما في خندق على طرف الطريق في كالداس دي ريس، بالقرب من فيلاغارسيا. لم يكن هناك أي متهم، وتحدث التحقيق عن ديون كان متعهدا بها في السجن.

في عملية ألسا[41] التفكيكية تلك، سقط أيضا مسؤول آخر عن نقل المخدرات، وهو هومبيرتو رودريغيس، زعيم من فيلاغارسيا على علاقة مع منظمة «سيتو مينيانكو». في الحقيقة، وعلى الرغم من عدم مقاضاته بسبب ذلك، فإن المحققين يظنون أن عملية الإنزال تلك كانت مُنسَّقة من السجن من قبل زعيم كامبادوس. إن شريكه وحارسه الشخصي، هيرناندو غوميس أيالا، فوجئ وهو يتحدث على الهاتف المحمول من الزنزانة عندما كان يحضّر عملية النقل قبل سنوات، على حاسوب محمول في زنزانة أوبينيا. وصلت هذه القضية إلى الكونغرس. استنكر تحالف اليسار في جلسة برلمانية قضايا عدة لتجار المخدرات الغاليسيين المسجونين الذين يحظون بتواصل مع الخارج.

في الثامن من تموز/يوليو من عام 1997، أحبطت عملية الفجر إنزال ثلاثة آلاف كيلو من الحشيش على شاطئ باتوس، في نيغران، مخفية في الضفة الجنوبية لمصب فيغو. فقد شاهد عنصران من قوى الجمارك SVA في الساعة السادسة صباحا قاربا كان يسير بسرعة الرصاص إلى الشاطئ. كان محملا بثلاثة أطنان من أكياس الحشيش التي جُلبت من السفينة الأم «ويندي». اعترض العنصران عملية الإنزال عندما عاد القارب إلى السفينة الأم من أجل خمسة أطنان أخرى.

بغض النظر عن عملية نيكورا، فلعل عملية الفجر هي أفضل مثال أن أحدا - حتى الزعماء التاريخيين، ومع التغطية الإعلامية لحماقاتهم - لم تكن لديه الرغبة في الابتعاد عن العمل. ظلت الشرطة الوطنية تراقب أوبينيا وبعض شركائه طيلة شهور، وكانوا يعرفون أن عملية الإنزال كانت ستحصل في ذلك اليوم. أوقفوا الدون لاوريانو في سيارته بينما كان يقود إلى فيغو من أجل استلام كل البضاعة وتنظيم عملية التوزيع على الأرض. عندما أوقفته الشرطة وكبلت يديه، قال لهم الزعيم: «إن زوجتي ستقتلني».

بالإضافة إلى ذلك، قامت الشرطة بعد اعتقاله بضبط كمية أخرى من الحشيش (15 ألف كيلو) المصادر في عام 1994 في مارتوريل (برشلونا)، صودرت في عملية إنزال نسقها الزعيم الأروساني مع رجل مافيا من كورسيغا يدعى جاك كانافاجيو.

في ذلك اليوم، أوقف مع أوبينيا أيضا خوسه مانويل فاسكيس الملقّب «بيتورو»، وخوان رامون فيرنانديس كوستاس الملقّب «كاراتيكا»، وخوان موتا توريس. نحن نعرف بعضا من هذه الأسماء، أما البعض الآخر فسنتعرف إليهم قريبا. كانوا من تلك الخطوط الثانية، تلك العصابات المدارية التي كلما ظننا أننا نقمعها من خلال زيادة الضغط على زعمائها التاريخيين، كانت تزداد

حجما وتذهب بعيدا في عملها. أخذ الموقوفون الأربعة على الفور إلى مدريد وأجبروا على الاستماع إلى عشر ساعات من التسجيلات الهاتفية. كانوا يتحدثون فيها دائما على نحو مشفَّر عن العملية. أعلن المحامون بعد ذلك أن تلك المحادثات لا تحتوي على أية كلمة يمكن ترجمتها كخطة لنقل وتوزيع المخدرات.

بعد أيام أوقعت النيابة العامة بـ «سيتو مينيانكو» في عملية إنزال. كان «سيتو» في ذلك الحين في سجن ألكالا - ميكو، لكن المحققين اكتشفوا أنه أجرى أربع محادثات هاتفية على الأقل من زنزانته عبر هاتف محمول، اتصل في واحدة منها مع «بيتورو» في نفس الساعة التي كان فيها يقوم بعملية الإنزال.

في السنة التالية، تمت تبرئة «سيتو» وتمكن من الخروج من السجن. لم يكن لدى ضابط قديم في الحرس الوطني كان يتابع تلك العملية، أدنى شك في تورط سيتو. «كان سيتو خلف كل ذلك، يا رجل، الأمر واضح! لكنهم أطلقوا سراحه بسبب ثغرات قانونية». يشير الضابط إلى حالات شاذة في جلسات الاستماع التي أجراها غارسون. إن الذي انتهى أمره كان أوبينيا، الذي قرر الهرب إلى اليونان بعد أن رأى الحكم الذي كان آتيا نحوه من الأعلى.

في تلك السنة، سنة 1997، نسّق خوسه بيريس ريال «كابيسون» مع عصابة بوغوتا عملية إرسال ثلاثة آلاف كيلو من الكوكايين. جلب البضاعة قارب «سيغوندو أروغانته» الذي غادر من فيلاغارسيا في تموز/يوليو من ذلك العام نفسه. حصل أمر مثير للجدل في تلك الحادثة، خُدع قبطان السفينة: كان يظن أنهم ذاهبون لجلب عبوات تبغ. في السابع من آب/أغسطس التقوا في أعالي البحار مع السفينة الكولومبية الأم، رفض القبطان تحميل البضاعة، لكن الكولومبيين سرعان ما أقنعوه. كان لدى رب العمل حق: عندما عاد «سيغوندو أروغانته» إلى مارين، اعترضته قوى الجمارك وصادرت حوالى ثلاثة أطنان من الكوكايين. وكانوا قد حاولوا رميها من السفينة بدون نجاح كبير. بالرغم من أنه لم يُحاكم بسبب ذلك، إلا أن بعض أعضاء الشرطة المتقاعدين يزعمون أن تشارلين الكبير كان خلف تلك العملية. إن «كابيسون» الذي نسَّق عملية الإنزال كان في ذلك الوقت زوجا لباولا تشارلين، ابنة أخ الزعيم.

عملية المعبد، التي نفذت في حزيران/يونيو من عام 1999 بالتعاون مع دول أوروبية عدة. كان هدفها اعتراض سفينة تامسار، وهي سفينة صيد كانت تجلب أكبر ثاني كمية كوكايين مُعترضة في البحار: 14 طنا. كان أكثر من نصف الحمولة سيوزع في منطقة المصب بواسطة عصابة «النجارين»، وقد لقبوا بذلك لأن زعيمهم، مانويل لافوينته «نيلو»، كان رئيس جمعية عوام في سيلفان دي أرمينتيرا، في أروسا. كان يزامن ذهابه ومجيئه إلى الجبال لأجل قطع الخشب مع تهريب المخدرات. أما الباقي فكانت تتعهد به الكامورا النابوليتانية ومافيات الشرق، الجهات المرموقة الأخرى التي ستستلم الحمولة.

فجر الرابع من حزيران/يونيو صعد عناصر من القوى الخاصة والجمارك إلى متن سفينة تامسار في عرض البحر وأوقفوا طاقمها الكولومبي. كان العقل المخطط للعملية ألونسو ليون، الملقَّب

«أنتونيو»، وهو زعيم من عصابة كالي في إسبانيا في تلك الحقبة. وترافق ذلك مع اعتقالات في مدريد وأليكانته وجزر الكناري. سقط 14 عضوا من عصابة النجارين في ميس. وحُكم على مانويل لافوينته الملقب «نيلو» بالسجن لست سنوات. وكذلك انتهى المطاف بأخيه خوسه لافوينته خلف القضبان بعد تصفية حسابات، بسبب مبلغ غير مسدد لقاء الكوكايين، حيث ربط تاجر مخدرات آخر على شجرة في ميس لكي يُظهر له كيف أن منشارا كهربائيا يكون فعالا في قطع الأيدي كما هو فعال في قطع الخشب.

بالإضافة إلى «النجارين»، كانت عملية إنزال تامسار قد نُسّقَت من قبل خوسه مانويل فيلا سييرا، الذي يُلَّقب «الرئيس»، وهو تاجر مخدرات من بويرو أراد أيضا أن يخطو خطوة نحو الأمام في التسعينات. لُقب بـ «الرئيس» لأنه كان يترأس نادي سبورتينغ لامبون، وهو نادي كرة قدم في بويرو. عقب اعتقاله، تحوّل «الرئيس» إلى تائب متعاون وأخبر غارسون أنه يملك خمسة آلاف كيلو من الكوكايين مخفية في حفرة في بوبرا دو كارامينيال. مقابل ذلك، خُفِّضت مدة حكمه إلى أقصر مدة ممكنة. إن ما يثير العجب هو أنه وبعد سنوات عاد وتورط من رأسه إلى أخمص قدميه. في العام 2009 أعادت السلطات توقيفه بسبب حمولة من خمسة أطنان من الكوكايين على متن سفينة صيد تدعى «دونيا فورتونا». إن أكثر ما يفاجئ في الأمر هو كيف تمكن هذا الرجل من الحصول على عفو المحكمة وثقة العصابات الكولومبية من جديد بعد أن أصبح عدوهم. يقول فيتو كورليونه: «إن للأمر علاقة بضرورات العمل، فليس هناك من شيء شخصي». لا بأس بأي شيء طالما أن العمل سيستمر.

في السنوات التالية لعملية نيكورا، كان هناك عشرات العمليات ومئات الإنزالات التي لن نعرف عنها شيئا على الإطلاق. في تقرير نشر في العام 1992 عبر برنامج «الخط 900» في الـ TVE، يجري مراسل مقابلة مع روبرت سي. بونر، مدير منظمة الـ DEA الأمريكية في ذلك الوقت. سأله عن الوضع في غاليسيا بعد سنتين من تنفيذ عملية نيكورا. لم يكن الجواب الأول للسيد بونر مُشجّعا ولا متفائلا: «إن عصابة كالي تجنّد مواطنين إسبان من أجل أن يقدموا بعض الخدمات، مثل إنزال كميات كبيرة من الكوكايين من القوارب وإحضارها إلى غاليسيا ومناطق أخرى من إسبانيا». لم تبدُ إشارة جيدة أن يسمّي مدير الـ DEA منطقة غاليسيا على وجه التحديد. ثم يتابع حديثه مفصلا: «في العام الماضي، تم ضبط 14 طنا من الكوكايين تقريبا في أوروبا. نصف تلك الكمية دخلت غاليسيا. لكن بحسب تقديري، دخل أوروبا بين مئة و200 طن من الكوكايين. إن ثلث كمية الكوكايين التي تنتجها عصابة كالي تتجه مباشرة إلى أوروبا، ودائما وبشكل رئيسي عبر إسبانيا». لا تزال العصابات الكولومبية مغرمة بمنطقة المصب، ويحظون الآن - بالإضافة إلى الزعماء التاريخيين - بباقي تجار المخدرات الغاليسيين، الذين أظهروا استعدادا للقيام بخطوة نحو الأمام مستغلين تركيز الانتباه على الزعماء الكبار. أولئك الآخرون، الأقل شهرة، لكنهم بدون شك أبدوا أنهم قد أتقنوا عملهم وبلغوا فيه مستوى مذهلا.

الآخرون

(بعيدا عن مينيانكو وأوبينيا وآل تشارلين)

عصابة «اللولو»

«شيء لا يتوافق مع شاطئ الموت»، هكذا فكّر مدير الجمارك لويس روبي في العام 1995. هم بعض الأخوة الشباب الذين كانوا يقودون سيارات البورش الحمراء ويقومون بسباقات على الجتسكي ويعيشون في شاليهات «آسِرة» - صفة اختارها روبي نفسه - بدون أي تبرير اقتصادي لنمط الحياة هذا. كانوا يدعون «اللولو»، العصابة التي كانت تسيطر، ولا تزال على تجارة المخدرات في شاطئ الموت. قرر روبي أن يتقرب من موخيا، وأن يتحدث مع رأس العصابة، فيرناندو غارسيا خيستو، الذي لم يكن في ذلك الوقت قد وصل إلى سن الثلاثين بعد. «في أول مرة تحدثت فيها معه، كان قد حوّل قبل أيام 600 ألف فلورين هولندي إلى بيزيتا في أحد فروع بنوك موخيّا. سألته من أين أتى بكل ذلك المال، فرد عليّ: من اللونغيرون في القاع. أما أنا فلم أكن أعرف ماذا كان اللونغيرون»[42].

بقيت ساكتا وأضاف: «في ما يخص البرنقيل[43]، هل ترغب حضرتك بأن نرسل لك بعض البرنقيل؟».

يذكر روبي: «كانت التفسيرات مذهلة. كانوا شبانا يتحولون إلى أثرياء عبر ملايين الفلورينات، كانوا يملكون سيارات مكشوفة. كنا نظهر لهم إيصالات البنوك وهم كانوا لا يعيرون أي اهتمام. كان لديهم دائما جواب لكل شيء». كانت عصابة اللولو واحدة من العصابات التي تشارك عملها مع الزعماء التاريخيين في حقبة التسعينات، لكن التركيز الإعلامي لم يسلّط عليها كثيرا من الضوء (على الأقل خارج غاليسيا). الشيء الذي يعني أن تاريخهم لا يحسد مينيانكو أو أوبينيا أو آل تشارلين».

في كانون الثاني/يناير من عام 1993، هرّبوا 3300 كيلو من الحشيش إلى موخيّا، على متن سفينة الصيد كاروميرو. طُلب لهم السجن لثماني سنوات، لكنهم خرجوا بريئين في النهاية. صعدت شهرتهم كأسياد شاطئ الموت. يقول عنصر قديم في الحرس الوطني «لم يتحرك أي شيء من دون إذنهم. بدأوا يقدمون الدعم اللوجستي إلى الزعماء التاريخيين، لكنهم سرعان ما بدأوا ينظمون أمورهم لحسابهم الخاص، مع فيرناندو كرئيس لهم. أرى أنهم العصابة الأكثر نجاحا بين كل العصابات.

منغلقون جدا، وجيدون جدا». لطالما حظيت عصابة اللولو بشبكة ضخمة من الاتصالات والمعارف في شاطئ الموت، الأمر الذي سمح لهم بأن يزدهروا من دون أي تسريبات بشأنهم. يتابع الشرطي: «لقد عمل لصالحهم عدد كبير من الشباب. في كل مرة تحصل فيها عملية إنزال، كانوا يضعون «أوتادا» [مجموعة من الشباب المسؤولين عن إبلاغ الآخرين في حال اقتراب أحد من نقطة الإنزال]، وقدم عدد كبير من السكان المساعدة لهم في المخابئ والمصانع والمعلومات السرية. إذا أراد أحد ما أن يفعل شيئا في تلك المنطقة، كان عليه أن يمر من خلالهم».

في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1998، استلم الحرس الوطني معلومة مسربة أنه ستتم عملية إنزال في شاطئ موينيوس، ليس بعيدا عن موطن اللولو. عندما وصلوا، كان هناك فقط علامات على الرمل، كيسا خبز، وصندوق فاكهة. بعد أيام، قاموا بملاقاة فيرناندو على الطريق خلف مقود سيارته الغولف GTI وحاولوا ايقافه. داس الزعيم على دواسة البنزين، وبين الطلقات النارية لعناصر الحرس، حصل ما يشبه سباق الرالي على طرقات شاطئ الموت. تمكن من الهرب، لكن الحرس الوطني تمكن من إيجاد المهربات في اليوم نفسه: 526 كيلو من الحشيش مخبأة تحت القش في حظيرة في دومبريا. لقد أخفى الحشيش خوسه مانويل فرانكو نويا، وهو من السكان المحليين الذي لم يكن أحد يشك به. تأخرت السلطات سنوات في الوصول إلى رئيس اللولو. إن ما كان مذهلا هو أنه نادرا ما كان يخرج من موخيّا خلال تلك السنوات. عاش مختبئا ومحميا من قبل بعض السكان. يقول أشخاص في الحرس الوطني: «بين 30 و40 شخصا كانوا متواطئين وأصدقاء ومخبرين ورفقاء مخلصين». طوق عناصر الحرس الوطني المنطقة لمدة شهور، مع حواجز على الطرقات ونقاط مراقبة في الغابات، لكن غارسيّا خيستو كان دائما يتسلل «بمساعدة رفاقه المخلصين».

لم يضيع الوقت عندما كان فارّا. في العام نفسه، عام 1998، تمكنت عصابة اللولو من إنزال حوالى عشرة أطنان من الحشيش على شاطئ نيمينيا، في موخيّا. يذكر شرطي في الحرس الوطني: «كانوا يقومون بعملياتهم بشكل شهري تقريبا. كان ذلك أمرا وحشيا». عندما اقترب فريق التلفزيون الوطني الإسباني من إحدى البلدات قبل شهور لتصوير تقرير عن العصابة. قام أحد إخوة غارسيّا خيستو بالهجوم على الكاميرا وعلى المراسل بهراوة في يده، انتهى المطاف بالإثنين معا في ثكنات الحرس الوطني. كان أعضاء اللولو بأكملهم ينتظرون على باب المكاتب. فرّ الصحفيون في تلك الليلة من موخيّا تحت حماية الحرس الوطني. وها أن فيرناندو الآن حر طليق، وهو ذراعه اليمنى، أما أخوه أندريه فلا يزال في السجن.

ألفريدو كورديرو

خسر ألفريدو كورديرو الملقب «إنغاريّاس» في لعب البوكر. كان الجميع على علم بإدمانه على تلك اللعبة في فيلانوفا، ولا يزالون يتذكرون تلك الليلة التي بدّد فيها أكثر من 11 مليون بيزيتا. كان كورديرو واحدا من الزعماء القدامى، الذين عاشوا في التسعينات، وبعيدا عن الحدود الغاليسية، كذلك بعيدا عن أن تدركهم الأضواء الإعلامية. كان كورديرو يعمل لدى آل تشارلين لبعض الأحيان، وسقط معهم في غارة عملية نيكورا.

هو أيضا خرجَ بريئا. وعاش حياته، حتى ضبط في العام 1997 وهو يهرّب 5 آلاف كيلو من الكوكايين في خليج في تابيا دي كاسارييغو في أستورياس. رأى واحد من السكان ما كان يجري وأعلم الشرطة.

تمكن كورديرو من الفرار من الكمين وظلت السلطات تبحث عنه طيلة ثلاث سنوات لتتمكن من القبض عليه بالرغم من أنه لم يكن قد ذهب بعيدا، بل كان مختبئا في شقة صغيرة في فيلا دي كروسيس، على بعد بضعة كيلومترات من سانتياغو دي كومبوستيلا. حُكم عليه بالسجن لثماني عشرة سنة، لكنه خرج قبل هذا الوقت. منذ ذلك الحين وهو يعيش - كما يفترض - حياة هادئة، بعيدة عن العمل، وهو يدير مع عائلته ملهى ليليا في مسقط رأسه فيلانوفا. في آذار/مارس من عام 2015، بات واضحا - من جديد - أن الزعماء الغاليسيين لا يعرفون الاستسلام. أوقفته الشرطة في عملية إنزال 10 كيلو من الهيروين. ثم أُعفي، لكن «إنغاريّاس» عاد ليتصدر من جديد عناوين الصحف في عمر الـ 62.

«فالكونيتي»

آخر مرة مثل فيها لويس فالكون «فالكونيتي» أمام القضاء كانت في العام 2012. بعد أن عاقبته السنوات، كان على تاجر المخدرات العجوز أن يفسّر من أين له كل تلك الثروة. لم يصدق المدعي العام أن ممتلكاته أتت من العمل في مجال الفنادق. دافع «فالكونيتي» عن نفسه خلال المحكمة قائلا: «إن مالي يأتي من الملاهي الليلية الشاطئية على شاطئ سيناس في فيلانوفا، ومن مطعمين، ومن ملهى ليلي أمريكي للفتيات السود». خرج بريئا ولم تستأنف النيابة العامة الادعاء عليه. اليوم، وبعمر الثالثة والسبعين، يبدو أنه تقاعد نهائيا عن العمل.

«فالكونيتي» هو أحد المخضرمين من أيام التبغ (لقد سبق لنا وتحدثنا عنه، كان هو من وضع المسدس فوق طاولة عضو مجلس بلدية في أروسا الذي لم يعطه إذنا من أجل الكازينو وقال له: «إن جلب قاتل مأجور من البرتغال يكلفني فقط مليون بيزيتا»). إن مثل هذا المخضرم ينافس الكبير تشارلين في محافل أروسا على شرف إدخال أول كمية من المخدرات إلى غاليسيا في العام 1987.

يعود سبب صعود شهرة الزعماء التاريخيين في فترة التسعينات إلى أنهم أوقع بهم قبل عملية نيكورا: في العام 1988، في هونداريبيا، عندما حاول غيبوسكوا إنزال 1200 كيلو من الحشيش على الشاطئ. حُكم عليه بالسجن لثماني عشرة سنة في العام 1991، لكنه لم ينفذ منها سوى ست سنوات. يعلق ضابط من الشرطة: «ثم تابع عمله. لكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه متلبسا من أجل سوقه من جديد إلى المحاكمة. كان حذقا. نحن نعلم أنه أدخل ثمانية آلاف كيلو عبر شاطئ لوغو بعد فترة وجيزة من خروجه من السجن، لكنه لم يترك أثرا خلفه». انتقل الزعيم خلال التسعينات إلى ظل الزعماء التاريخيين، وجرت المحاكمة المسرحية الأخيرة - بحسب ما يعتقد بعض عناصر الشرطة - على قدم وساق.

«فرانكي سانميّان»

خافيير مارتينيس سانميّان، الملقب فرانكي سانميّان، غيّر بصمات أصابعه وأجرى عملية تجميل طفيفة في الوجه عام 1994. إن الزعيم القديم، المولود في ليون، والذي تربّى في بونتيفيدرا، حُكم عليه في عملية نيكورا، وقبل يوم من النطق بالحكم تبخر (كانوا سيسجنونه مدة 12 سنة)، على نقيض زملائه الغاليسيين، قرر فرانكي أن يبتعد قليلا (وليس أن يبتعد أكثر). غادر إلى دينيا، في أليكانته، وأقام هناك في شاليه تبلغ مساحتها 12 ألف متر مربع، وحصل على بطاقة هوية جديدة ووثائق مزورة، وتابع العمل. يحكي ضابط في الشرطة عن يوم القبض عليه: «إن ما لم نقدر أن نتصوره هو أنه كان قد غيّر بصمات أصابعه، لأننا لم يسبق لنا أن رأينا مثل هذا في إسبانيا. بالرغم من أننا نعلم أن ذلك ممكن في كولومبيا وفي الولايات المتحدة». خلال هروبه الذي استمر 14 سنة، ضمته الشرطة إلى لائحة الخمسة عشر شخصا المطلوبين. أما هو فقد ساهم، خلال كل تلك الفترة، بعمليتي إنزال كوكايين على الأقل. إحداهما كانت عملية السفينة تامسار التي سبق ورأيناها، والأخرى كانت في تابيا دي كاسارييغو (أستورياس) عام 1997، تعتقد الشرطة أنه هرّب خمسة آلاف كيلوغرام فيها بالاشتراك مع المدعو ألفريدو كورديرو. كانوا على وشك القبض عليه في هذه العملية الثانية بسبب صوت منبه أحد الجيران، لكنه عاد واختفى. يقول أحد عناصر الحرس الوطني: «أعتقد أن فرانكي كان حذقا جدا. لا بد أنه أنزل 20 أو 30 طنا من الكوكايين إجمالا، لكن لم يسبق لأي أحد أن ضبطه». أوقع به في العام 2006، عندما تمكن عنصر من الحرس الوطني مكلّف في أليكانته من التعرف إليه. اقترب منه في الطريق وسأله إن كان هو «فرانكي سانميّان». رد عليه: لا، لكنه أخذه إلى مكتب الشرطة من أجل أخذ بصماته.

المفارقة: تمكنت الشرطة العلمية من أن تستنتج أنها كانت بصمات خاضعة لعملية سابقا، وبفضل ذلك تمكنوا من التعرف إلى أحد تجار المخدرات الأكثر دهاء والذي لطالما كان يهزأ بهم. في العام 2009 حُكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاما.

خاسينتو سانتوس فينياس

كان خاسينتو سانتوس فينياس ينقل المخدرات في زوارق القطر في عرض البحر. لقد امتلك اثنين منها، أحدهما يسمى بيتيا والآخر كلاريندا مـ. كان الأول في مرفأ فيغو، والثاني في مرفأ أوسا، على أطراف كورونيا. عندما كانت الزوارق لا تعمل في قطر سفن الشحن، كانت تقطر الكوكايين والحشيش إلى اليابسة. في العام 1996 قفز إلى الواجهة وسُلّطت عليه الأضواء، عندما حاول إنزال 3ز طنا من الحشيش مخفية في سفينة الصيد فولغا إي. في منطقة المصب قرب بونتيفيدرا. نجح في ذلك بطريقة أو بأخرى: وصل القارب ليرسو في مرفأ مارين، لكن خاسينتو سانتوس فينياس أُوقف وسُجن لمدة أربعة أعوام. حين خرج، تم إيقاف قاربيه مرة أخرى بالجرم المشهود. يحكي عنصر في الحرس الوطني: «كان ينزل كمية كبيرة، في كورونيا وفيرول على سبيل المثال لا الحصر. ثم يبيع زوارق الشحن في جنوب أفريقيا، وأعتقد أن فضيحة كانت تحصل هناك، لأنهم كانوا يخونونه». حصل شيء سيئ في تلك الفترة. في تموز/يوليو من عام 2004، قام الزعيم المغربي، الذي كان يعمل فينياس لصالحه ببيعه إلى السلطات الإسبانية. عندما كان زورقه بيتيا يبحر أمام سواحل توغو، أطبقت عليه البحرية الفرنسية، التي ضبطت على متن الزورق نصف كيلو من الكوكايين. قبل سنة، كان زورق

كلاريندا ﻫ- قد سقط في جنوب البرتغال، بالقرب من وجهته النهائية، وكان آتيا من أفريقيا أيضا. بسبب هاتين الحادثتين حُكم على الزعيم بالسجن لمدة اثنتي عشرة سنة وحُكم معه يده اليمنى، إيولوخيو بيريس ريفوخو، وهو تاجر مخدرات من أويا، والذي كان قد أُوقف في عملية نيكورا وحُكم عليه 8 سنوات. هذه المرة، ولكونه ذا سوابق، حُكم عليه بالسجن لتسعة عشر عاما. كان ريفوخو المسؤول عن حفظ زوارق القطر وتشغيلها. بدأ عمله مع آل تشارلين، ويقال إنه أسهم في تسوية حسابات أنهت حياة مانويل باولو الملقَّب «كانيو»، الزعيم الذي كان قد تعاون مع غارسون والذي أُطلقت عليه النار في منزله عندما كان يقرأ الجريدة. كان هو من استأجر شقة لإقامة القتلة المأجورين الكولومبيين.

مانويل كاربايّو

في حادثة إطلاق النار تلك على مانويل باولو، وصل الرصاص أيضا إلى كارمين كاربايّو، زوجة باولو، التي ظلت حبيسة كرسيّها المدولب. كانت كارمين أخت مانويل كاربايّو الملقب «غافيلان»، وهو مهرب تبغ عتيق، وقد كلفته قفزته إلى المخدرات كثيرا. لعله كان أكثر من قاوم الأمر. استنادا إلى إطلاق النار، أظهرت له الحياة أن شكوكه كانت في محلّها. نعرف «غافيلان» أيضا من عهده في التهريب: كان هو من دفع عنصرا في الحرس الوطني إلى البحر في مرفأ بوبرا دو كارامينيال، وهو مولود في فيلانوفا. بالإضافة إلى مشاهدته أخته مقتولة، فقد خسر ابنا أيضا، دانييليتو كاربايّو (ملازم ل- سيتو مينيانكو، والذي اغتيل - كما سبق ورأينا - في نادٍ في فيلاغارسيا)، الذي نجا من طلق ناري أثناء عملية إنزال، التي كان فيها كل شيء ما عدا النبل. بدأ كـ «سيد دخان»، وكان يتفاخر دوما بتكريس نفسه فقط للتبغ. كان من أولئك الذين هربوا إلى البرتغال، وشارك هناك بالاجتماع مع رئيس حكومة غاليسيا المستقلة. يقولون إن ابنه دانييليتو كاربايّو هو من ضغط عليه من أجل أن يقفز إلى مجال الحشيش. لم يوافق الأب على اقتراح ابنه، مثل كل واحد من المهربين القدامى تقريبا، لكنه عاد يستسلم في نهاية المطاف للملايين التي أظهرها بقية الزعماء في منطقة المصب. من الحشيش إلى الكوكايين: في عام 1991 أوقف بسبب إنزال ألفي كيلو من القوارب في سيديرا، التي كان سيتقاسمها مع تاجر المخدرات المحامي بابلو فيوكه. انتهت عملية الإنزال تلك على نحو سيئ، بالرغم من أن كاربايّو تمكن من النجاة من تأديب رصاص الكولومبيين.

بعد ست سنوات من التحقيقات القاسية، حُكم عليه بسبب تلك العملية بالسجن 17 سنة. قبل أيام من النطق بالحكم، في العام 2003، هرب إلى أمريكا اللاتينية مستغلا حريته المشروطة. يقول سكان فيلانوفا أنه كان يعود بشكل مستمر إلى البلدة، حيث كان يمضي بعض الوقت من دون خوف كبير. في العام 2006، استنفد كل الفرص، فاتصل بنفسه بسجن لاما من أجل أن يسلّم نفسه. بقي سنتين خلف القضبان، وعانى من فشل في القلب. مات في منزله في العام 2009.

سقوط إمبراطورية أوبينيا

سأل عنصر في الحرس الوطني: «هل نقتلهم يا سيد روبي؟». إذا كان القتال ضد تهريب المخدرات حربا، فإن يوم الثامن من كانون الثاني/يناير من عام 1995 هو يوم أحد الانتصارات الأكثر رمزية. في ذلك اليوم، سيطرت السلطات على قصر بايون، جوهرة تاج الإمبراطور أوبينيا ورمز فائض التباهي عند الزعماء الغاليسيين.

وصل القاضي كارلوس بويرين ولويس روبي بلانك إلى القصر برفقة الحرس الوطني. كان في انتظارهما خارج أبواب القصر حشد صاخب من أمهات جمعية «انهض». سأل القاضي إستير لاغو، زوجة أوبينيا، عن المكان الذي كان يخفي فيه زوجها النقود. بعد أن ادعت أنها جاهلة، إلا أنها عادت واعترفت في نهاية الأمر:

- في بيت الكلب.

«اقتربنا ورأينا العديد من كلاب الروتفايلر الألمانية في الأقفاص. نظرت إلى إستير التي قالت: «نعم، نعم، إن المال هناك في الداخل». هذا ما قاله المحامي لويس روبي بلانك في مكتب المحاماة في مدريد، وهو بعيد الآن عن ضجة الاتجار بالمخدرات. ويتابع: «ثم نظرتُ من جديد إلى الكلاب». في تلك اللحظة، اقترب عنصر من روبي وسأله في أذنه:

- هل نقتل الكلاب يا سيد روبي؟

رد عليه روبي:

- لا يا رجل! كيف سنقتلها؟

لم يكن هناك حاجة لإطلاق الرصاص لأنهم أقنعوا إستير أن تدخل وتخرج الكلاب من الأقفاص. فتش العناصر المكان خلال فترة وجيزة، لكنهم لم يجدوا شيئا.

سأل بويرين من جديد:

- حسنا يا إستير، لا تجعلينا نضيع الوقت. أين المال؟

بقيت إستير لاغو صامتة. سُمع في الخلفية، من جهة باب القصر، صوت صرخات أمهات

جمعية «انهض». ردت إستير في النهاية، بلهجة خاصة بمنطقة المصب، مشيرة إلى مكان آخر مختلف عن بيت الكلاب: «نافيخا، إنها نافيخا». يقول روبي: «نحن لم نفهم شيئا، بالطبع. نافيخا؟ ما هذا؟ حتى أدركنا أنها تعني جوائز السقف. صعدنا، وفتحناها. كان عملا مضنيا. تعرقنا. لم يكن هناك شيء أيضا». أوهمتنا إستير بمكانين أو بثلاثة أخرى: في الفرن، في حفرة مفترضة في أرضية واحدة من الغرف، وحتى في الصهريج. سئم العناصر والقاضي والمحامي روبي. في النهاية، أشارت إستير: «في بيت الحَمَام، إنه في بيت الحمام». لكن خمنوا ما كان هناك: لا شيء أيضا. انتهت غزوة قصر بايون في ذلك النهار من دون العثور على الكنز. غادر بويرين وروبي خاويي الوفاض. في الحقيقة لم يكونا خاليي الوفاض تماما. كان التحقيق قد بدأ لتوه. كانت الحكومة قد قررت الاستيلاء على فالكون كريست في منطقة المصب، الذي كان أكبر كرم عنب ألبارينيو في سالنيس في تلك الفترة.

إن الاستيلاء على قصر بايون هو نقطة تحول في استراتيجية القتال ضد الاتجار بالمخدرات التي حصلت في غاليسيا في منتصف التسعينات. إن خيبة الأمل جراء الإعفاءات الصادرة عن عملية نيكورا أسفرت عن درس مفيد: من المستحيل تقريبا الإيقاع بالزعماء الكبار بالجرم المشهود. كان الأمر في تلك الفترة طموحا صعبا، وهو يوتوبيا اليوم. إن التضييق المالي هو الطريق. لذلك - من بين الأشياء الأخرى - تم تكييف قانون لتبييض الأموال من جديد. لقد تم إصلاحه في العام 1988، لكن في العام 1995، حصل إصلاح أكثر جدية، وبعد عام أصبح قيد التنفيذ، وهذا ما جعل من المعركة أكثر عدالة. عبّر عن ذلك الرئيس الأعلى للشرطة في غاليسيا في تلك السنوات خوسه غارسيا لوسادا قائلا: «إن ما يهم في الأمر هو الهجوم على العصابات في النقاط التي تؤلمها أكثر. لذلك سنلاحق تبييض أموال المخدرات على نحو خاص جدا. إن الضربات الكبرى هي خبز لأجل إحصائيات اليوم، وجوع لإحصائيات الغد». إن للرسالة قوة أكبر إذا استمرت حتى يومنا هذا. في مفوضية لونساس، في كورونيا، يشرح الأمر رئيس الـ UDYCO في غاليسيا، فيليكس غارسيا، وهو يمشي في إحدى ممرات مقر القيادة، ويشير من دون أن ينظر إلى باب مكتوب عليه: قسم الجرائم المالية وتبيض الأموال، ويتمتم: «إن هذا، هو ما أوقع بهم حقا».

كان للتضييق المالي، بالإضافة إلى اتحاد الشرطة والحرس الوطني، جنوده الخاصون. إنه خدمة مراقبة الجمارك (SVA)، والتي تحظى بأوساط وعناصر لأجل التحقيق والمراقبة والملاحقة والهجوم. هم بحكم أمر الواقع جسد بوليسي، قد حظي ببنية تحتية ضد تهريب المخدرات أكبر من تلك التي يحظى بها الحرس الوطني (يملكون سفينتين في عرض البحر - واحدة في كاديس وأخرى في كورونيا، التي تصل إلى سواحل أمريكا الجنوبية). في بداية الأمر، كان المحامون يحاولون أن يقدموا دفاعاتهم وهم يناقشون أن قوى الجمارك لم تكن جسما أمنيا للدولة. أغلق القانون الجديد هذه الثغرة، مما سمح للمحكمة العليا أن تنظم قانونيا مهام قوى الجمارك، في المجال القانوني على الأقل. كان - ولا يزال - على الأرض قصة أخرى. ارتفع صوت الاحتكاكات بين عناصر من الحرس الوطني وعناصر من قوى الجمارك، والجروح التي سببها الجدل القائم حول المكان الذي تصل إليه صلاحياتهم لم تلتئم بعد كليا. لم تكن قليلة تلك المرات التي قام بها عناصر من كلا الجسدين بالتشاجر. حتى أنهم وصلوا لاستخدام الأيادي في تاريفا (طريفة)، ووصلوا إلى حد تبادل اللكمات بسبب كمية من التبغ المضبوط.

يشرح لويس روبي، فاتح قصر بايون: «لقد هدأ كل شيء اليوم، ليس هناك مشاكل». كان هو رئيسا لقوى الجمارك بين عامي 1996 و1998. ويتابع: «قمنا بعمل عظيم، كنا روادا. وكانت تلك من المبادرات الأولى من هذا النوع، ولا تزال الأكبر حتى تاريخه». صعدت شهرة روبي بسبب حبه للعمل. أعاد تنشيط التضييق المالي فوق الأرض ودفع نشاط عناصر الجمارك البوليسي، ما أثار حفيظة الآخرين الذين قاموا بعرقلة ذاك النشاط في الوقت الذي كان عناصر الجمارك على وشك إنهاء تحقيق، في كانون الثاني/يناير من عام 1998، وذلك بمحاولتهم إيقاف مارسيال دورادو. «كان دورادو يملك شخصية تاجر التبغ الأكثر مهابة، والأكثر سلطة، وأعتقد أنا أنه الأكثر حماية. كان هناك مصالح اقتصادية يتشارك فيها كثيرون، وأعمال ذات عوائد ضخمة، ولربما تطلب الأمر مساعدة كبيرة فقد كنا غير مرتاحين. أنا أقر أنهم أزاحوني من الدرب، والآن أرى الأسباب من وجهة نظر مختلفة».

إن قرار التنحية ذلك قلل بطريقة ما من دور قوى الجمارك في تصديها لتهريب المخدرات، ونقل التركيز إلى الشرطة الوطنية، التي قبل عام من ذلك، في سنة 1997، كانت قد أسست وحدة المخدرات والجريمة المنظمة (UDYCO). ورغم كل ما جرى فقد، استمر التعاون بين الجسمين ولا يزال مستمرا، وبعيدا من الخلافات، أتت النتائج داعمة لهذا التعاون.

إن قصر بايون هو الدليل الكبير على ضرورة التفاهم. إن القصر كان ملكا لأوبينيا، لكن اسم أوبينيا لم يكن يظهر في أي مكان. إن الملكية - كما سبق ورأينا - كانت باسم سيدة من كاسيرس (عمة المهرب المحامي بابلو فيوكه) التي كانت تدفع إيجارا شهريا بقيمة 200 بيزيتا. إن اعمال شركة الخمور التي من أجلها كان يُستخدم القصر تنتمي إلى شبكة من الشركات البانامية. انطلاقا من شبكة الخيوط المتشابكة تلك، تم الوصول إلى اسم إستير لاغو، مالكة إحدى تلك الشركات. بدأت الخزينة تجرد وتعري المؤامرة. قرروا في كانون الثاني/يناير من عام 1995 أن يتدخلوا.

بعد شرائهما لقصر بايون، أهمل أوبينيا وإستير المزرعة. إن الهدف لم يكن خلق مصنع نبيذ ذي أرباح، بل غسل الأموال، حيث أدى ذلك إلى ذبول المنشآت بسبب فرط الاستثمار. يشرح روبي: «كان مصنع النبيذ ضخما. كانت له القدرة على معالجة كل نبيذ سالنيس. يا له من آلة وحشية! كل شيء في الوقت نفسه. لكن بالطبع لم يكن الأمر بهدف الربح. كان هواية، وغطاء». عندما اقتُحم القصر، اقترح روبي أن تقوم الدولة بإدارته. حتى تلك اللحظة، كانت كل الأملاك التي تم التدخل بها مغلقة (الأمر الذي أثر على العمال الذين بقوا في الشارع: 400 عامل، في حالة قصر بايون) أو أنه بيع بسعر بخيس، مما سمح لتجار المخدرات بالعودة إلى استئجاره عبر شركات تغطية أخرى.

للمرة الأولى في إسبانيا، تولت الدولة المسؤولية باستثمار إحدى الملكيات. تذكرت الإدارة القضائية المنافع، وأمنت المستقبل المهني ل- 400 موظف. «أتى العمال إلينا لمقابلتنا، وشرحنا لهم أن الشركة ستستمر وأننا سنقوم بدفع المتأخرات. اختفى اثنان أو ثلاثة من الصورة عندما وصلنا. حيث إنهم كانوا متورطين وتلاشوا على الفور».

بدون أي معرفة مسبقة عن عالم النبيذ، رأى روبي نفسه أمام كرم عنب هائل المساحة مع التزام بأن يجعل محصول السنة يحقق ربحا. «كنت تائها للغاية، لكن بعد سنوات عُيّنت لإدارة فريق

أتليتيكو مدريد، وصدقوني، كان ذلك صعبا. وصلتني تهديدات من كل نوع، وقد طاولت عائلتي أيضا. لم يكن لديّ أي مشكلة مع القصر ومع تجار المخدرات. أعطوني ملف تجار المخدرات بدلا من كرة القدم، بدون أي تردد».

يتذكر روبي عندما شرع في تذوق النبيذ، بعد أول حصاد: «إن الأسوأ كان الحصول على التمويل. لم يكن أحد يرغب بوضع المال في ذلك الأمر. كان يجب دفع المرتبات، وتسجيل العمال كمزارعي كرم في الأمن الاجتماعي، وإصلاح الآلات، وشراء الأسمدة... كان عليّ القيام بالحصاد. كان هناك مصاعب من كل نوع، لكن في النهاية نجحنا في كسب تمويل أحد البنوك. لم يكن لديّ أدنى فكرة، لذلك اتصلت ببويرين، وقال لي الأخير: «انتظر حتى أتصل بفراغا». اتصل به وقال فراغا له: «سأصلك بأفضل خبير شراب في غاليسيا». ووصله به. بعد بضع ساعات كان هناك، تذوق النبيذ وقال إنه جيد». كان روبي قد قام بحملة تسويقية أيضا». يبتسم ويتابع: «في أول علامة تسويقية وضعناها، كتبنا عليها إنه نبيذ من مصنع تستثمره قوى الجمارك. أعتقد أن ذلك ساعد على المبيعات».

في العام 1996، استأجرت شركة فرايكسينيت القصر. وفي العام 2007، بعد انتهاء محاولات أوبينيا وأبنائه شراء القصر من جديد (وصلوا إلى محكمة ستراسبورغ من دون نجاح)، عرضت الدولة القصر للبيع في المزاد العلني. ولتفادي قيام تجار مخدرات آخرين بمحاولات لشراء القصر، قاموا بوضع معوقات. واحدة من تلك المعوقات كانت أنه لا يحق إلا للشركات ذات الخبرة التي لا تقل عن خمس سنوات في مجال صناعة النبيذ الدخول إلى المزاد. في نهاية الأمر، انتهى المزاد لصالح كونديس دي ألباري، المالك الحالي. في العام 2008، جعل من الشراء نهائيا ورسميا وأقام احتفالا في القصر من أجل إعادة الحياة الطبيعية للشركة. في ذلك اليوم، وكيف لا، حضرت أمهات جمعية «انهض»، هادئات ومبتسمات وفخورات. كن هنّ نفسهنّ من كدن أن يخلعن بوابة القصر قبل عشر سنوات بينما كان حراس أوبينيا الشخصيين يتفرجون، وهم يحملون الرشاشات بأيديهم.

إن الزعيم وزوجته، إستير لاغو، سيتابعان بعد ذلك فورا الخطوات التي قاموا فيها في القصر. في العام 1997 حُكم على أوبينيا من جديد بسبب جريمة مالية عقب عملية نيكورا، في عملية الفجر، تلك التي قال فيها للعناصر بينما كانوا يكبلونه: «إن زوجتي ستقتلني». من الممكن أن لا يحتوي مضمون هذه الجملة على العرف الأسري الذي يتبادر إلى ذهننا، بل أن أوبينيا كان يعرب عن أسفه حقا لإفساده عملية تقودها إستير لاغو. إن زوجته، بحسب كل المحققين، كانت دائما العقل المفكر للعصابة. كانت تنسق الشبكة المالية وكانت تقود عمليات الإنزال في الظل. انتهت حياتها بشكل مأساوي في العام 2001، عندما تعرضت سيارتها لحادث.

بقي الدون لاوريانو سنتين تقريبا في السجن في انتظار الحكم، وخرج في أيلول/سبتمبر من عام 1999، عندما لم يكن متبقيا سوى أقل من شهر لإصدار الحكم. لم يضيع الوقت: حاول في الأسبوعين اللذين كان فيهما حرا طليقا أن يُهرِّبَ 15 طنا من الحشيش على متن سفينة الصيد ريخينا ماريس (التي كانت تبحر تحت اسم سان أندريس لأجل إخفاء هويتها)، وكانت ترفع علم هندوراس، والتي كانت قد غادرت سانت لويس (الولايات المتحدة) وعند الرأس الأخضر توجهت إلى غاليسيا.

صعدت قوى الجمارك إلى متن السفينة عندما كانت في عرض البحر، وقُطرت السفينة إلى مرفأ كاديس. سُميَّت هذه العملية، التي نعترف بعبقريتها، عملية الغسق، وأكملت عملية الفجر التي نُفّذت قبل سنتين.

في موازاة الصعود إلى متن السفينة، أوقفت الشرطة إسيتر لاغو في فيلاغارسيا، وفي فيلانوفا - وللمرة الأولى - أوقفت ابنها دافيد بيريس، الذي تحول في غضون سنوات إلى وريث إمبراطورية أوبينيا بطل أكثر مسلسلات دراما تهريب المخدرات شدة في غاليسيا. أُلقي القبض على 15 شخصا آخر. وحده الزعيم لم يسقط. إذ لم تتمكن الشرطة من العثور عليه في أي مكان، ووجه القاضي أمرا للبحث عنه والقبض عليه.

لقد هرب الدون لاوريانو، وأخذ معه ثلاثة أحكام معلّقة بسبب تهريب المخدرات: حكم بضاعة عام 1994 في مارتوريل مع المافيا الكورسيغية، وحكم عملية الفجر عام 1997، وحكم عملية الغسق. لقد أصبح الأمر بعهدة الإنتربول.

في سياق متصل، يقول صحفي يفضل عدم ذكر اسمه: «هرب في الظلام، ومن دون أن يفكر كثيرا، فقد كان يعرف ما كان آتيا من الأعلى». غادر الزعيم الأروساني إلى الأندلس في اللحظة المناسبة، حيث استقر في بلدة صغيرة. كان يتواصل فقط مع ابن زوجته، دافيد بيريس، ومن خلاله كانت الشرطة على وشك القبض عليه، لكنه عاد وهرب. حينئذ دخل إلى المشهد مهرب السلاح السوري منذر الكسار، واحد من تلك الشخصيات الغامضة التي تنتقل بين الواقع والخيال، وبين عدم القانونية وحماية الدول التي تحتاج سلاحا. نظريا، كان الكسار فارّا من سلطات المملكة المتحدة، فرنسا، وهولندا. لعله كان يشكّل نبعا من المعلومات للمخابرات الغربية لذلك كانت تحافظ على حصانته. في بداية التسعينات، نشرت صحيفة التييمبو تقريرا ورد فيه أن الكسار كان يزوّد إيران بالسلاح، وجبهة التحرير الفلسطينية، وميليشيا معارضة في نيكاراغوا. كان قطعة مرغوبة بسبب معارفه. كان اسمه قد ظهر في عملية نيكورا مربوطا بأوبينيا، الذي من المفترض أنه باعه سلاحا.

نمت أسطورة التعاون مع المخابرات التي يتباهى بها الكسار عندما طلبت منه الإنتربول أن يعقد اجتماعا مع أوبينيا لقاء التخلي عن بعض التحقيقات العالقة من الفترة التي كان فيها المهرب السوري يعيش في ماربيّا. اتصل الكسار بأوبينيا لكي يقدم له عرض بيع خردوات معدنية في روسيا، واتفق مع الزعيم على أن يلتقيا في الحادي والثلاثين من تشرين الأول/أوكتوبر من عام 2000، بعد 13 شهرا من فراره. حصل اللقاء في الغرفة رقم 315 في فندق بيلاغوس على جزيرة إيوبيا اليونانية، حيث كان أوبينيا يعيش باسم مزيف: السيد روميو. عندما حضر أوبينيا إلى الاجتماع برفقة ابن زوجته دافيد بيريس، وبدلا من أن يجد الكسار، التقى بعناصر من الأنتربول. بعد عدة أيام رُحِّل إلى إسبانيا.

يتابع الصحفي: «بعد الاعتقال، بدأنا أنا وعدد من الزملاء نشك أن ذلك كان من تدبير الكسار. بعد عدة أيام اتصل بنا غارسون وطلب منا عدم نشر هذه الاحتمالية». أكد القاضي هذا الشك من خلال هذا الطلب. ولكن الصحفي خوليو فارينياس في لا فوس دي غاليسيا، سوف ينشر تفاصيل الاعتقال معتمدا على حدسه الصحفي ومتجاهلا مطلب غارسون.

قضى أوبينيا السنوات الإحدى عشرة التالية خلف القضبان. عندما خرج، في حزيران/يونيو من عام 2012، داعبته نسمات الحرية فقط لمدة ثلاثة أشهر. في أيلول/سبتمبر عاد إلى خلف القضبان بسبب قضية لها علاقة بتبييض الأموال. وبقي أربع سنوات في السجن. يقول المدعي العام خافيير ساراغوسا، الذي يتذكر اليوم من مكتبه الزعيم الغاليسي: «كان كبش فداء. كان الأحمق الذي دفع ثمن كل شيء، وكانوا له بالمرصاد. كان أخرق جدا، وكان محاموه يخدعونه دائما. بدلا من أن يدمج بين أحكامه، قام بتنفيذ كلٍ حكم على حدة».

اشتهر أوبينيا في السجن في كونه السجين القدوة. دفع المحامي إلى عدة سجناء لا يصلهم أي دعم، وساعد في صيانة السجون. في العام 2004، رُسم النموذج الثالث لسجن ألكالا - ميكا، وكان ذلك على نفقته. في تلك السنة استأجر منزلا في غوادالاخارا لأجل بناته: أراد تسهيل زياراتهنّ وأراد ألا تقدن من غاليسيا. لا تزال الصدمة بعد حادث زوجته تثقل كاهل الزعيم الأروساني. قال في مقابلة مع الصحفي دافيد لوبيس: «عاملوني ولا يزالون يعاملونني أسوأ من أي إرهابي في العالم. مثل أسوأ قاتل ومغتصب. حتى أن واحدا من الإرهابيين قال لي إنهم يعاملونني أسوأ من معاملة أعضاء إيتا». إن زعيم قصر بايون، رمز التباهي والحصانة الذي نشأ في غاليسيا في يوم من الأيام، سيخرج إلى الحرية، في العام 2016 ما لم يوقع به أحد، وحتى ذلك الوقت، سيكون قد تحول إلى واحد من سجناء إسبانيا الذين قضوا أطول فترة وراء القضبان خلال فترة الحكم الديمقراطي: 26 سنة من 70.

محاكاة المافيا

«لا تتحرك يا بولبو، وإلا سوف نقتلك!»

«حسنا، اقتلوني».

الناركوبوليتيكا - سياسة المخدرات

في الخامس من أيار/مايو عام 1991، أشرقت في غاليسيا شمس واحد من تلك الأيام التي يستيقظ فيها سكان إحدى البلدات الساحلية، وينظرون إلى البحر، ويجدون كمية كبيرة من أكياس الكوكايين تطفو على سطحه. كانت الأكياس قد سقطت من الزورق المطاطي السريع الذي كان يقوده خوسه مانويل فاسكيس، الملَّقب «بيتورو»، عندما كان يحاول إيصالها إلى اليابسة في وسط بحر هائج.

كان بيتورو وصهره خوان كارلوس سوتيلو قد سافرا من كولومبيا على متن سفينة دوبيل، المحملة بطنين من كوكايين عصابة كالي. كانت المنظمات دائما تضع علامة على بضاعتها من أجل تمييزها، في هذه الحالة، كان هناك رمز دولار مطبوع على الأكياس. رغم استحالة إثبات الأمر، لكن من المحتمل أن سفينة دوبيل قد قامت برحلة أولى نحو ريبيرا لكي يقوم إلديفوندو تريوس كاستيلو[44] بإنزال قسم من البضاعة. أما ما نعرفه على وجه اليقين أنه عند وصول دوبيل إلى وجهتها مرفأ سيديرا (في كورونيا)، وجدت نفسها أمام أمواج عاتية كادت أن تلغي العملية. بغض النظر عن الصعوبات، قرر تجار المخدرات المجازفة ونقلوا الأكياس مربوطة في مؤخرة الزورق المطاطي، واحدا خلف الآخر، كباقة ثوم. في الوقت الذي كان يقترب فيه من الرصيف، خسر الزورق الأكياس بين الأمواج. عندما وصل إلى اليابسة، بقي على متنه 300 كيلو من أصل 2000. في اليوم التالي، وجد السكان ما كان قد ضاع في البحر من الأكياس.

وبحسب ما قال بعد سنوات، سلّم بيتورو 300 كيلو التي أُنقذت إلى «ثلاثة أشخاص ليسوا من غاليسيا». وضعوا الحمولة في سيارة[45] وانطلقوا من هناك. لم يكن من شأنه إلى أين كانوا ذاهبين: هو لم يكن ينسق العملية، كان فقط الناقل. أن العقلين المدبرين للعملية كانا مانويل كارباّيو وبابلو فيوكه، المحامي العضو في الحزب الشعبي المتورط في تهريب المخدرات. كان فيوكه مسؤولا عن شرح ما حصل لشركائهم في عصابة كالي. فأضاف القليل من مخيلته وقال إنهم خسروا كل الحمولة، مستثنيا الجزء الذي تم فيه إنقاذ 300 كيلو. حصلت فوضى بالتأكيد.

***

«بعد الظهر، فتحت بنوك «باسيو دي غراسيا» في برشلونة أبوابها لبابلو فيوكه. وصل إلى هناك، ولم يكن ينقص سوى السجاد الأحمر. إذا حصل الزعماء التاريخيون على عقل مدبر ومرشد، فسوف يتحول الوضع إلى صقلية. لا تشك في الأمر. كان يعلم بكل شيء: العدل، الجريمة، السياسة... وبالإضافة إلى ذلك، كان عديم المبادئ. لو كان قد وصل إلى فيلاغارسيا قبل 20 عاما، لكان قد أصبح

الرئيس». هذا ما يؤكده فيليكس غارسيا، رئيس ال- UDYCO في غاليسيا. ويتفق معه ضابط سابق في الحرس الوطني: «كان فيوكه الوحيد الذي يملك عقلا. أما الباقون فلم يلمع نجمهم قبل أن يصل».

وصل فيوكه إلى أروسا في العام 1975، آتيا من مسقط رأسه كاسيرس. كان نسيبه قد وعده بالحصول على عمل إذا ما أنهى دراسته في مجال الحقوق، في أحد المشاريع التي يستثمر فيها عائداته من لعب كرة السلة شبه الاحترافي. وفى النسيب بوعده وعرض عليه عملا في غرفة التجارة في فيلاغارسيا. أتت ترقيته سريعة، وبعد بضع سنوات بدأ يشارك في نبيذ ألبارينيو والبرنقيل مع رجال أعمال نخبويين في المنطقة، كانوا مهربي التبغ. كان الرجل المثالي: كانوا يدافعون عنه في المحاكم ويساعدونه على تبييض الأموال. بعد ثماني سنوات فقط من وصوله، أصبح فيوكه رئيسا لغرفة التجارة وكان قد سيطر على المجلس المحلي للحزب الشعبي، الذي كان يضمن له كمية كبيرة من الأصوات. لم يحصل على الشعار الذهبي ورايات الحزب كما فعل «تيريتو»، ولم يصبح أيضا عمدة فيلاغارسيا، كما فعل «نينه» بارال من بلدة ريبادوميا المجاورة، لكنه حصل على سلطة أكبر من كليهما، وكان يتمتع بعلاقات جيدة مع أعلى شخصيات الحزب. يقول قاضٍ يفضل عدم ذكر اسمه: «كان يمول الحملات الانتخابية ويساعد الأحزاب ماليا. كان يمول الجميعً، الحزب الشعبي، حزب العمال الاشتراكي، التكتل القومي في غاليسيا... كان يدفع لهم ديونهم، وكان يدفع لهم عن كل شيء». في تموز/يوليو من عام 1997، عندما كان مسجونا في كارابانتشيل، أخبر أحد الصحفيين أنه كان يريد أن يسحب الغطاء ويكشف كيف كان يموّل الأحزاب الغاليسية. أكد أنه يملك دلائل أنهم كانوا معنيين بمسؤوليات كبيرة في الحكومة المحلية، الحزب الشعبي وحزب العمال الاشتراكي على حد سواء. لم ترَ هذه الدلائل المزعومة النور مطلقا. يذكرنا تهديده بما قاله أوبينيا في إحدى مقابلاته منذ بضع سنوات:

«عندما انتقلنا إلى الديموقراطية التي يقولون إننا نعيشها (كما ورد)، ساعدتُ على تمويل التحالف الشعبي الخاص بالسيد فارغا، واتحاد المركز الديمقراطي الخاص بالسيد سواريس. وقمت بالعديد من الأعمال لهما على قدم المساواة، أكثر من الأعمال التي قمنا فيها في مجال التهريب. بالمناسبة، من هنا أذكُّر أولئك السياسيين أني لا أزال ذلك الشخص الذي كنت عليه في ذلك الوقت».

يتابع القاضي: «لم يصل الوضع في غاليسيا مسبقا إلى هذا التدني. لكن وصل إلى هنا تجار مخدرات يتمتعون بمسؤوليات سياسية عليا. ولا يزالون. لكن ما من أحد يتكلم عن هذا».

أصبح فيوكه أكثر رجل يشبه عضو مافيا صقلية رأته أروسا. في حفل زفافه الذي أقامه في دير أرمينتيرا في بونتيفيدرا في العام 1987، لم يغب أحد: من النبلاء ورجال الأعمال، إلى المهربين المارّين عبر مسؤولي الحرس الوطني والشرطة الوطنية. في مذكرة حول المحامي تاجر المخدرات، تحكي الصحفية إليسا لويس أن أحد المدعوين ذوي الثياب الموحدة، كبّل يدي العريس بعد سنوات من حفل الزفاف.

يتابع القاضي: «إن ما فعله فيوكه كان تحويل غرفة التجارة إلى مكتب مافيا. كان ينظم هناك اجتماعاته ويخطط لعمليات الإنزال واستراتيجيات الدفاع لصالح الزعماء... كان هدفه إنشاء نقابة

لتجار المخدرات وتنسيق كل شيء: عمليات تبييض الأموال، الرشاوى، عمليات الإنزال...، وكل زعيم من زعماء المنظمات كان صوتا في الجوقة. كان هذا أقرب ما رأيناه في غاليسيا من حالة المافيا». يتذكر عنصر من الشرطة أن غرفة التجارة كانت مثل صالون للأعمال والحفلات: «قضى هناك فارغا وفييخوو وقتا يتناولان المشروبات، وغيرهما الكثير...». عندما وصلنا إلى التسعينات، أصبح فيوكه هو المحور لكل شيء: قام مكتبه الحقوقي بالدفاع عن العصابات برسوم باهظة الثمن، وسيطر على الدائرة المتعلقة بريادة الأعمال في أروسا، وأدار السياسة حسب نزواته، ومرر سفنا مليئة بالكوكايين عبر منطقة المصب بين الحين والآخر.

***

إن فشل الوصول إلى سيديرا تحول إلى أفضل لحظات فيوكه. لعل ذلك يفسر الوقاحة (أو الحماقة) التي دفعته لكي يكذب على عصابة كالي. لم يبدُ الكولومبيون راضين بالشرح الذي قدمه المحامي، لذلك أراد فيوكه أن يتخلص من الـ 300 كيلو من الكوكايين التي أُنقذت من الغرق في أقرب ما يمكن.

منذ تلك اللحظة، بدأ يسير كل شيء على نحو سيئ مع تعيس الحظ فيوكه. ضبط الحرس الوطني كمية الكوكايين تلك في فالينسيا. إن ما لم يقدر فيوكه أن يتخيله هو أن الحرس الوطني كان سيعرض على وسائل الإعلام كمية الكوكايين المضبوطة. إن صور الأكياس، المكومة جيدا كقطع الطوب، خرجت على التلفاز. وخمنوا من شاهدها؟ أعضاء عصابة كالي المتمركزين في إسبانيا، الذين تعرفوا إلى الأكياس فورا، بسبب علامة الدولار المطبوعة على الأكياس الخاصة ببضاعتهم. كان هذا الدولار الذي شوهد على التلفاز دليلا على أن فيوكه كان قد كذب.

طلب الكولومبيون من فيوكه أن يطير إلى كولومبيا من أجل أن يقدم تفسيرات. لكن المحامي ورجل الأعمال والسياسي وتاجر المخدرات تمكّن من إقناعهم أن اللقاء سيحصل في إسبانيا، على وجه التحديد في بينافينته، في منتصف الطريق بين مكتب العصابة في مدريد ومصب أروسا.

سلكت الأحداث منعطفا قذرا وجبانا عندما أرسل فيوكه ممثلَين عنه من المتعاونين معه، خوسه مانويل فيلاس مارتينيس، أمين صندوق غرفة التجارة واليد اليمنى لفيوكه، ولويس خويغين فيلاس، رجل أعمال، وقريب خوسه مانويل وقريب لمانويل كاربايّو أيضا. ذهب الرجلان إلى بينافينته في السابع عشر من آذار/مارس من عام 1992 في سيارة بيجو 505. وصلا قبل الغذاء وجلسا ينتظران في حديقة أمام فندق موتا. اقترب منهما كولومبيان وبدأ الحديث. كما كان متوقعا، لم يكن هناك تفهم. وقبل إنهاء النقاش، أخرج واحد من الكولومبيَين مسدسا وأطلق رصاصة في عين خوسه مانويل فيلاس، أمين الصندوق، الذي انحنى جسمه إلى أحد الجانبين من دون أن يسقط عن مقعده. ثم ذهبا خلف لويس خويغين، الذي سمع أزيز الرصاص وأخذ يركض عبر الحديقة لكي ينقذ حياته. ثقبت إحدى الرصاصات سترته. لم يتوقف عن الركض حتى وصل إلى محطة توقف باص وأخذ أول باص يغادر نحو غاليسيا. أقلَّه بابلو فيوكه في السيارة إلى سانتياغو. من المفترض بأن فيوكه قد فوجئ بالأمر. إلا أن أرملة خوسه مانويل فيلاس أعلنت بعد سنوات أمام القاضي: «لقد أرسل فيوكة زوجي

إلى المذبحة».

في العام 1995، أُوقِف فيوكه، بسبب كل هذا الصخب الناتج عن سيديرا، ومعه 10 أشخاص آخرين. لقد أوقع به بفضل تحقيق محكم قام به الحرس الوطني على مدى أربع سنوات من العمل. عندئذ، في ذلك الوقت فقط، أقالوه من غرفة التجارة. لم ير تاجر المخدرات أي معوقات في كل ذلك وكان قد أُتخم. حضر إلى غارسون وحكى له كامل القصة التي سبق ووصفناها. بعد ثلاث سنوات من السجن المشروط، خرج فيوكه ينتظر المحكمة. ومثل أي زعيم جيد من منطقة المصب، حاول القيام بعملية تهريب فور خروجه إلى نور الشمس. أحضر 1800 كيلو من الكوكايين من فالينسيا إلى مدريد بواسطة شاحنة نقل خشب. في العام 2003 قبض عليه وحكم بالسجن لثماني عشرة سنة. قبل أيام من إصدار الحكم، هرب ثلاثة من شركائه، من بينهم لويس خويغين (الناجي من إطلاق النار) ومانويل كاربايو إلى أمريكا اللاتينية. كما نعرف، عاد كاربايو بعد سنتين وسلم نفسه قبل أن يموت بسبب مشاكل في القلب، أما خويغين فلا يزال فارا حتى يومنا هذا، وتعتقد الشرطة أنه يعيش في الأرجنتين، حيث لجأ إلى هناك بعد محاولة اغتيال.

لم تنتهِ هنا السيرة السينمائية لبابلو فيوكه. عندما دخل إلى السجن، كانوا قد شخصوا إصابته بسرطان في القولون، لكنه أراد أن يضرب ضربته الأخيرة. بعد أسبوع فقط من دخوله إلى سجن سوتو دي ريال، أولى الكولومبي دييغو ليون كاردونا (رفيقه في الزنزانة) أن يدبّر اتفاقا مع قاتل مأجور لقتل خافيير ساراغوسا، الذي كان في ذلك الحين في النيابة العامة لمكافحة المخدرات، واليوم أصبح رئيسا لقوى الجمارك. اتصل كاردونا بصديق مقرب كان في الخارج، وعقد الأخير اتفاقا بدوره مع رجل إكوادوري، الذي حصل على الأسلحة ودفعة من المال وصور لساراغوسا. تبين أن الإكوادوري كان متعاونا مع الحرس الوطني. نفى فيوكه تورطه في ذلك وقال إنها مؤامرة. وتضاعفت سنوات حكمه.

في العام 2009، نال عفوا لكي يذهب ويموت في المنزل عندما وصل السرطان إلى مراحله الأخيرة. توفي يوم السبت في الرابع والعشرين من كانون الثاني/يناير، بالرغم من أن كثيرا من عناصر الحرس الوطني في غاليسيا يؤكدون من باب المزاح أنه لا يزال حيا. لم يثقوا بالخبر بعد أن كان فيوكه يفتعل الألاعيب طيلة ثلاثة عقود تقريبا.

القانون المخدَّر والقضاء المخدَّر

يقول ضابط قديم في الحرس الوطني: «هنالك وقت منعت فيه مدريد تمرير أي معلومة إلى غاليسيا». خلال عدة سنوات، كانت الوحدات المركزية لمكافحة المخدرات في الشرطة الوطنية وفي الحرس الوطني، مثل القضاة والمدعين العامين، على علم أنه من غير الممكن مشاركة المعلومات مع السلطات الغاليسية. إن آذان التهريب، في البداية، ومن ثم آذان تجارة المخدرات، كانت قد أحاطت بالساحل الغاليسي ووصلت إلى مؤسسات سانتياغو، كورونيا، وبونتيفيدرا. كان لتجارة المخدرات تشعبات بين المحامين والعُمد والحرس الوطني ورجال الأعمال، وبسببهم جميعا كانت غاليسيا في حالة حظر لسنوات كثيرة: أي معلومة تصل من مدريد، كانت تنتقل من فم إلى آخر. ولا يزال الحظر مستمرا إلى يومنا هذا. بالرغم من أن تجارة المخدرات لا تملك تلك القدرة والتأثير، لكن قضايا عناصر يقومون بتبادل المعلومات السرية لقاء زيادة في الرشوة لا تزال تخرج إلى النور.

غيّر خوسه لويس أورباِيس تكليفه في الحرس الوطني من شؤون التجارة وانتقل إلى شؤون التهريب في الثمانينات. في البداية، كان بمثابة مخبر عادي، لكنه لاحقا تحول إلى شريك لآل تشارلين. كان هو من سافر في العام 1983 إلى فايادوليد من أجل لقاء سيليستينو سواريس وعاد بعد أن تعرض للضرب المبرح (تلقاه من عناصر آخرين في الحرس الوطني)، وكان هو من رافق «الكبير» في عملية سواريس ووضعه في غرفة تبريد. كان شريكا ومتعاونا مع بابلو فيوكه، الذي انتهى به المطاف بأن يخوِّن من يشاء أمام غارسون من أجل تخفيض مدة حكمه.

في شهر حزيران/يونيو من العام 1991، عرض أورباِيس بيكوس على عصابة كالي إحضار طنين من الكوكايين. قام بذلك من خلال ألفريدو بيا غوندار، عمدة غروفه الذي رشحه التحالف الشعبي عامي 1983 و1991 (حيث حقق في الانتخابات الأخيرة فوزا كاسحا بأغلبية الأصوات، وهو الذي سبق له أن اتهم بالاتجار بالمخدرات، وعلى الرغم من ذلك، ظل يومين فقط في مسؤوليته)، الذي وافق على العرض واتصل بمانويل غونساليس كروخيراس «كارايان»، الذي نعرفه من حقبته كمتعاون مع سيتو منيانكو[46]. بعد عشر سنوات، في عام 2001، حوكموا جميعا.

في العام 1996، سقط الشرطي العتيق الكفؤ بعد أن صعدت قوى الجمارك على متن السفينة أنيتا في فيغو، وقد كانت محملة بـ 1100 كيلو من الكوكايين الآتي من كولومبيا. يقول غونساليس روبليس بفخر وسرور، والذي كان في وقتها مندوبا في الخطة الوطنية لمكافحة المخدرات: «كانت العملية الأكثر أهمية فقد فككت شبكة لواريانو أوبينيا». من المناسب الافتراض أن روبليس لم يشِك بأن شبكة أوبينيا - بعيدا من كونها قد أضحت مفككة - إلا أنها كانت تتابع العمل في عمليات إنزال مختلفة.

عندما دقت ساعة المحاكمات، في العام 2003، أتى أوربايس بيكوس على نحو خاطف، وأخبر غارسون بكل ما حصل: عرى «الكلب» وأكد أنه شارك مجبرا من قبل الشرطة الوطنية، التي اقترحت عليه - كما ادعى - أن يكون متعاونا. بعد ذلك، قال إن الشرطة تركته يسقط، وأنه لم يقدر أن يمضي قدما بسبب الخوف من انتقام الكولومبيين. لم تنجح خطته، وحُكم عليه وعلى «الكلب» بالسجن لمدة عشرين سنة. كان يجدر إضافة تسع سنوات إلى هذا الحكم بسبب محاولة تهريب ثلاثة أطنان ونصف من الحشيش في العام 1996 على متن سفينة الصيد البونتيفيدرية إستيرلا دو مار (=نجمة البحر). قبل أن ينفذوا عملية الإنزال تلك، تعرض أوربايس بيكون لذبحة قلبية، لكنه وجد سريعا من يستبدله في العملية: ابنه خوسه لويس أوربايس كينتانس، الذي تبين أنه خير سلف. في العام 2008، أوقفت الشرطة أوربايس الصغير وبحوزته 275 كيلو من الكوكايين على متن سفينة من البحرية الإسبانية، التي كانت تأتي من كولومبيا وتمر عبر مارين. حُكم عليه بالسجن لست سنوات، لكنه اختفى في اليوم الذي كان عليه الدخول فيه إلى السجن، يوم الميلاد عام 2004. وهو لا يزال حتى يومنا هذا متخفيا: مات أبوه، أوربايس بيكوس - الشرطي الذي كان يفترض به أن يكون إلى جانب العدالة - بعد ثلاث سنوات من مشاكل في القلب.

كان سقوط «الكلب» بمثابة تحذير للزعماء في التسعينات: لطالما كان يتجنب التباهي. كان متحفظا وقليل الكلام، واعتقد السكان أنه كان عميلا للشرطة. أخوه فينتورا كان أقل تحفظا، ولم يكن لديه أي مشكلة في إظهار نجاحاته الآتية من المخدرات. أما أخوهما الثالث فكان ينفر منهما، سئم من تشارك اسم العائلة معهما كما لو أن هذا الاسم تهمة ثابتة. انتهى به المطاف مغيرا اسمه إلى اسم ورشته الخاصة بالإطارات. وكذلك الأب - العامل المحترم والشريف - لم يكن لديه علاقة مع ابنيه المجنونين غير الراشدين. اختار «الكلب» وفينتورا طريقا بعيدا عن التقليد العائلي. في ذلك الصباح، بدلا من الإطارات، بدأ «الكلب» يهرب أكياس الكوكايين. وكان يضعها أسفل القوارب الخشبية التي كانت تنتظر البضائع وهو واقف عليها. كان كل شيء يجري على أكمل وجه، تقريبا.

لم يكن بيكوس الوحيد الذي خرج من الخندق. «يجب علينا تخيل الأمر، كان هناك كثير من الفساد في الجسد الغاليسي. خذ بعين الاعتبار أن كثيرا من الشباب كانوا من هناك، وكان أقرباؤهم أو جيرانهم تجار مخدرات، ولم يريدوا إنكار ذلك». هكذا علّق ضابط من الحرس الوطني، الذي كان في خطوط المواجهات الأولى في تلك السنوات.

في العام 2002، أوقف أربعة عناصر من الحرس الوطني كانوا مكلفين في سانخيخو، سرّحوا من العمل بسبب القيام بخمس اجتماعات (تم كشفها من قبل قوى الجمارك) مع منظمة سيتو مينيانكو بالقرب من مقبرة ميس. لقد حضر الزعيم شخصيا أحد تلك الاجتماعات. دافع العناصر عن أنفسهم مؤكدين أن الموضوع كان يتعلق بأمور مهنية شكلت جزءا من تحقيق. لم يتوصل القاضي لمعرفة حقيقة تلك الاجتماعات، الأمر الذي خفض الحكم إلى سنة. لقد اعتبرت المحكمة العليا أن تلك اللقاءات «تنتقص بشكل خطير من كرامة الحرس الوطني».

لم يختلف المشهد كثيرا في يومنا هذا، لكن التحذيرات لا تزال تتصاعد. في العام 2012، أُوقف خوسه ألفاريس لورينسو في عملية إسبارتانا (الإسبرطية)، وهو ضابط في الحرس الوطني في

كوركوبيون. لقد حاول، مع الأخوة فيليس، وراثة عصابة كالي، أن يُهرّب 108 أكياس على متن الباخرة البلغارية س.في. نيكولاي، وهي سفينة ضخمة بطول 114 مترا، والتي لم تكن تحمل على متنها أي شيء آخر: نقلوا الكوكايين على متنها من دون إخفائه بأية حمولات أخرى. كان الضابط ألفاريس أوتيرو مقتنعا أنه خلال السنوات العشر التي عمل فيها على شاطئ الموت أصبح مسيطرا على كل شيء، من الجمارك إلى الحرس الوطني. كان صدى الشائعات يتردد في البيئة البوليسية، بالرغم من أنها لم تُؤكد على الإطلاق. كان لقائد موقع كوركوبيون في ذلك الوقت مواقع ثابتة عديدة على الشاطئ، بما في ذلك نادٍ في كيه حيث كانت تباع المخدرات بشكل مستمر. لقد تأكد كثير من الناس أن ألفاريس أوتيرو كان يقوم بخدمات مراقبة للعصابات، ويحذرهم من الكمائن المحتملة ويمسح منطقة المصب. لذلك، عندما قبضوا على نيكولاي لم يفاجأوا بالأمر، وربما أيضا لم يفاجأوا عندما أُلقي القبض على زوجته روفينا بالاسين قبل أشهر بتهمة تبييض الأموال.

«ما أدركه الآن أن المشاكل قد قل عددها. سابقا كان هناك كثير منها، لكن الوضع الآن أفضل ولم يعد هناك فساد. يا رجل، لطالما كان هناك خراف سود. لكني أعتقد أن ذلك يحصل في كل مكان. لم يعد هناك من شيء يميزنا الآن». يقول عنصر شاب في الحرس الوطني عيّن حديثا في منطقة الرياس بايخاس.

أُوقف اثنان من تلك الخراف السود في آب/أغسطس من العام 2013. دييغو فونتان، من غروفه، وخافيير لوبيس، من قيادة بونتيفيدرا. اتهما بتسريب معلومات إلى العصابات. تولد الشك بسبب عملية تصدٍ لعملية تهريب أوقفها تجار المخدرات من دون سبب وحتى قبل أن تنتشر العناصر على الأرض. اعترف لوبيس أمام القاضي أنهما كانا يبيعان المعلومات لأفضل مشترٍ، واكتشف الحرس الوطني أنهما سربا معلومات لخمس عمليات على الأقل. بدوره، رفض دييغو فونتان، مدير النادي الشهير «نادي المحيط الصيفي» في سان فيسينته دو مار في غروفه، التعاون مع القاضي. في شباط من العام 2004، أوقفت الشرطة عنصرين آخرين بسبب تسريب معلومات إلى تجار المخدرات. والجميع هم في انتظار الحكم.

إن القدم الثالثة للدولة لم تتحرر من موجة ضغط تجارة المخدرات في غاليسيا. بالإضافة إلى السياسيين والسلطات، لقد سادت ثقافة تجار المخدرات حتى في ممرات المحاكم نفسها. في الثمانينات، عُرف عن القاضي خوسه ماريا رودريغيس هيرميدا في قصر عدل بونتيفيدرا بأنه ينظر بعين العطف عندما يكون المتهم مهربا.

يقول محامون إن أي قضية يتدخل فيها رودريغيس هيرميدا تصبح «إيجابية الريزوس»، حتى لو لم يستلم القضية بنفسه. في النهاية أُوقف القاضي في العام 1984، بسبب اتهامه بقبول رشى لقاء تحرير رئيس الكامورا أنتونيو بارديلينو. كان الزعيم النابولي مسجونا في كارابانتشيل في العام 198، ومنحه هيرميدا إخلاء سبيل لقاء كفالة مالية ضئيلة بلغت 5 ملايين بيزيتا. دفع بارديلينو، وخرج، ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

كان فرانيسيكو فاليسيكو نييتو من فيلاغارسيا يعمل في مكتب فيوكه، وهو من دافع طوال

سنوات عن لاوريانو أوبينيا وعن زوجته، إستير لاغو. مات جراء ذبحة قلبية في عام 2004، عن عمر يناهز الثانية والخمسين. يتذكره السكان لأنه كان دوما يرتدي قبعة ذات نطاق ضيق. إن القضاة وزملاء المحامي يحتفظون بصورة له أقل جمالا، كرجل كان ينسف أي عملية تفتيش بل إنه كان يتدخل في العمليات. مدعيا أنه كان يقوم بعمله فقط، وقد حكم عليه في عام 2001 بتهم الجمع بين صفة المتهم والموكل، وانتهى به المطاف مسجونا بسبب تبييض أموال أوبينيا.

شكل فاليسكو نييتو جزءا من مجموعة معروفة باسم «جار المخدرات المحامين»، ينتمون في غالبيتهم إلى مكتب فيوكه، لقد اتهم معظمهم بالتواطؤ مع المهربين والاتجار بالمخدرات. إن الصورة التي تصفهم على أفضل وجه هي التي رسمها الصحفي بيرفيكتو كونده في العام 1988. يمكن أن نرى فيها فاليسكو نييتو على أبواب قصر عدل كوركوبيون محاطا ببحارة سفينة سميث لويد، سفينة محملة بالتبغ المهرب إلى السواحل الغاليسية، والمحامي يدفع أوراقا نقدية للطاقم من أجل دفع الكفالة.

لقد دافع عن أوبينيا خيرالدو غايوسو مارتينيس، والذي حكم عليه في نهاية المطاف بسبب تهريب الحشيش، وآنا سولير، التي انتهى بها المطاف إلى مشاركة قفص الاتهام مع الزعيم الأوروساني عندما اتهم هذا الأخير بتبييض الأموال. يقول أحد الصحفيين: «بشكل عام، كان المحامون يستنزفون دمهم، كانوا يقبضون مبالغ هائلة من الزعماء. حتى أن أوبينيا كان قد دفع لهم 10 ملايين بيزيتا (60 ألف يورو) من أجل الذهاب إلى مدريد وحضور جلسة استدعاء، وإن لم يتكلموا فيها».

عنف المخدرات

«كنا في حفلة في كامبادوس. في مركز البلدة، في نادٍ يروق لنا. خرجنا للحظة ورأينا ثلاث فتيات ينظرن إلى نافذة إحدى السيارات. قلن لنا شيئا ما، اقتربنا ووجدنا شابا مقتولا خلف المقود. كان الدم يغطي وجهه، وفمه مفتوح، وهناك مسدس على المقعد المجاور. بدأ الناس يتوافدون، وفي غضون لحظات طوق الناس السيارة، كان الجميع يرغبون في رؤية الشاب القتيل. قال أحدهم: «تصفية حسابات!» بعد ذلك وصلت الشرطة، أما نحن فعدنا أدراجنا إلى النادي، وتابعنا الحفلة. ليس لأن الموضوع كان عاديا، بل لأنهم إن أرادوا تصفية بعضهم فليس لنا علاقة». هذه الحادثة أخبرتنا بها فيرونيكا، من سكان فيلاغارسيا والتي فضّلت استخدام اسم مستعار. إن الجثة التي رأتها في تلك الليلة كانت جثة أنتونيو تشانتادا، الملقب «توتشو فيريرو»، الذي كان قد قتل دانيليتو كاربايّو[47]، ابن مانويل كاربايّو والذراع اليمنى لـ «سيتو مينيانكو». كان دانييليتو يتناول كأسا مع روساليندو أيدو في نادٍ في فيلاغارسيا، وهو مكان اعتاد تجار المخدرات الشباب اللقاء فيه في أروسا، دخل من الباب «توتشو فيريرو» وقد أخفى مسدسا برازيليا عيار 38 على ساقه تحت بنطاله. كان قد خرج للتو من السجن وكان محبطا، ومدمنا، وكان دانييليتو يدين له ببعض المال. والأهم من ذلك: بينما كان يعد أيامه في السجن، سلبه دانييليتو حبيبته.

لم يقل توتشو فيريرو أي كلمة. ومن بين الزبائن الذين كان النادي يحتشد بهم، وقف أمام الطاولة، وأطلق رصاصة على حنجرة الذراع اليمنى لـ «سيتو». بينما كان يعيد تلقيم سلاحه في وسط تدافع الموجودين وصرخاتهم، قفز روساليندو أيدو وأطلق ساقيه للريح. سبقته رصاصة واستقرت في كتفه، لكنه هرب.

بعد ذلك، خرج توتشو من النادي وقاد حتى كورفيّون، خارج كامبادوس. ركن سيارته أمام مطعم باومار للبيتزا، أمسك مرة أخرى بالمسدس الذي أطلق منه النار على دانييليتو ودخل المحل. وجد خوان خوسه أغرا[48] مع ابنته ذات الثلاثة أعوام. وجه المسدس إلى صدره وأطلق عليه النار أمام عينيْ طفلته. بعد ذلك، خرج توتشو وتوجه إلى هدفه الثالث، رافايل بوغايّو «مولو»، وهو تاجر مخدرات كان قد عمل لصالحه. ذهب إلى بار في كامبادوس حيث اعتاد الزعيم أن يتوقف، لكن الزعيم لم يحضر لسبب ما إلى هناك تلك الليلة. دخل توتشو يبحث، لم يجد أحدا، ثم غادر. نجا «مولو» بريشه. حينها قرر توتشو أن يركن سيارته في مركز بلدة كامبادوس، إلى جانب نادٍ مشهور مزدحم بالشباب، وانتحر برصاصة أطلقها في فمه. وجدت فيرونيكا وشباب آخرون الجثة بعد دقائق من ذلك.

دُفن توتشو فيريرو ودانييليتو في اليوم نفسه، وهما كانا قد عاشا طفولتهما في الشارع نفسه

تقريبا. سار الموكبان الجنائزيان في نفس المسار مع فارق نصف ساعة بينهما. القاتل والمقتول. علقت النعوات إلى جانب بعضها البعض على جدران فيلاغارسيا.

صدمت اغتيالات توتشو فيريرو وانتحاره المجتمع الغاليسي. حتى أكثر من جريمة بينافينته التي حصلت قبل عام والتي قتل فيها الكولومبيون أمين صندوق غرفة تجارة فيلاغارسيا. يقول إنريكه ليون، مدير قديم لل- UDYCO في غاليسيا: «لكن بالرغم من عدد العصابات وكميات المخدرات التي كانت موجودة هنا، كان العنف قليلا». يتفق المدير الحالي، فيليكس غارسيا، مع زميله ويقول: «إن التفسير الذي يقبع خلف عدم وجود كثير من العنف ربما أنهم لم يرغبوا بإثارة كثير من الضوضاء. يعرفون أن كل موت يكلفهم الملايين، لأننا سندخل مع مسدساتنا وعندها سيتوجب عليهم التوقف عن العمل لبعض الوقت. إنه مثل تقليد عندهم: علينا أن لا نلجأ أبدا إلى القتل. بالرغم من أنهم كانوا أحيانا يتخلون عن هذا التقليد». توضح هذه النظرية أيضا لماذا لم يسيروا مطلقا ضد السلطات. يكمل فيليكس: «لم يتجرأوا. كانوا ولا يزالون يعرفون أنها حرب خاسرة. لم يقوموا هنا قط باغتيال قضاة أو شرطة. لذلك يبدو القول إن غاليسيا أصبحت مثل صقلية هو أمر مبالغ فيه».

يقول إنريكه ليون: «بالرغم من ذلك، لم يخلُ الأمر من بعض العنف، خاصة بين العصابات الصغيرة، وذلك من أجل تصفية بعض الأمور، لكن العصابات الكبيرة كانت ملتزمة بالتقليد وتعرف مصالحها. ولم تنحرف بهذا المجتمع إلى طريق العنف مطلقا. لم يكن هناك أي تصور عن وجود عنف هنا. أنا لم ألتقَ بأحد قال لي إنه كان هناك عنف». وتؤكد على ذلك أيضا فيرونيكا من فيلاغارسيا: «لم يحصل ذلك معنا، لم يحدث مطلقا. لقد وقعت بعض الأحداث، إنهم متوحشون جدا، ويستشيطون غضبا بسرعة. أتذكر أمرا حصل منذ سنوات عدة، كنا في فصل الصيف، حيث كادت سيارتان أن تصطدما على إحدى المستديرات عند مدخل إيّا في أروسا. داس السائقان على الفرامل وبدآ يصرخان ويشتمان. أخرج أحدهما مضرب بيسبول، لكنه أعاده فورا إلى مكانه، لأن السائق الآخر أخرج مسدسا». تبتسم فيرونيكا ابتسامة احتقار لتجار المخدرات. «لكن ذلك العنف كان بين التجار أنفسهم، ولم يمسوا بالأذى أحدا من العامة، بالطبع ما لم يدس أنفه في الأمر، فإنه عند ذلك يصبح طرفا. القاعدة، إذا كنت هناك، فلا تتدخل. لم أكن أشعر بالتهديد مطلقا».

يمكننا القول انطلاقا من الإحصاءات إن الثلاثين قتيلا الذين خلفتهم تجارة المخدرات في غاليسيا منذ مطلع التسعينات حتى اليوم[49] هو أقل من المتوقع من نشاط تقوم به عصابات تدور خارج مدارات القانون، والتي تعمل مع العصابات الكولومبية، والتي تسعى وراء أكبر كمية ممكنة من المال. بالإضافة إلى ذلك، وكما سبق ورأينا، نادرا ما كانوا يخدعون بعضهم البعض. إلا أن ثلاثين قتيلا ليس أمرا هينا. لقد أثر ذلك على منطقة المصب بطريقة أو بأخرى.

بعد أشهر من عملية الصيد التي قام بها توتشو فيريرو في العام 1993، عثرت الشرطة على بقايا لويس أوتيرو وإيوخينيو سيمون، مهربي مخدرات منزوعي الكافيين[50] من كانغاس دو موراسو، واللذين ظهرا مقطعين في حفرة صرف صحي في ميس يغطيهما الجير. حددت تحاليل الحمض النووي بقايا لويس أوتيرو، والذي كان بسببه إيوخينيو سيمون قد اختفى رسميا منذ ذلك الوقت. اتُّهم بالجريمة أنتونيو سيلفيسترو، مالك الورشة حيث كانت حفرة الصرف الصحي. على ما يبدو، كان

رجل الأعمال يدين لتجار المخدرات بسبعة ملايين بيزيتا، وبدلا من الدفع، فضل أن يتعاقد مع قاتلين مأجورين لكي يردوا الدين. إن نقص الأدلة أدت إلى تبرئة كل المتهمين، وأصبحت جريمة ميس جريمة بلا قاتل متهم.

بعد سنتين، في العام 1995، ظهرت جثة مانويل بورتاس في حمامات شاطئ لانسادا وقد مزقها الرصاص. لقد أطلق أندريس مينينيو عليه النار، وكان يدين له بمبلغ 12 مليون بيزيتا. لقد نجح شريك بورتاس، كارميلو باولو بالخروج راكضا من الشاطئ بعد أن تلقى جسده رصاصتين. بعد بضعة أيام، في غابة في فيلاغارسيا، ظهرت جثة آنخيل غارسيا كايرو. اكتُشفت جثته المشنوقة من قبل رجال إطفاء حرائق الغابات بينما كانوا يقومون بإخماد إحدى الحرائق. كان قد اختفى منذ شهور وكان يدين بـ 77 مليون بيزيتا للعصابات.

كان خوسه مانويل رودريغيس، الملقب بولبو، المتهم بعملية تصفية الحسابات التالية في عام 199. دخل فجرا إلى نزل في فيلابوا، في بونتيفيدرا، وقتل بمسدس مزود بكاتم للصوت ثلاثة من تجار المخدرات الصغار من فيغو، والذين كانوا يدينون له ببعض المال. أوقفته الشرطة بعد أيام في حي كاربال بعد ملاحقة جرى خلالها تبادل لإطلاق النار.

كان هناك ثلاث ضحايا آخرون في تلك السنة، من العصابات الصغرى، سقطوا بسبب الديون. عثر على جثث امرأتين ورجل مقتولين بطلقات في الرأس على شاطئ كابانيلاس، في ريبادوميا. في الحقيقة، كانت الفتاتان آنخيلا باريرو ودولوريس غوميس عابرتي سبيل هناك، يرافقهما فرانسيسكو سان ميغيل، الذي كان لديه حساب عالق مع فرانسيسكو راي، الذي أطلق النار بعد حوار حاد. في السنوات الخمس التالية، قُتل شخص كل سنة. أحد القتلى كان خوان فريره، متعاون من عصابة اللولو، ظهر محترقا في سيارته في كيه. حصل الأمر عينه مع كوريس كالديلاس، فقد عثر عليه محروقا في عربته إلى جانب طريق في كالداس دي ريس.

يقول آبيل، وهو من سكان فيلاغارسيا: «لم تؤثر تصفية الحسابات مطلقا على حياتنا اليومية، لكنها خلقت صيتا. لم يكن للعنف هنا أي تأثير، بل المخدرات. ما يحصل هو أن تلك الأشياء تظهر على التلفاز ويظن الناس أن هذا هو الجحيم». منذ سنوات كان آبيل يؤدي خدمته العسكرية في مدريد. «أصبحت صديقا مقربا لشاب من ألباسيته. دعوته لتمضية عدة أيام في غاليسيا، كنت أرغب بذلك ولم أكن أعرفه. قبل يوم من قدومه، رأينا على التلفاز أخبار اغتيال دانييليتو كاربايّو في النادي. نظر إلي صديقي وقال لي: اللعنة، ما هذا! لن أذهب إلى هناك، إنها صقلية. وبالفعل لم يأتِ الوغد».

خلفت السنوات الأخيرة مزيدا من الضحايا. في العام 2011، أُطلقت النار على تاجر مخدرات صغير في بروبا دو كرامينيال، لقد فارق الحياة بعد وقت قصير من وصوله إلى المستشفى. بعد أشهر، شاهد سكان غروفه مصدومين إطلاق نار من سيارة على شاب يمشي في الشارع، أصيب الشاب إصابات بليغة. وقد اختتم العام، بالمشهد الشهير لمصفف الشعر الذي قفز من النافذة في كامبادوس. حصل ذلك في كانون الأول/ديسمبر: حضر قاتلان مأجوران إلى صالون مارين كاسترو، أما ذاك، فبعد أن رأى نفسه محاصرا، هرع نحو النافذة. أصيب بخلع في المعصم ودار تحقيق حول

دين محتمل.

لم تقتصر أعمال العنف بين العصابات فقط. في مطلع التسعينات، ظهر منافس غريب في وجه تجارة المخدرات في غاليسيا: مليشيا شعب غاليسيا الحر (EGPGC)، منظمة تدعو لاستقلال غاليسيا والتي كانت قد شنت خلال تلك السنوات بعض الهجمات على العصابات وعلى مصالحها. اعتُبر الاتجار بالمخدرات في مسار طريق الـ EGPGC كسرطان في وجه الأهداف القومية الغاليسية، ونتيجة لذلك، كان من الضروري على تلك المنظمة أن تعمل على تدميره. لقد نفذت المنظمة عدة اعتداءات بالمتفجرات في كامبادوس، فيلاغارسيا، فيلانوفا، بونتيفيدرا، وكورونيا، ولم تسفر هذه الاعتداءات عن ضحايا. وكان أحدها قد استهدف الشركة السابق ذكرها لوساو، في كورونيا، حيث وضع الزعيم الكولومبي ماتا باجيستيروس أموال العصابة من أجل تبييضها.

كانت نتائج إحدى هذه الهجمات وخيمة. في الحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر من عام 19، زرعت المنظمة قنبلة في ديسكوتيك كلانغور في سانتياغو دي كومبوستيلا. وكما أعلنت المنظمة، فإن شبكة من تجار المخدرات كانت تملك النادي، ولكن ذلك كان تفصيلا غير مهم مقارنة بالنتيجة، كان يفترض بالقنبلة أن تنفجر عندما يكون النادي قد أصبح فارغا من مرتاديه، لكنها انفجرت قبل الوقت المحدد، فمات المهاجمان وأصيب 49 شخصا، بعد ذلك أصدرت منظمة ميليشيات شعب غاليسيا الحر بيانا ذكرت فيه أنهم ارتكبوا «خطأ بشريا» وأنهم «يتفهمون» الألم الذي سببوه.

إلى قبر مفتوح

«أقدر أنه بين عامي 2001 و2003 دخل عبر غاليسيا 150 طنا من الكوكايين».

2001-2003: جنس تجارة المخدرات الجماعي في غاليسيا

في افتتاحية أحد أعداد جريدة إل بايس الصادر في 5 تموز/يوليو من عام 2003 ورد التالي: «لم يتوقف طوفان الكوكايين. إن الحرس الوطني وقوى الجمارك ضبطوا أول من أمس حوالى ثلاثة أطنان من الكوكايين بعد صعودهم على متن سفينة صيد في وسط الأطلسي، والتي كانت قد انطلقت من فنزويلا باتجاه منطقة المصب في أروسا (بونتيفيدرا) لإيصال المخدرات. رفعت الكمية المضبوطة، وهي السادسة في المنطقة نفسها منذ الحادي والثلاثين من آذار/مارس - كمية الكوكايين المضبوطة في إسبانيا خلال ستة أشهر إلى عشرين طنا. فقط في العام 2002، تم ضبط 17616 كيلو».

قبل سنتين من هذه الملحمة، في العام 2001، سمّى وزير الداخلية حينها ماريانو راخوي تلك الشهور باسم «سنة تجارة المخدرات السوداء في غاليسيا».

يعلّق أحد ضباط الحرس الوطني الذي كان في الخدمة خلال السنوات الثلاث 2001 و2002 و2003: «كان ذلك هائلا».

وتضيف صحفية متخصصة: «كانت السنوات الأكثر سوءا بالنسبة إلى تجارة المخدرات في غاليسيا». لقد ضبطت السلطات في العام 2001 ما يصل إلى 31 طنا من الكوكايين التي حاولت العصابات الغاليسية إدخالها. وصلت الكمية إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه في السنة السابقة وسجلت رقما قياسيا تاريخيا، حسب سجل الخطة الوطنية لمكافحة المخدرات. وهذا ما يؤكده القاضي خوسه أنتونيو فاسكيس تاين: «إجمالا، في تلك السنوات الثلاث، صودر 54 طنا من الكوكايين». ويضيف: «أقدُّر أنه بين عامي 2001 و2003 دخل عبر غاليسيا 150 طنا من الكوكايين».

لماذا؟ ما من إجابة علمية على هذا السؤال، وهل هناك بعض العوامل التي ساعدت على فهم السبب الكامن وراء كون تلك السنوات الثلاث على تلك الحال، ولماذا كان هناك كثير من عمليات الإنزال، وكثير من الأطنان والعمليات البوليسية. ولماذا فتحت في تلك السنوات أبواب الجحيم بين تجار المخدرات الغاليسيين والسلطات.

أولى تلك العمليات كان لها علاقة بالرجل السابق ذكره القاضي خوسه أنتونيو فاسكيس تاين، والذي أصر على وضع نفسه في مواجهة العمليات ما جعل منه كابوس العصابات الكولومبية. لقد سلّم مقاليد الأمور في العام 2001 - أو بالأحرى ضم إلى صفوفه - القاضي غارسون وغيّر الآلية. عزز

تاين ساحة المعركة ووضع طريقة جديدة لمواجهة تجارة المخدرات الغاليسية. لم يتتبع العصابات فقط، بل هاجم محيطهم بالكامل: الشركاء، والمحامين، والمستشارين، حتى ورشات الزوارق المطاطية، والمزودين، ومحطات الوقود، والمخازن، والناقلين.

أُرسل تاين (المولود في أياريس، أورنسه) إلى فيلاغارسيا كأول وجهة مهنية له. بعد أقل من نصف عام كان يقود أربع عمليات ضد العصابات. لم يكتفِ فقط بالوصول، بل اقتحم أروسا. ولم يكن هذا سهلا بالنسبة إليه. أول حكم له - الذي زج بستة من تجار مخدرات غاليسيين في السجن، كانوا ينقلون ثلاثة أطنان من الحشيش على متن القارب الشراعي تشاد باند - كان قد أُبطل من قبل قوى الجمارك. وهو ما دعاه المدعي العام المكافح للمخدرات خافيير ساراغوسا بـ «الأمر الذي لم يسبق له مثيل». في النهاية، تداركت المحكمة العليا الأمر وثبتت الحكم الذي أصدره تاين. لقد كان الحكم الأول وبعده كرت السبحة.

أضاف القاضي إلى استراتيجيته الجديدة قوة عندما أخذ ينسق مع خفر السواحل، وهكذا تضافرت جهود قوى الجمارك والحرس الوطني والشرطة في العمليات البحرية. كل عمليات الانتشار هذه كان لها ثقل مضاد، قاطرة سارت باتجاه معاكس وبنفس السرعة: بين 2001 و2003، شهدت منطقة المصب الغاليسية أكبر انتشار للعصابات عرفته غاليسيا في تاريخها. إن سقوط الشخصيات التاريخية مثل أوبينيا وسجن ستيو أو مارسيا، ترك الساحة مفتوحة لكل تلك العصابات المدارية، تلك الخطوط الثانية التي وطّدت أقدامها. كانت الحقبة التي تعايشت فيها الشخصيات التاريخية مع مقاليد الأمور. الكل ضد الكل، في عمل جامح هدفه تركيز الكوكايين في غاليسيا.

إن كلا المكونين، القتال الفعال الذي نفذه تاين والحركة غير الملائمة التي قامت بها العصابات، أفضت إلى عدد غير متناهٍ من الغارات، والصعود على متن السفن، والتوقيفات، والمصادرات. لقد أمر القاضي بتنفيذ ثماني عشرة عملية خلال السنوات الثلاث تلك. يشرح ضابط في الحرس الوطني: «لقد أغضب تاين العصابات الكولومبية بشدة. بدوا وكأن بهم مسا. كانوا يعتقدون، بل وكانوا مقتنعين بأن هناك مخبرين. تحرك الكولومبيون وراحوا يبحثون عن مخبر ما في منطقة المصب. لكن لم يكن هناك من أحد».

ولكن في تلك الفترة ذاتها حصل ما لم يكن في الحسبان: لقد بدت الحكومة الفنزويلية متسامحة مع تجارة المخدرات. بعد بضع سنوات من تولي هوغو تشافيز السلطة، تحولت فنزويلا إلى ملاذ للعصابات الكولومبية، حيث انسحب من اتفاقية معاقبة الميليشيات التي وضعتها حكومة بوغوتا. لقد عبر تجار المخدرات الحدود بسهولة وأبحروا من دون أي معوقات من الشواطئ الفنزويلية باتجاه غاليسيا. إن نظام تشافيز، بغض النظر عن صبغته السياسية، كان برَكَة على تجار المخدرات في غاليسيا، بالرغم من أنها لم تستمر إلى الأبد. في العام 2014، أشادت الشرطة الكولومبية نفسها أمام الجميع بالحكومة الفنزويلية بسبب تعاونها في الحرب ضد تجارة المخدرات.

يشرح تاين: «كذلك في هذا العصر، بدأت العصابات الكولومبية بالعمل في البلدان الأفريقية، مثل توغو والرأس الأخضر والسنغال. كان ذلك بمثابة سلم صعدوا عليه قبل الوصول إلى غاليسيا».

إن طريق فنزويلا - أفريقيا - غاليسيا أصبح معروفا بالنسبة إلى أجهزة تطبيق القانون، وستتخلى العصابات عن هذا الطريق قريبا. «لقد تفوق فساد الأفارقة على فساد العصابات الكولومبية. كان عليهم أن يدفعوا للجميع: للجيش، والشرطة، وتجار المخدرات المحليين... وإذا تركوا شيئا هناك، سفينة أو طائرة، كانوا يجدونها مفككة بعد أسابيع. بعد التعامل مع الأفارقة، عاد الكولومبيون إلى تقدير فعالية وجدية العصابات الغاليسية».

هناك سبب آخر يفسر النقلة النوعية التي حصلت في تلك السنوات هو التراخي الإعلامي. ليس الأمر أن وسائط الإعلام قد تخلت عن تغطية تجارة المخدرات، بل خفضوا وتيرة ذلك - لصالح ما هو مشترك بين المواطنين - وذلك بسبب استنتاج خاطئ أن أسوأ مراحل تجارة المخدرات قد ولّت مع عملية نيكورا وتدحرج الرؤساء الكبار. لقد حدث خطأ تكتيكي بعد تسليط الضوء على العصابات الثانوية، وربما هذا ما ساعدهم.

***

في العام 2001، ضبطت قوى الجمارك سفينة أبرينته بينما كانت الشرطة توقف «مانولو الكتلاني» على اليابسة، وهو من كان يقود العملية[51]. لقد كانت العملية الأولى التي يتم فيها تبادل الضربات[52] بين تاين والعصابات المتعددة، قتال ذو هجمات كثيرة كما أن الهدف تجسيدها كلها. نعم، يجب إماطة اللثام عن اللحظات الأكثر شهرة في ذلك القتال. في تلك السنة، تعطّل يخت «نجمة المحيط» الذي حملته عصابة كالي بطنين إثنين من الكوكايين بسبب نقص في الصيانة، وانتهى به المطاف مثقوبا الأمر الذي أدى إلى غرقه، وتم إلقاء القبض على كل المتورطين[53]. وأيضا في عام 2001، توصل مانويل غونساليس كروخيراس، الملقب بكارايان، إلى اتفاق جديد مع عصابة كالي الكولومبية من أجل نقل 1800 كيلو من الكوكايين إلى غاليسيا. فعل ذلك وجها لوجه، لأن كارايان كان في فنزويلا، وكان فارا من العدالة. في خطة 2001 تلك، جنّد كروخيراس بعض زملائه القدامى، من بينهم عضو الحرس الوطني السابق خيراردو نونييس، الملقب فيليبه، الذي كان على اتصال مباشر مع العصابة أيضا. انتهت القضية على يد مجموعة المهام الخاصة على سطح السفينة[54].

واحدة من الضربات الشهيرة كانت ضربة «شاطئ أربيال»، وهي الضربة التي أدت إلى تقديم ابن بيتورو إلى المجتمع، وهو تاجر المخدرات الذي نقل الأكياس بواسطة قاربه المطاطي وفقدها في منتصف الطريق بسبب الموج. إن خوان كارلوس فاسكيس غارسيا، الابن، الذي لم يكن قد تجاوز بعد العشرين عاما في كانون الأول/ديسمبر من عام 2003 عندما قبضوا عليه في عملية إنزال من قارب الصيد على «شاطئ أربيال»، كان يحمل ثلاثة أطنان من الكوكايين الكولومبي في عنابره. حُكم على بيتورو الابن بالسجن لمدة إحدى عشرة سنة، لكن المحققين مقتنعون بأنه كان أحمق. يؤكد ضابط سابق في الشرطة: «لقد كان أصغر من أن ينظم عملية بهذا الحجم».

ضربة تاين الأخيرة:

سقوط الزعماء التاريخيين

مينيانكو وتشارلين ومارسيال دورادو

إن واحدة من العمليات اللامعة في تلك الفترة الصاخبة (2001-2003) كانت إيقاف وإسقاط سيتو مينيانكو. حصل ذلك في السادس عشر من آب/أغسطس من عام 2001. كان الترتيب المتخذ من مدريد من قبل القاضي خوان ديل أولمو عبقريا على الصعيد البوليسي. حتى إن الزعيم نفسه كان يهلوس أثناء اعتقاله وسأل: «لكن كيف تمكنتم مني؟» وأجابوه: «تمكنا منك لأنك لم تتقاعد في الوقت المناسب».

مجددا، أوقعوا بزعيم كامبادوس على الملأ. في المرة السابقة التي أُوقِفَ فيها، في العام 1991، فوجئ بمجموعة المهام الخاصة وبرجالها يقفزون فوق خرائط ملاحية في شاليه بوسيولو دي ألاركون (مدريد). كان في ألكالا - ميكو حتى خرج إلى الحرية المشروطة في كانون الأول/ديسمبر عام 1998. يتفق كل الضباط أنه لو تُرِك في ذلك الوقت، لربما دارت عليه اللعبة. لكن سيتو، مثله مثل كل تجار مخدرات منطقة المصب تقريبا، لا يعرفون العيش من دون ذلك، فقد عاد إلى المشهد (بالحقيقة، لم يتركه قط، حيث قاد من الزنزانة - كما سبق ورأينا - عملية النقل التي ضبطت في عملية الفجر عام 1997) وانتهى به الأمر مرة أخرى مكبّل اليدين. هذه المرة، كان الشاليه الذي يقود منه العملية في منطقة التوسع الحضري في إل بوسكه، في فيّافيسيوسا دي أودون (مدريد). مرة جديدة، ضبطته مجموعة المهام الخاصة بالجرم المشهود، وهو يراجع بعض الخرائط الملاحية على طاولة كان عليها جهاز اتصال فضائي وثلاثة أجهزة هاتف. يُروى أنه ظل فاغرا فمه عندما رأى العناصر المقتحمين. بينما كانوا يأخذونه، التفت وقال لوجه مألوف: «إلوي، سيجعلونك مفوضا». أجابه الشرطي: «أنا بالفعل مفوض يا سيتو». فقال له سيتو: «حسنا، سوف يغطونك بالميداليات».

في العام 2001، كان «سيتو» يقود نظريا عمليته الأخيرة. عُثر على القارب أرخيوس كونستانتدينو على بعد ألف ميل من غوايانا الفرنسية، وهو ينتظر سفينة الصيد تيتيانا، التي كانت ستجلب خمسة أطنان من الكوكايين. لكن الـ DEA ظهرت، وقد أعلمتها الشرطة الإسبانية، وحاصرت القارب الذي لم يُبدِ أية مقاومة. في الوقت نفسه، دخلت مجموعة المهام الخاصة إلى الشاليه. حصل الأمر بالتزامن، وقدّم كل شيء للقاضي على طبق من فضة لكي لا يكون لديه كثير من العمل.

«سأعرف من يقف وراء كل هذا». هذا ما قاله سيتو عندما قبضوا عليه. يشير الزعيم إلى خيانة محتملة، إلى تسريب حصل بشكل فعال. كانت منظمة سيتو تسيطر على كل شيء، وأتت معلومة من مهرب مخدرات لبناني متورط في العملية، وهو من جعل الشرطة تحدد موقع سيتو قبل ثلاثة أيام من انطلاق قارب أرخيوس كونستانديتو. كان اللبناني رجل ثقة يعمل لصالح الـ DEA. من هنا أتت دهشة مينيانكو. لم يفهم ما الذي حصل.

سقط معه أيضا ذراعه اليمنى الكولومبي كيكه أرانغو، من عصابة كالي. يقول ضابط في الشرطة الوطنية: «ما حصل مع سيتو كان مفاجأة. كلنا ظننا أنه لن يورط نفسه من جديد». أظهرت صور عملية القبض الأخيرة أن سيتو خسر الوزن وبدا بلحيته الطليقة عديم الكاريزما، متشردا إلى جانب إسكوبار منطقة المصب الذي كان سابقا يقود سيارته في أروسا متباهيا. حُكم على الزعيم بالسجن لعشرين عاما. في نيسان/أبريل من عام 2015، تمكن من الحصول على إذن لأجل العمل خارج السجن: يستطيع الخروج كل الأيام مثل موظف - ما عدا نهاية الأسبوع، حيث عليه العودة للنوم في سجن فايادوليد. حصل على ذلك بعد توقيعه عقد عمل موسمي مع شركة بناء. كان قد رغب في العمل في شركة صيد في منطقة المصب كصائد محار، لكنهم أزالوا الفكرة من رأسهم سريعا. لأن الزعيم لا يمكنه أن يدوس غاليسيا، وفقا لأمر القاضي. لديه حظر صريح يمنعه من عبور الحدود. لكن فصل سيتو مينيانكو لم يُغلق. ولا حتى بشكل جزئي.

إن القبض على سيتو كان بمثابة الضربة الثانية للزعماء التاريخيين. قبل سبعة أشهر، كانت قد سقطت رأس آل تشارلين، خوسيفا تشارلين، ابنة ووريثة الأب الكبير. لقد فرّت منذ العام 1994 عندما أصدر غارسون أمرا باعتقالها في خضم عملية نيكورا. بينما كان أبوها خلف القضبان، استلمت «تشارلينا» زمام أمور العصابة، وقادتها نحو البرتغال. تحولت إلى نوع من الأسطورة خلال تلك السنوات: بحثوا عنها على الأرض والبحر وفي الجو، بينما كانت هي تتابع تنسيق عمليات الإنزال بقبضة من حديد هاربة من السلطات. كانت شخصية «تشارلينا» معروفة جدا في أروسا. وخصوصا من قِبل، عمال معمل الكونسروة الخاص بالعائلة - للتغطية - التشاربو، الذين كانوا يتحملون طغيانها وظروفهم المهنية الشنيعة. كانت خوسيفا قد طردت عددا من موظفيها بواسطة خرطوم دفع مياه. لم يقم بذلك أي رجل من المنظمة قط. حتى أن «تشارلينا» استخدمت واحدة من بناتها، الأصغر سنا، من أجل تبييض الأموال: كانت الطفلة تملك 400 مليون بيزيتا (2,4 مليون يورو) في حسابٍ جارٍ. انتهى الأمر بالصغيرة عند قوى الجمارك.

تروي الأسطورة أن خوسيفا كانت قد حاولت إدخال أكبر كمية من الكوكايين عرفها تاريخ تهريب المخدرات في غاليسيا حتى اللحظة: ستة أطنان من «الدقيق»، والتي غرقت في العام 1997 أمام سواحل المغرب.

سقطت «العرابة» في الخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر من عام 2000. كانت تحمل جواز سفر باسم آنخيلا آتشا، وقالوا إنها لم تقاوم أبدا. خلال السنوات التي كانت فيها فارّة، لم تتخل عن قيادة العصابة، بل قامت بتأسيس شركة مزدهرة لإنتاج النبيذ. نُقلت العرابة على الفور بعد اعتقالها إلى إسبانيا حيث حوكمت. ثم أطلق سراحها في العام 2012.

حصلت الضربة النهائية الموجهة للزعماء التاريخيين في الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2003، وحصلت رقصة الوداع أمام بوابة القاضي فاسكيس تاين الكبيرة. في عملية نُسقت بواسطته وسُميّت عملية ريتروفورنوس، ضبطت الشرطة الوطنية وقوى الجمارك القارب البراد ساوث سي (بحر الجنوب). كان القارب ينقل سبعة أطنان من الكوكايين بشكل مخفي في بدنه المزدوج. خلف عملية التهريب الطموحة هذه كان كارلوس سوموسا وروبيرتو ليرو. الأول من فيلانوفا، ويعمل لصالح آل تشارلين، بالحقيقة، كان متوجها مع إحدى بنات الأب الكبير. عندما قُبض عليه، وجد نفسه في مواجهة أمر بحث وجلب، وكان يقود عصابته الخاصة[55]. لكن عملية القبض الأكثر إثارة التي قام بها هذا الجهاز كانت - بدون شك - عملية القبض على مارسيال دورادو، المتهم ببناء سفينة الناوتيلوس وبيعها للعصابات، السفينة التي كانت ستجلب الكوكايين الذي يحمله «ساوث سي». لطالما حرص مارسيال دورادو على ألا يقوم بالانتقال من التبغ إلى المخدرات. كان هناك من يظن بين قوى الأمن أن حلقة الناوتيلوس كانت مجرد حلقة منفردة، بينما يؤكد آخرون أن مارسيال كان تاجر مخدرات مثله مثل الجميع، لكنه أكثر صمتا وذكاء. حُكم على دورادو بالسجن لعشر سنوات، ولا يزال حتى الآن خلف القضبان بسبب دمج حكمه ذاك مع حكم صدر عام 2015 بتهمة تبييض الأموال. بالمناسبة، هرب سوموسا وليرو بينما كانا في انتظار محاكمتهما أثناء إطلاق سراح مشروط.

إن سقوط مارسيال في العام 2013 - آخر الزعماء التاريخيين - أدى إلى توقف العمل لفترة قصيرة، وقت ميت استفادت منه العصابات الغاليسية لإعادة تنظيم صفوفها، لأخذ نفس قبل تتابع العصي التي طالت حتى العصابات الكولومبية. بعد فترة التوقف هذه، عاد الغاليسيون إلى العمل. لكن بشكل آخر، وبدور آخر. إن السقوط النهائي للمنظمات الكبرى وهو الذي غيّر مشهد تهريب المخدرات في غاليسيا إلى الأبد. إذ بدأت به مرحلة جديدة، هي مرحلة نقل المخدرات. إنه عهد جديد فلقد بدأ عهد ربابنة القوارب.

تسليم مقاليد الأمور

«أروع قارب شوهد في غاليسيا»

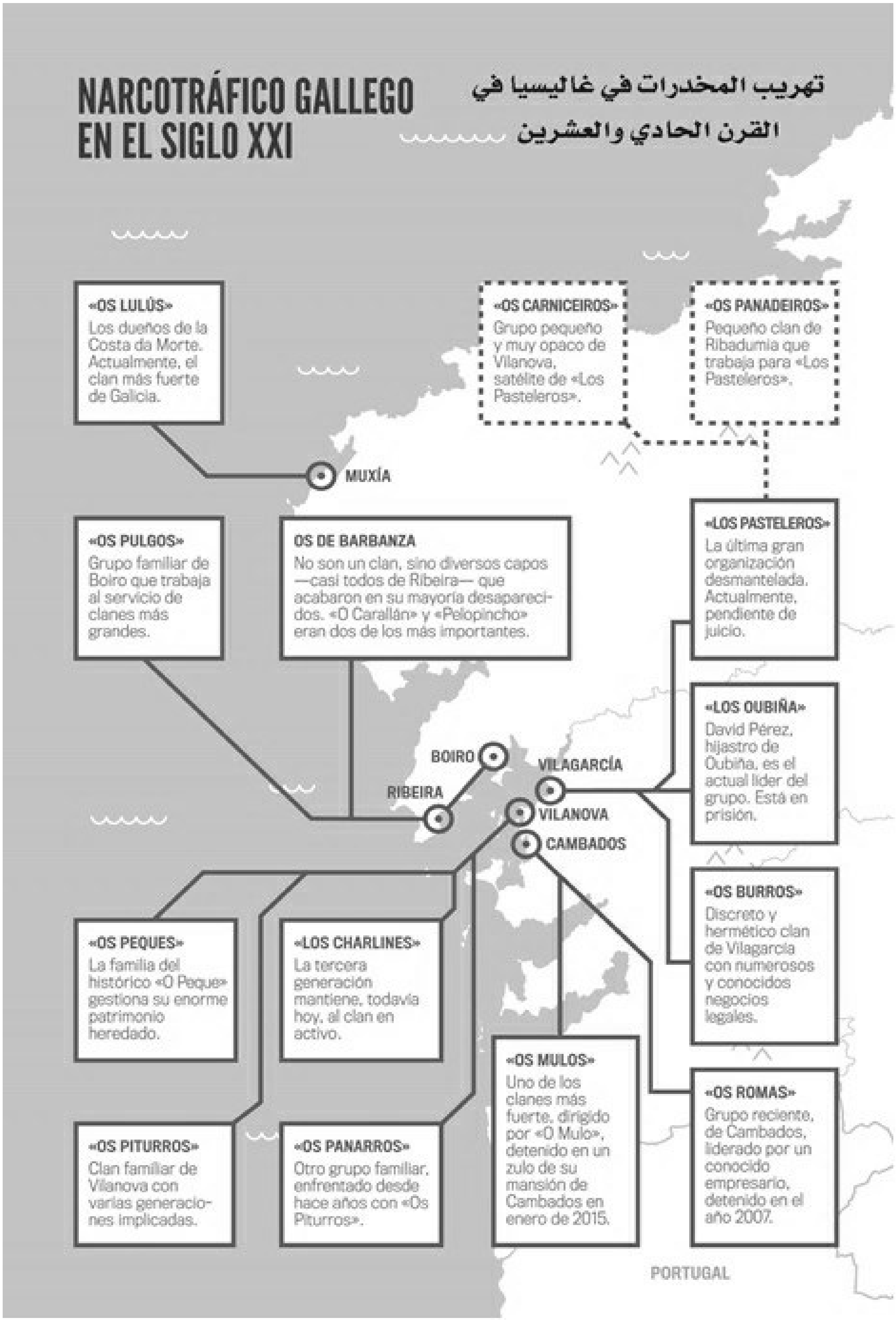
NARCOTRÁFICO GALLEGO
EN EL SIGLO XXI
تهريب المخدرات في غاليسيا في
القرن الحادي والعشرين
«OS LULÚS»
Los dueños de la Costa da Morte. Actualmente, el clan más fuerte de Galicia.
«OS CARNICEIROS»
Grupo pequeño y muy opaco de Vilanova, satélite de «Los Pasteleros».
«OS PANADEIROS»
Pequeño clan de Ribadumia que trabaja para «Los Pasteleros».
MUXÍA
«OS PULGOS»
Grupo familiar de Boiro que trabaja al servicio de clanes más grandes.
OS DE BARBANZA
No son un clan, sino diversos capos —casi todos de Ribeira— que acabaron en su mayoría desaparecidos. «O Carallán» y «Pelopincho» eran dos de los más importantes.
«LOS PASTELEROS»
La última gran organización desmantelada. Actualmente, pendiente de juicio.
«LOS OUBIÑA»
David Pérez, hijastro de Oubiña, es el actual líder del grupo. Está en prisión.
BOIRO
RIBEIRA
VILAGARCÍA
VILANOVA
CAMBADOS
«OS PEQUES»
La familia del histórico «O Peque» gestiona su enorme patrimonio heredado.
«LOS CHARLINES»
La tercera generación mantiene, todavía hoy, al clan en activo.
«OS BURROS»
Discreto y hermético clan de Vilagarcía con numerosos y conocidos negocios legales.
«OS MULOS»
Uno de los clanes más fuerte, dirigido por «O Mulo», detenido en un zulo de su mansión de Cambados en enero de 2015.
«OS PITURROS»
Clan familiar de Vilanova con varias generaciones implicadas.
«OS PANARROS»
Otro grupo familiar, enfrentado desde hace años con «Os Piturros».
«OS ROMAS»
Grupo reciente, de Cambados, liderado por un conocido empresario, detenido en el año 2007.
PORTUGAL

نقل المخدرات

إن الاضطراب الذي حصل ما بين عامي 2001-2003 ترك خلفه صداعا كبيرا. بدأت - وللمرة الأولى منذ زمن طويل - فترة من الهدوء النسبي ومن الحدة المنخفضة. خلال فترة التوقف هذه، والتي استمرت لعامين، بحث الكولومبيون عن شركاء جدد من أجل بيع المخدرات في أوروبا، لكنهم لم يوفقوا. كما يشرح قائد في الشرطة الوطنية: «بالنظر إلى عدد العمليات التي قامت بإسقاطهم، حاولوا أن يجربوا بدائل. لقد قمنا بإلحاق ضرر كبير بهم، فقد حاولوا أن يفعلوا شيئا من خلال أفريقيا، بلغاريا، روسيا، هولندا... لكنهم لم يقنعوا أحدا. لقد كان الكولومبيون بحاجة إلى الغاليسيين». استفادت العصابات الغاليسية من هذا الصداع لأجل التفكير. مثل الشركات الجيدة، استفادوا من الأزمة من أجل إعادة تحديد العمل وتغيير الاستراتيجية. إن الفراغ الذي تركته المنظمات الكبيرة، مثل منظمات مينيانكو وأوبينيا وآل تشارلين، ستملأه مجموعات أصغر حجما، والتي ستتخصص في نقل المخدرات، تاركة التوزيع وامتلاك المخدرات جانبا.

كان الورثة هم الأبناء وأبناء الإخوة والشركاء والعمال وبشكل عام كل خطوط المنظمات الكبيرة الثانية والثالثة التي تفككت لتوها. كان الشباب - ليسوا شبابا للغاية - من تعلَّم الدرس: أكثر حنكة وأكثر مهنية. كل ما خسروه في الحجم، عوضوه في الاستنساب. لم يعد لديهم قوارب وشاحنات ومحامون وقصور وترسانة سلاح ومخازن... من الآن فصاعدا سوف يقدمون خدمات النقل على نحو دقيق لمن يريد، وسيتقاضون أموالا لقاء ذلك. «لقد تحولوا إلى فصيلة من الشركات المتحالفة مرحليا، شركات صغيرة تقدم خدماتها للكولومبيين، وبالإضافة إلى ذلك كانوا يتعاونون مع بعضهم». هكذا يشرح فيرناندو ألونسو، مدير في منظمة مكافحة المخدرات في غاليسيا. ويتابع: «من أجل كل عملية إنزال يتولونها، كان يجب أن توحد عصابتان أو ثلاث جهودها».

في هذا النظام الجديد، ظهر طرفان: المنظمات وربابنة القوارب. الأولى هي وريثة العصابات وعلاقاتها، إنهم من يجلبون الكوكايين إلى غاليسيا. أما الآخرون، فهم ثمرة تخصص ربابنة الزوارق: يكرسون أنفسهم تحديدا لنقل البضاعة إلى اليابسة، ويبيعون خدماتهم لمن يدفع أفضل سعر من العصابات الغاليسية. على هذا النحو، ينخفض مستوى العمل، ويطلب الزعماء الكولومبيون من العصابات في غاليسيا أن تهرب الكوكايين إلى أوروبا، وهم من يقومون بتنسيق دخول آمن ويتعاقدون مع الربابنة من أجل عمليات الإنزال.

على الطرف الآخر من المحيط الأطلسي، حصل تسليم لمقاليد الأمور أيضا: إن الضغط السياسي ضد عصابة كالي، الشريك التقليدي للعصابات الغاليسية، سمح بولادة مجموعات جديدة،

وهي أيضا أصغر، مثل الإخوة فيليس أو الأخوة ساين سالاسار. وهم سيصبحون شركاء الغاليسيين في هذه المرحلة الجديدة.

إن نظام تشغيل العصابات الغاليسية والكولومبية الجديد هذا ألزم الشرطة لكي تغيّر استراتيجيتها. في العام 2007، تأسست مجموعة الدعم الخاصة ضد الجريمة المنظَّمة (GRECO) التابعة للشرطة الوطنية، وهي وحدة مختصة في القتال ضد المافيات والجريمة المنظمة وتهريب المخدرات. ستنضم GRECO إلى العمل مع ال- UDYCO والحرس الوطني وقوى الجمارك SVA وأجهزة مكافحة الجرائم المالية. إن اصطياد تجار المخدرات في المخدرات (لا يمكن وصف ذلك بطريقة أفضل) تحول إلى أمر شبه مستحيل. عمليا، انتهى المطاف بسقوطهم جميعا بسبب تبييض الأموال.

الربابنة

«إن ملاحقة الزورق أمر لا يمكنك أن تتخيله. ارتدادات فوق البحر تكاد تُحطم القارب. ستصاب بدوار، وكأنك تحت شلال ولا يسمعك أحد، فقط صوت صخب المحرك وهدير المياه. كما لو أنك داخل إعصار. وهؤلاء الأنذال كانوا صعبي المنال». هكذا يتحدث ضابط في الحرس الوطني بشيء من الإعجاب، وهو عاصر العديد من الملاحقات خلال سنوات خدمته في التحقيق ضد تجارة المخدرات. ويتابع: «إنه أسوأ جزء في هذه المهمة. من الجنون إلزامنا بالمخاطرة بحياتنا هكذا في البحر». يتذكر الضابط صباح أحد الأيام منذ عشر سنين أو إحدى عشرة سنة، بينما كان هو وزميله يجولان في دورية في منطقة المصب على متن زورق، اعترض طريقهما زورق آخر، أو هذا ما ظهر. «كان يطير! وبدأنا نلاحقه. بشكل عام لم نكن نلاحقهم، لأنه من الصعب النيل منهم. لكن في ذلك اليوم، حاولنا ذلك». بدا الأمر وكأن أحدا قد غيّر الزاوية، فعبروا من مصب أروسا إلى مصب موروس، وانطلق القارب المشتبه به في مساره، وعلى متنه ثلاثة أشخاص، وهو يميل بعض الشيء. «كانوا سريعين جدا، وجيدين جدا، لكن في ذلك الوقت لم أفهم لماذا اتخذوا هذا المسار، كانوا يتجهون نحو طريق مسدود». عندما أوشك قارب الحرس الوطني على القبض عليهم، رفع القارب الذي كانوا يطاردونه مقدمته كما لو أنه دراجة نارية. «بدأ يرتفع، وأصبح عمليا عموديا: اللعنة! كنا نهلوس أنا وزميلي. عندما كان عموديا، استدار حول ذاته، وعاد وسقط وانطلق في الاتجاه المعاكس، رأيناه يلتهم البحر أمامه». لا يستطيع الشرطي إلا أن يضيف منبهرا. «فقط باتوكو، هو وحده من يمكنه القيام بذلك».

في الحقيقة، كان الربابنة معروفين منذ عصر تهريب التبغ. كان سيتو مينيانكو نفسه واحدا من أفضل قادة الزوارق، التي كانت معروفة حينها باسم «الخوريلا». إن الفرق هو أن الزوارق الآن باتت أسرع وأقوى بكثير، وبات الربابنة أكثر خبرة.

كان للتخصص في نقل المخدرات فوائد كثيرة على الربابنة الغاليسيين. لم يكن عليهم أن يقلقوا حيال كل التعقيدات اللوجستية التي تحيط بالعملية: لا البحث عن التمويل، ولا الاتفاق مع الصيادين للإبحار حتى كولومبيا وفنزويلا. تقلص دور الربابنة إلى إحضار الكوكايين من السفن الأم وإيصاله إلى اليابسة بواسطة زورق لكي يقوم الكولومبيون من جديد بتوزيعه. في بعض المناسبات، كانوا يصلون حتى جزر الأسوريس أو الرأس الأخضر.

كل ما كان مطلوبا من الناقلين هو سيارات الدفع الرباعي من أجل تحريك الزوارق فوق اليابسة والرافعات، وربابنة احتياطيين، ومخازن لتخزين آلاف الليترات من البنزين، وحظائر السكان

المجاورة، ومتعاونون من أجل حماية الزوارق. لقد كانت الزوارق بمثابة مطلب للسلطات، وكان من المعتاد (ولا يزال) أن تقوم العصابات بإخفائها في الورشات والمستودعات التي تقع على ضفة نهر ينتهي في المصب عادة، بين أعشاب الشاطئ، وبعيدا عن البحر المفتوح. لم تصادر الشرطة خلال ضرباتها الموجهة ضد الربابنة غراما واحدا من الكوكايين، بل صادرت المحركات والزوارق والبنزين.

كانت العصابات تزودهم بأحدث ما تنتجه أحواض بناء السفن الإنكليزية والإيطالية التي كانت تصنع ما هو بمثابة سيارات الرالي في الماء، وقوارب نفخية، بطول 15 مترا وبقوة تصل إلى 1500 و2000 حصان، وفي كل مرة كانت القوارب تأتي أخف وزنا بسبب استخدام البوليسترات (البلاستيك). ومجوفة من الداخل لتحميل حتى 20 ألف ليتر من البنزين وعشرة أطنان من المخدرات، ومغطاة بالكاوتشوك من الخارج من أجل حماية الحمولة. كانت سرعاتها تصل إلى أكثر من 100 ميل بحري في الساعة، بالإضافة إلى أنها يمكنها أن تحافظ على هذه السرعة لوقت طويل من خلال استخدام خمسة أو ستة محركات.

يقول الصحفي خوليو فارينياس: «كانوا يعبرون طريق أروسا - جزر الكناري، في اثنتي عشرة ساعة! كانوا يملأونها حتى الأعلى ببيدونات البنزين، ويضعون الماء والطعام، ويخرجون، ويعودون في اليوم نفسه». وليست مبالغة أنهم كانوا يفعلون ذلك في ليلة رأس السنة.

لم تستطع كل العصابات أن تشتري قواربها، لأنها كانت باهظة الثمن وصعبة الإخفاء. في العام 1987، حدد مرسوم ملكيّ مكان رسو وقوة القوارب، كانت بعض المجموعات فقط تمتلك الزوارق، وباقي العصابات كانت تستأجرها لصالح الناقلين.

«كان الكولومبيون يعطون العصابات الغاليسية جزءا، وهم بدورهم كانوا يدفعون للناقلين لكي يأخذوا الزوارق ويوصلوا الأكياس».

لقد بلغ طموح البعض مستويات مدهشة، مثل محاولة شراء غواصة! في شهر آب/أغسطس من عام 2006، حددت عملية مشتركة بين الحرس الوطني والشرطة مكان غواصة بطول 12 مترا في منطقة مصب فيغو. كانت فارغة ومحركاتها تعمل. يبدو أن عصابتين أو ثلاث عصابات كانوا يجربون إمكانية نقل الكوكايين من خلال الغواصة. إلا أن الأمر لم يعجبهم فصرفوا النظر عنه: لم تدخل أكياس الكوكايين الثلاثين عبر الفتحة!

في عالم تصبغه الأساطير، تحول الربابنة إلى ملوك، رموز شعبية دارت وتدور حولها قصص مثل تلك التي تفتتح هذا الفصل. وأحيط الربابنة بنوع من الثقافة السرية التي كان بعض المراهقين في أروسا - ولا يزالون - يريدون أن يكونوا جزءا منها. كانوا يتباهون بمناوراتهم بعد عمليات الإنزال أو الملاحقات (وكانت بعض القصص المتداولة لا أساس لها). كان ينظر إلى ربابنة الزوارق (ولا يزالون)، في بعض الطبقات الاجتماعية وفي بعض الدوائر الخاصة بالناقلين، على أنهم أبطال ذوو بشرة جعلها البحر والسرعة بالية، يمتلكون سيارات رياضية ونظارات شمسية باهظة

الثمن. يتابع الضابط في الحرس الوطني قوله: «في الحقيقة، لا أعرف إن كانوا شجعانا أم عديمي الوعي. لقد رأيت كيف يصعدون فوق الموجة بحيث لا يلتقطهم الرادار. وهذا خطير جدا، إن الزورق قد ينقلب عند ركوب أمواج مرتفعة والقيادة بسرعة عالية».

إن الأقرباء من عائلة فيخوو، رامون برادو (قريب سيتو مينيانكو)، رامون فابيرو، خوسه فاسكيس بيريرا «ناندو»، غريغوريو غارسيا «بويو»، خوان كارلوس فيرنانديس «باريدو»، بالتاسار فيلار «سارو»، وقبل الكل مانويل آبال فيخوو، الملقب باتوكو، كانوا - وبعضهم لا يزال - من أشهر ناقلي المخدرات في تلك الحقبة. كان باتوكو يقود زوارق لصالح آل تشارلين قبل عملية نيكورا. في ذلك الوقت، كان «باتوكينيو» (أي الصغير): هو من قال للقاضي أنه قد ذهب إلى البرتغال في زورق من أجل أن يلتقط صورة مع حبيبته. وعندما أصبح «باتوكو» (أي عندما كبر)، انتهى به المطاف فارضا نفسه على الجميع ومحتكرا العمل في منطقة المصب.

***

لا يمكن أن يعم السلام إلا بعد حرب. قبل عهد «باتوكو»، كان هناك احتكاكات بين المجموعات المختلفة (كثيرون، وشباب، ومندفعون) الذين اندفعوا لملء فراغ السلطة. إن السلام الذي لطالما تظاهر الزعماء التاريخيون بالحفاظ عليه - وهو ما لم ينجحوا في جعله مستمرا ودائما - تبخّر حالما عاد العمل إلى مساراته. وعادت تصفية الحسابات.

كان ريكاردو فيخوو، وأخوه خوان كارلوس، وقريبهما خوسه آنخيل - جميعهم من كامبادوس - الأوائل، وكانوا متورطين سافلين في عمليات تصفية الحسابات الضارية تلك. يتلاءم الثلاثة مع صفات الشباب الذين يظنون أنهم وجدوا حلا للحياة بعد عمليتي إنزال. في التسعينات، عملوا بصفتهم موصلين عرَضيين لصالح العصابات الكبرى، وعندما قرروا أن ينظموا أنفسهم على نحو مستقل، واستسلموا لأمنياتهم الخيالية بأن يصبحوا تجار مخدرات، كان عليهم أن يدفعوا ثمن قرارهم.

اختفى خوان كارلوس في نهايات العام 2004. لقد خرج بزورقه ذي المحركات الخمس بقوة 30 حصان، والذي كانت تحتفظ به العصابة في كاتوريا. كانت وجهته جنوب جزر الكناري، حيث كان عليه أن يجلب بضائع كولومبية. حصل شيء ما في الطريق. لم يعد خوان كارلوس ومرافقه (شاب آخر من كامبادوس) تلك الليلة ولا في اليوم التالي. وجدت عبارة تتنقل بين تينيريفه وغران كاناريا وجدت جثتيهما بعد ثلاثة أشهر. كانا يرتديان بذلتي غوص ويضعان وثائقهما الشخصية تحتها.

واجه ريكاردو وخوسه آنخيل نهاية مشابهة. في العام 2005، وافقا على تنفيذ عملية إنزال لصالح تاجر المخدرات مانويل غونساليس لاكونسا، الذي كان يعمل من الباسك. لم تكن هناك تفاصيل، لكن يبدو أن الأقرباء فيخوو أبقوا جزءا من البضائع التي ينقلونها والتي لا تعود إليهم في حوزتهم. ذكرت صحفية من غاليسيا: «في الحقيقة، إن الألاعيب بين ربابنة القوارب كانت مستمرة. إن كانوا قد قاموا بخيانات في عصر الزعماء التاريخيين دائما، فإن الخيانات التي قاموا بها مع العصابات الجديدة كانت لا توصف. كانوا يسرقون بعضهم باستمرار». تذكر تلك الصحفية حكاية زعيم إحدى العصابات، الذي استدعى أربعة شركاء آخرين، بعد خسارته لرفيق له، لكي يدفعوا له

ثمن أكاليل الزهور التي لا بد منها اظهارا للمحبة واعلانا لاحترام المتوفى. «اشترى إكليلا واحدا واحتفظ بالمال الباقي لنفسه».

في حال الأقرباء فيخوو، الأمر الذي احتفظوا به كان جزءا من الكوكايين. لم يرق الأمر للاكونسا. وبعد كثير من الانذارات، توجه المُهرّب إلى كاتوريا، مستغلا قيام الأقرباء برحلة، وأقدم على اشعال النار في المخزن الذي كانوا يحتفظون فيه بالزوارق. إن أعمال الحرق - من ناحية أخرى، كانت عملا كلاسيكيا بين الربابنة الغاضبين - شكل ذلك الاحراق ضربة قاضية لفرقة ناقلي المخدرات.

كان الحريق الدفعة الأولى من تصفية الحساب. كان لاكونسا في أروسا مع باتريس لويس ببير، وهو ألمانيّ ترعرع في هيندايا (فرنسا)، وهو قاتل مأجور. عندما عاد الأقارب فيخوو على نحو طارئ إلى أروسا، طاردهم لاكونسا. واختطفهم - فقد دخل إلى منزل ريكاردو واختطف زوجته وابنه ووضعهما في صندوق السيارة، وتبعه باتريس. ووضعهما في طاحونة قديمة في سيرانتيّوس، في كامبادوس، وأطلق القاتل المأجور النار على رأسيهما بعد ذلك، اقترب لاكونسا، وأطلق رصاصة عليهما، ليتأكد أن المهمة أنجزت. في النهاية أحرقا الجثث. وهكذا فقد انتشر خبر هذه الجريمة في أروسا، وقد اثارت ببشاعتها حفيظة كل أهل المنطقة. حُكم على كل من لاكونسا وباتريس بالسجن لأربعين عاما. مات القاتل المأجور في آذار/مارس من عام 2015 في زنزانة في كاديس في بوتافويغو. في أيار/مايو، تكررت الصدمة: عُثر على فيكتور غونساليس سيلفا، الملقب «العصفور» وشريكه سانتياغو موندراغون باس، وهما من صغار تجار المخدرات في أروسا، ميتين في شقة في غابات سيّيدا.

سوف تجد الشرطة لاحقا 1.5 مليون يورو في مرأب «غوريون». يبدو أنه سرقها من عصابة أخرى. كان بعض الشركاء الكولومبيين هم المسؤولون عن معاقبة السارق. في تلك السنة أيضا، 2005، كانت الخاتمة مع رامون أوتيدا: قُتل على يد قتلة مأجورين من كولومبيا بطلقات نارية على باب منزله في كامبادوس.

ومن كامبادوس يبدو أن خافيير غونساليس، كان عضوا أو متعاونا مع العصابة التي قضت على الأقرباء فيخوو. اختفى في المغرب في العام 2008 وفقدت الشرطة الأمل بالعثور عليه حيا.

***

وُلد مانويل آبال فيخوو، الملقب «باتوكو» في كامبادوس وبدأ يقود الزوارق السريعة عندما كان في الثامنة من عمره. عمل مع آل تشارلين ولم يحاكم في عملية نيكورا لأنه كان قاصرا. تشكلت أسطورته ونمت في تلك السنوات، عبر مناوراته المستحيلة وملاحقاته التي تشبه الأفلام، مثل تلك التي افتُتح بها هذا القسم. تحولت قضيته إلى أسطورة في الثامن عشر من تموز/يوليو من عام 1996، عندما هجم زورقان من بين الضباب في المصب وقتلوا ثلاثة من أفراد الطاقم. الناجي الوحيد كان باتوكو. في ذلك الصدام العنيف، توفي مانويل دوران سوموسا، الملقب «كوبالا»، والذي يُعتبر أفضل ربان في تلك السنوات وأستاذ «باتوكينيو».

مع تهاوي العصابات الكبيرة، بدأ باتوكو يبني أسطول زوارقه الخاص، زورق أسود معروف باسم «باتوكا» والذي حطم كل الأرقام القياسية: ست محركات مستقلة الدفع، 2100 حصان، 12 ميلا بحريا في الساعة. وهو المفضل من بين أسطول يصل عدد زوارقه إلى 12 زورقا. دفع باتوكو مقابل هذا القارب حوالى 100 ألف يورو. يُحكى أن وسيطا - رجل أعمال من بالياريس - كان يرسل له صورا من عملية البناء. تمكن باتوكو من أن يحظى بمساعدة ورشة في غاليسيا لتركيب المحركات الست وأجهزة الملاحة (والتي دفع لها 700 ألف يورو). تنصتت الشرطة على محادثة بين الميكانيكيين، وكشفت الصحفية إليسيا لويس عن تلك المحادثة في أحد أعداد جريدة إل بايس:

«لقد أتى رجال المافيا البارحة واشتروا المحركات. إنهم يجربون. سيأتون اليوم ويشترون. إنهم يحملون حقيبة فيها 10 ملايين بيزيتا، فهيا بنا نعد المال».

يقول إنريكه ليون، مدير قديم لمنظمة UDYCO في غاليسيا: «كان باتوكو شخصا طموحا يعرف ماذا يفعل. عندما كان شابا قال: «سأصبح زعيم النقل». كان يعرف جيدا ما يعنيه ذلك المنصب وكان طموحا للغاية». يتفق معه عنصر آخر في الشرطة ويقول: «إن الزورق الذي بناه سخر من الشرطة والحرس الوطني. إنه وحش. إنه الزورق الأكثر روعة في تاريخ غاليسيا».

كانت العصابة تحفظ جوهرتها في حظيرة خنازير. من الخارج، لم تكن الحظيرة التي تقع على مصب أوميا تلفت الأنظار. أما إذا نُظر إليها مع بعض التدقيق، فسيرى الناظر عشرات كاميرات المراقبة، والبوابات المصفحة، ووسائل أخرى لحماية الخنازير!! إن موقع هذه الحظيرة كان سرا، كان أعضاء الفريق يأتون إلى الحظيرة فقط بعد أن يقوموا بخمس دورات حولها، ولكثير من المرات في الأحياء والطرقات، أو كانوا يقودون بسرعة 20 كيلومتر في الساعة. يُحكى أن عمال الحظيرة كانوا يؤخذون ويوضعون في مواقعهم من قبل رجال باتوكو، الذين كانوا يقودونهم معصوبي الأعين.

كانت تدور حول الزوارق شبكة كاملة من الورش، والمخازن، والرافعات، والشاحنات، والمقطورات، ومحطات الوقود، والميكانيكيين، وأصحاب المخازن الذين يعملون لصالحه. لقد كان رفيق باتوكو خوسه آنخيل فاسكيس أغرا، ابن أخ الأب الكبير لعصابة «بيتوروس». أما شريكاه الأكثر قربا إليه فقد كانا بالتاسار فيلار دوران، الملقب «سارو»، وغريغوريو غارسيا تونيون، الملقب «يويو»، وهذا الأخير كان صهر باتوكو. لقد قاد كل منهما قسما في المنظمة بتسلسلية هرمية وبنية واضحتين جدا، كما كانتا سابقا في العصابات القديمة. كان «سارو» ينسق حركة جزء من الزوارق وكان لديه رجال ثقة، مثل بينيتو آبال، أخو باتوكو، ومثل خوسه فاسكيس بيريرو الملقب «ناندو»، بينما كان «يويو» يستفيد من دعم أقاربه، الإخوة روخيليو وخوان مانويل فابيرو: شكّل الثلاثة عصابة «الأقرباء» وكانوا يديرون الجزء الآخر من الأسطول.

إن هذا التمييز الداخلي بين رجال سارو ورجال «الأقرباء» كان مهما، وسينتهي بهم الأمر بالخلاف على من سيرث الأسطول بعد موت باتوكو. إن مثل هذا التنظيم حوّل بديل «باتوكو» إلى بديلٍ ديكتاتوريّ. في ذلك العام، ظهرت عصابة كامبادوس كمحتكرٍ في وسط ربابنة الزوارق، مستنزفة قوتها بمناوشات وجرائم بين العصابات التي اتينا على ذكرهاً سابقا. كانت تقود كل شيء،

وكل الربابنة تقريبا كانوا يعملون لصالحها. لقد قدمت العصابة خدمات للعصابات التي تتعاقد معها مقابل مئة ألف يورو تقريبا عن كل عملية إنزال.

لقد تمكنت قوى الجمارك (SVA) من رصد زوارق باتوكو في وسط المحيط الأطلسي، حيث استطاعوا الوصول إلى هناك خلال 20 ساعة. يقول ضابط في الحرس الوطني: «إنهم مثل الحشرات. يخططون كل شيء في البحر المفتوح، وهذا أمر سهل، لكن في المصب... إنهم يستطيعون تجنب كل القوارب الخشبية وكل الصخور بأقصى سرعة. وفوق ذلك فهم يحاولون الخروج ليلا أو عندما يكون هناك ضباب. الأمر في غاية الخطورة. كما لو أنهم يقودون منذ أن كانوا أطفالا، إنه لأمر يحفظون الطريق عن ظهر قلب».

في التاسع عشر من آب/أغسطس من عام 2008، غادر «ناندو» و«باتوكو» في زورق من أجل جلب حمولة في وسط الأطلسي، لكن لم يكن هناك أحد في مكان اللقاء. وعند العودة إلى مخبئهما، فوجئا بدورية من الحرس الوطني. لم يقم الحرس الوطني سوى بحجز الزورق، وغادروا تاركين المكان من دون مراقبة، الأمر الذي سمح لتجار المخدرات أن يغيروا مكان الرسو. لقد أثار عمل الحرس الوطني هذا غضب الشرطة الوطنية، التي كانت تراقب مخبأ العصابة منذ عام، والآن عليهم أن يبدأوا من الصفر. لم يتمكن أحد من القبض على باتوكو، لقد مات منذ أسابيع بحادث سير. اصطدمت دراجته النارية برجل مسن كان يقطع الشارع على نحو سيئ، فقد الاثنان حياتهما جراء الاصطدام.

إن موت القائد فتح الباب نحو فراغ خلافته. من ناحية، كان هناك «الأقرباء»، عائلته، ومن ناحية أخرى، «سارو»[56]، رجله الذي يثق به. إن المواجهة بين الطرفين كانت بداية النهاية. لقد سهلت المواجهة القبض على الجميع، وفككت الإمبراطورية التي أسسها باتوكو شيئا فشيئا. بدأت الحرب المعلنة، التي باتت فيها كل الفنون القبيحة مكشوفة في شباط/فبراير من العام 2009، عثرت قوى الجمارك على زورق متروك في منطقة موروس. كان مزودا بخمسة محركات بقوة 300 حصان، وكانت العنفات قد استبدلت بصفيحة معدنية من أجل توازن القارب، وهذا ما اعتبر إشارات غير قابلة للشك على أن القارب كان يعود لعصابة الراحل «باتوكو». بعد شهرين، في الخامس عشر من نيسان/أبريل، ظهر قارب آخر راسيا عند شاطئ رايروس، في غروفه، لقد عثر عليه صائد محار في أولى ساعات الصباح، وأبلغ عنه الحرس الوطني. إن هذين القاربين المتروكين كانا - على الأرجح - نتيجة تصفية حسابات بين «الأقرباء» وعصابة «سارو» و«باريدو». لم تكن هذه الخلافات مفيدة. إذ كان عليهم بدل أن يتعاركوا مع بعضهم، أن يكونوا متأهبين لما تحضره لهم السلطات: لقد كانت عملية تابابيا قد بدأت.

عملية تابايبا

لا تقل عملية تابايبا أهمية عن عملية نيكورا. بفضلها، تم تفكيك شبكة ربابنة الزوارق التي كانت تغمر غاليسيا بالكوكايين. إن الفلسفة خلف هذه العملية الجديدة كانت مختلفة عن تلك التي وضعها غارسون: حاول القاضي في العام 1990 مفاجأة كل الزعماء بغارة شاملة، أما عملية تابايبا فراقبت بصبر كل تلك البيئة قبل أن يتم الهجوم عليها وتفكيك كل أجنحتها المافيوية.

كانت استراتيجية أطلقها خوسه أنتونيو فاسكيس تاين وأكملها قاضي كامبادوس إيرين رورا. ألقوا القبض على ميكانيكيين، وعمال أحواض بناء السفن، وعمال محطات وقود، وسائقين، وسكان محليين كانوا يضعون مواقف سياراتهم تحت تصرف العصابات، وعلى أي شخص آخر وأي طرف يدعم هذه المنظمة بطريقة أو بأخرى. أصبح بيع محرك بدون سؤال يكفي لكي يحاكم البائع. لقد ولت سنوات النظر إلى الجانب الآخر. جميع من كان على اتصال بعصابة باتوكو سقط. لقد حوكم ما مجموعه 26 شخصا من خلال مرحلتين من الاعتقالات.

نُفذَّت عملية تابايبا بدقة متناهية، لأن الوحدة الخاصة لمكافحة المافيات والجريمة المنظمة وتهريب المخدرات كانت قد تأسست قبل سنتين، في العام 2007. وهي مجموعة مهام خاصة بالجريمة المنظمة (GRECO) تابعة للشرطة الوطنية، والتي تحولت إلى عدو يثير الخوف في عصابات غاليسيا.

سقط «سارو» و«باريدو» في كانون الثاني/يناير من عام 2009، في المرحلة الأولى من العملية. توجها مع أندريس غارسيا خيستو، من عصابة اللولو، إلى موخيا، حيث كانوا ينوون إنزال 360 كيلوغرام من الكوكايين. لكنهم تعرضوا لمقاطعة وتوجب عليهم رمي الأكياس وترك الزورق. بعد أيام، قُبض عليهم وأطلق سراحهم حتى موعد المحاكمة. استغل غريغوريو غارسيا «يويو»، من عصابة «الأقرباء»، الأمر لكي يستلم زمام أمور إمبراطورية باتوكو بمساعدة أقاربه، الأخوين فابيرو. بين كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير نُفِّذَت عمليتان نُقل فيهما ثمانية أطنان من الكوكايين. لكن في الثاني عشر من شباط/فبراير حصل شيء غريب: خسر «يويو» الباتوكا الزورق الطويل والضخم، انقطع فيه السبيل في ساعات الفجر الأولى، تهزه أمواج شاطئ أريا فوفا، في نيغران. لقد تعطَّل أحد المحركات. كان القارب يحمل على متنه 20 ألف ليتر من البنزين في الداخل، بالإضافة إلى المفارش وكمية كبيرة من الماء والأغذية. بكلام آخر، كان مجهَّزا لكي يذهب في رحلة طويلة إلى أعالي البحار. لماذا تركوا الباتوكا؟ تصفية حسابات جديدة؟ لقد كان لديه نزعة لتدمير الذات، ربما عانى الزورق من حادثة قبل الانطلاق أو أن الربان فوجئ بحجم وقدرة القارب. إن رمز العصابة

انتهى به المطاف مسحوبا بواسطة رافعة للحرس المدني، محاطا برهط من العناصر يقومون بأخذ بصمات الأصابع. في الوقت الحالي يقوم قارب «باتوكا» بدوريات في المحيط الهندي لصالح البحرية الإسبانية ملاحقا قوارب القراصنة الصوماليين.

بعد أسابيع من هذه الحادثة المأساوية، سقط «الأقرباء» في المرحلة الثانية من عملية تابايبا. قال شرطي في الشرطة الوطنية بعد الاعتقالات: «إنها المرة الأولى التي ينجحون فيها في توجيه تهم تختص بالجرائم المسيئة إلى الصحة العامة وتوجيه اتهام ضد أشخاص من ذوي النشاطات المختلفة، الذين كانوا يزودون الناقلين بأدوات خاصة بالمخدرات وهم يعلمون أنها تستخدم في تهريب المخدرات». في المجمل، حُكم على 26 شخصا، وصودر 12 زورقا سريعا، ويختان وقاربا صيد، وعشرات المحركات الخارجية، ورافعات، وجرارات لنقل الزوارق، وثلاث شاحنات، وسيارتا دفع رباعي، و180 ألف يورو نقدا. طالب الادعاء العام بالسجن لمدة 23 سنة لكل واحد منهم. هنا يجب التذكير بأن البطل لم يكن هناك، الرجل الذي قدَّم كل شيء: مانويل أبال فيخوو، الملقب «باتوكو». ملك منطقة المصب. رمز ربابنة الزوارق.

العصابات

دافيد بيريس لاغو والطيف الطويل لآل أوبينيا

القصة بالمختصر هي كما يلي: في العام 2005، وقع دافيد بيريس لاغو في حب تانيا فاريلا، أو لعلهما لم يقعا في الحب، أو على الأقل لم يكن حبهما حبا حقيقيا، لنقل إنهما بدآ يخرجان معا. إن تصريح دافيد بيريس بحبه عراه من العباءة التي دائما ما استتر تحتها بصفته زير نساء. تانيا محامية من كامبادوس، وهو وريث لاوريانو أوبينيا، ابن استير لاغو ورأس عصابة أوبينيا الجديد. بعد عام، من علاقة الحب أوقفتهما الشرطة بتهمة تهريب المخدرات. لقد تولى الدفاع عنهما المحامي المدريدي ألفونسو دياس مونيوس، الذي كان قد مثّل منذ سنوات سيتو مينيانكو ولاوريانو أوبينيا. تمكن المحامي من إطلاق سراح تانيا. مما مهد السبيل لإقامة علاقة حميمية بينهما انتقلت تانيا على إثرها لتعمل في مكتب المحامي في مدريد. إثر ذلك، بدأ المحامي يتلقى تهديدات، فما كان عليه إلا أن يبلغ بها محكمة التحقيقات الثانية عشرة في مدريد، وكذلك أبلغ مكتب الشرطة الذي يعنى بأمور الاختطاف والابتزار، وأكد أنه يتعرض للملاحقة. في الثامن عشر من كانون الأول/ديسمبر من عام 2008، وبينما كان المحامي متوجها ليستقل سيارته في حي تشامارتين المدريدي، تربص به قاتلان مأجوران وأودعا رصاصتين في رأسه، كانت تانيا إلى جانبه، لكن لم تصب بمكروه. قتل دياس مونيوس على الفور وفر القاتلان.

عندها بدأت الدراما، ولعب دافيد بيريس دور المتهم الرئيسي. ولكن كان هناك ثلاث فرضيات بشأن المحرض على القتل. الأولى هي أن الزعيم دافيد قرر الثأر من المحامي الذي سلب منه حبيبته، ولكنها فرضية تفتقر إلى الأدلة، وحتى كانت ضعيفة من الناحية المنطقية، لأنه في الوقت الذي انتقلت فيه تانيا إلى مدريد لتعيش مع المحامي، كان دافيد في غاية السرور بين أحضان أخريات. أما الفرضية الثانية فتشير إلى أن القتلة المأجورين كان يعملون لصالح الكولومبين الذين أرادوا تصفية حساب قديم بشأن خسارة جزء من حمولة. أما الفرضية الثالثة، وهي الأرجح والأقرب إلى الحقيقة، فهي تبتعد عن منطقة المصب، وتربط مقتله بدفاعه عن زاخار كالاشوف، رئيس المافيا الجورجية. أيا تكن الحقيقة، فالمؤكد أن تانيا فاريلا هربت في العام 2013، عندما كان سيصدر حكم بحقها بسبب انتمائها لعصابة دافيد بيريس لاغو. اختفت المحامية، وهي حاليا مطلوبة ويجري البحث عنها. يشك الإنتربول أنها في آيسلاندا، لكن أثرها فقد تماما.

يتذكر البعض عادات دافيد بيريس لاغو «دافيسيتو (= ديفيد الصغير)» في سني مراهقته، وشبابه عندما كان يدرس في مدرسة في سانتياغو دي كومبوستيلا، لقد كان مهووسا بالسيارات

المكشوفة، وبالحفلات، والفتيات. لقد كان الابن المدلل لتاجر المخدرات الأورساني. وهو يتمتع بميزة إضافية أخرى هي أنه لا يزال على قيد الحياة، ويخطط لمزيد من عمليات تهريب المخدرات. تعلم السلطات، أن نجم هذا الشاب سطع في العام 1999، عندما ساعد والدته، إستير لاغو، وزوج أمه، لاوريانو، على نقل 12 طنا من الحشيش في ريخينا ماريس. هذه العملية هي التي دفعت بأوبينيا إلى الهرب إلى اليونان حيث كان السجن بانتظاره. عندما قُبض على الدون لاوريانو في جزير إيوبيا، كان دافيد برفقة، وبالكاد كان قد بلغ 21 من العمر، وكان وقتها ذراع أوبينيا اليمنى. في السنة التالية، في العام 2001، عندما توفيت أمه في حادث سيارة، تولى دافيد بشكل نهائي زمام أمور العصابة، وعلى ما يذكر المحققون أنهم اطلعوا أثناء التحقيق على ما كان يتمتع به أثناء توليه أمور العصابة من ذكاء وبراعة.

تمكن وريث أوبينيا من إعادة إنشاء إمبراطورية أبيه بطريقة ما، وتحول إلى زعيم المخدرات الشاب في غاليسيا. عاش بين منطقة المصب ومدريد، وكان يهوى جمع السيارات الفارهة، وامتلك ثلاثة قصور (واحد في فيلاغارسيا، والآخر في مارين، والثالث في لاس روساس) بالإضافة إلى عدد كبير من الشركات. وبالرغم من كل مشاغله لم يكن يتوانى من التردد على حفلات المجتمع الراقي في مدريد.

قبض عليه في نيسان/أبريل عام 2006، خلال عملية شجرة البلوط. بينما كان ينزل طنين اثنين من الكوكايين في كورمه[57]، على شاطئ الموت، وهو أرض خاصة بعصابة اللولو، والذي كان يتعاون معها بشكل اعتيادي. حكم عليه بالسجن لتسع سنوات، وفي العام 2014 أطلق سراحه، ليجد محاكمة أخرى تنتظره تتعلق بتبيض الأموال. في شباط/فبراير من عام 2015، توصل إلى اتفاق مع الادعاء العام ووافق على حكم بالسجن لثلاث سنوات وهو ينفذ محكوميته في الوقت الحالي. كثير من رجال الشرطة يعتقدون أن قصة دافيد بدأت للتو، وفي هذا السياق يمكننا أن نورد هنا ما ذكره أحد ضباط الشرطة: «نعتقد أنه لا يزال يعمل. إنه أحد كبار زعماء غاليسيا. ولا شك أنه عندما يخرج، فإنه سيعاود نشاطه. نحن واثقون من ذلك».

في كانون الأول/ديسمبر من عام 2014، قُتل بيرناردينو فيرّيو بطلق ناري، وهو تاجر مخدرات آخر من موخيا. هناك شكوك بأن الدافع وراء قتله له علاقة بالكوكايين الضائع، لكن الشرطة في نهاية الأمر اعتبرت الأمر محاولة سطو من قبل عصابة مختصة بسرقة تجار المخدرات.

هناك قصة أخرى تشير إلى ما يناقض ذلك. فتجار المخدرات في غاليسيا يتداولون في ما بينهم أنه ما من أحد يحظى باتفاق مع السلطات إلا إن كان قد قدّم لهم بعض المعلومات. إن اتفاق دافيد مع السلطات وتخفيض حكمه وضعا وريث أوبينيا موضع المتعاون مع السلطات. إن انعدام الثقة لدى العديد من العصابات في أروسا تجاه دافيد كانت هائلة، وخاصة بعد أن عرفوا أنه لم يسجن إلا لثلاث سنوات من الحكم الصادر بحقه.

عصابة «البغال» تتفادى الموت

إن العصابة الأقوى في هذه الحقبة كانت عصابة البغال، وهي تدعى كذلك بسبب لقب قائدها، رافاييل بوغايّو «البغل»، رجل من كامبادوس بطول 180 سنتم وهو مولع بكمال الأجسام.

بدأ «البغل» بنقل التبغ لصالح آل تشارلين، بعدها قام بقفزته، وحظي بإعجاب ومديح لم ينله أي ربان قارب في أروسا، بعد فترة عمل ربانا لصالح عصابة «سيتو مينيانكو»، وشارك في عدة عمليات، نجا من الموت مرتين على الأقل. في الخامس من تشرين الثاني/أكتوبر من عام 1992، تحسس مسدسا يضغط على أضلاعه بينما كان يتحدث على الهاتف في كابينة هاتف. كان «توتشو» فيريرو من يوجه إليه المسدس بعد أن ضاق ذرعا لأن البغل لم يسدد له دينا كان له بذمته، قاده توتشو فيريرو إلى مقبرة وأجبره على حفر قبره. وعندما أصبح «البغل» داخل الحفرة، قفز منها، وعض يد توتشو وخرج راكضا بين طلقات الرصاص. إنها واحدة من القصص العادية من منطقة المصب! بعد عام من ذلك، حاول «توتشو» تصفية الحساب مرة أخرى. كانت ليلة من ليالي العام 1993، فقد توجه توتشو إلى النادي الذي اعتاد البغل السهر فيه، وذلك بعد أن قتل[58] دانييليتو كاربايّو في نادي «موسيو» في فيلاغارسيا واغتال خوان خوسه أغرا أمام ابنته.

بفضل اتصالاته المميزة، استطاع «البغل» عقد اتفاق في العام 2001 مع كارلوس كاستانيو، وهو قائد قوى الدفاع المتحدة الكولومبية (AUC)، وهي مجموعة عسكرية رديفة كولومبية تدعى في الوقت الحالي الأورابينيوس. صادرت الـ DEA من قارب الصيد «باول» طنين اثنين من الكوكايين في البحر الكاريبي، وأمر القاضي تاين بالقبض على «البغل»، الذي كان ينسق العملية من البر. وفي محاولة منه لسحب خطوط التحقيق، سافر قاضي مكافحة المخدرات دانييل ج. كاسيدي بنفسه من الولايات المتحدة إلى فيلاغارسيا، في عملية بحث عن علاقات بين القوى العسكرية الرديفة الكولومبية والعصابات الغاليسية. لم يسافر كاسيدي وحده، كان يرافقه عناصر من الـDEA، الذين يقومون بدوريات في أروسا بين القوارب والشواطئ. لربما كانت العملية كبيرة جدا بالنسبة إلى «البغل».

يشير صحفي يفضل عدم ذكر اسمه إلى شيء ملفت للنظر في ذلك الاتفاق: «كان البغل يعمل لصالح أحد ما من الطبقات العليا عندما وصل إلى ذلك الاتفاق. من المستحيل أن يكون هو من تفاوض مع القوى العسكرية الرديفة». لكن السؤال من الذي تفاوض؟ «إنه زعيم كبير من غاليسيا لا يعرف أحد من هو، أو بكلام أفضل، لا يستطيع أحد أن يقول من هو». سنعود إلى الأمر لاحقا.

من بين كل العصابات التي خلفت العصابات الساقطة، تمكن «البغل» من دون شك أن يؤسس العصابة الأقوى في غاليسيا. هرب بوغايّو إلى البرتغال عندما بدأ القاضي تاين بتقفي أثره، ومن هناك قاد عمليتي إنزال على الأقل. في العام 2006، كان على وشك الوقوع في الشرك عندما دخل لساعات إلى بلدة توي الواقعة عن حدود غالسيا. عندما رأى نفسه محاصرا، اصطدم بسيارة شرطة قبل أن يفر. في آب/أغسطس من العام 2008 وقع في قبضة قوى الجمارك عندما كان عائدا من عملية نقل طنين اثنين من الكوكايين أمام سواحل الرأس الأخضر.

شغل «البغل» المحركات على أعلى سرعة بينما كانت تطارده دورية من الشرطة وتحلق فوقه مروحية. بينما كان المهربون يشقون عباب البحر، كانوا يتخلون عن الأكياس (التي وصلت إلى

الشواطئ في الأسبوع التالي). عندما اقتربوا من شاطئ لانسادا في أروسا، أوقفوا القارب في الماء، وأضرموا فيه النيران، وصعدوا في سيارات دفع رباعي كانت في انتظارهم ليختفوا في الأدغال. في اليوم التالي، وجد السياح في لانسادا القارب المذهل شبه محترق فوق الرمل: بطول 19 مترا، وعرض 3 أمتار، و6 محركات كل واحد منها بقوة 220 حصان. لم يكن فيه أي أثر لأكياس الكوكايين. بعد أسبوع من ذلك، اعتقل الحرس الوطني «البغل» والربان المساعد له (قريب سيتو مينيانكو)، فيرناندو برادو.

في العام 2012، وبينما كان في إطلاق سراح مشروط، ظهر «البغل» مجددا في المشهد، أو حاول ذلك. كانت خطته تهريب 1700 كيلو من الكوكايين على متن قارب الصيد راتونيرو، المخصص نظريا لصيد سمك الاسقمري في بحر كانتابريا. لكن العملية فشلت، ألقي القبض على كل أعضاء العصابة تقريبا، وسُطر أمر بحث وجلب بحق «البغل»، الذي كان فارّا طيلة عامين. إن الأمر المذهل هو أن بوغايّو بقي مختفيا خلال ذلك الوقت في منزله - قصره - في كامبادوس، وكان يحظى بكل الخدمات التي يحتاج إليها تاجر مخدرات: مخابئ، ممرات، مسبح أولمبي، موقف لاثنتي عشرة سيارة، وكاميرات مراقبة في كل الغرف. كان «البغل» صعب الإرضاء: قبل عشر سنوات، دمّر الزعيم شاليه انتهى للتو من بنائه لأنه لم يكن كما تمنى.

حاول من القصر أن يدير آخر عملياته في كانون الثاني/يناير من عام 2015: أراد أن يدخل ٤ كيسا من الكوكايين الكولومبي على متن قارب الصيد كورال 1، الذي يرفع العلم الفنزويلي. لكن قوى GRECO هاجمت المنزل في السابع عشر من كانون الثاني/يناير، ووجدوه مرابضا في أحد مخابئه.

يقال إنه قال للعناصر: «سأحاول دائما أن أهرب». في اليوم التالي للقبض عليه، سأل صحفي أحد السكان عن رأيه بالزعيم. فقال الرجل: «إن رافايل شخص جيد، يا رجل! لم يقم بفعل أي شيء سيئ».

البغل «الذي لم يقم بفعل أي شيء سيئ»، يقبع الآن في السجن في انتظار إكمال كافة الأحكام المتراكمة عليه في السنوات الأخيرة.

«البيتوروس»، العائلة أولا

تلوح من السيرة الذاتية الخاصة بعصابة البيتوروس سيرة موازية لآل تشارلين: فهم مجموعة ذات روابط عائلية يشارك الجميع في الاتجار بالمخدرات، بشكل مباشر أو غير مباشر، من الآباء إلى الأبناء والإخوة وأولادهم. الأب الكبير هو خوسيه مانويل فاسكيس الذي يبلغ من العمر سبعين عاما، وقد سبق وأن تحدثنا عنه: عمل مع محامي المخدرات بابلو فيوكه وخانه أمام القاضي غارسون لأنه يدين له بالمال من عملية إنزال. لقد تحدثنا أيضا عن ابنه: خوان كارلوس فاسكيس غارسيا، الذي قبض عليه تاين في عملية إنزال شاطئ أربيال وهو يبلغ من العمر عشرين عاما. وأخيرا، خوسه آنخيل فاسكيس أغرا، رفيق «باتوكو» وذراعه اليمنى.

من هذا التيار العائلي - الذي يأتي كله من فيلانوفا - انبثق مانويل دياس فاسكيس، ابن أخ

الأب الكبير، الذي حُكم عليه في العام 2012 بالسجن لإحدى عشرة سنة بسبب مشاركته في محاولة إنزال 2200 كيلو من الكوكايين.

في الوقت الحالي، تخضع العصابة كلها تقريبا للتحقيق في عملية «البجعة». تتهمهم دائرة الضرائب بتبييض أربعة ملايين يورو يُفترض أن مصدرها تجارة المخدرات. أقامت العصابة بهذا المال أعمالا، مثل مركز تجاري في فيلاغارسيا، محلات تجارية عديدة لبيع الألبسة الباهظة الثمن وشركة صيد في أعماق البحار. إن معظم ممتلكاتهم وحساباتهم هي الآن مجمدة. بالرغم من ذلك، يمكن للجميع في فيلانوفا أن يعلم ما هي الأعمال الفندقية والتجارية الخاصة بعصابة البيتوروس، ويمكن لأي أحد أن يعلم أيا منها لا يزال يعمل بشكل طبيعي.

«الباناروس»، الذين يكرهون «البيتوروس»

القصة التي سنرويها تباعا هي متاهة تليق بقصة تشويق مافيوية. لا تفلتوا الخيط وإن للحظة إذا أردتم الخروج من سلطة الأسماء هذه أحياء: في التاسع عشر من شباط/فبراير من عام 2011، نظّم كل من مانولو الكتلوني وخواكين أغرا «بانارو» عملية إنزال كوكايين على متن قارب الصيد أبرينته. أوقف جميع من شاركوا في العملية، ولكن بعد ذلك أطلق سراحهم.

أغضب إطلاق السراح هذا البيتوروس، لأنهم كانوا مقتنعين أن خواكين أغرا كان قد حصل على حريته لأنه وشى بهم بسبب كمية مهربة أخرى. إن هذه الخيانة المفترضة التي كانت بمثابة قرع جرس بداية منافسة أنطلوجية بين كلتا العصابتين. حصل الهجوم الأفضل في المحكمة المقامة ضد المجموعتين في العام 2009. كان كل من الأب الكبير للبيتوروس، خوسه مانويل فاسكيس، وأخو قائد الباناروس، خوسه أغرا، جالسين على المقعد، متهمين بنقل ثلاث أطنان من الكوكايين على متن قارب الصيد بيتيرتيه (صعدت على متنه قوى الـ GEO عندما كان يبحر أمام كاديس). أكد فاسكيس في أقواله (الذي كان يسحب عنه وشاح المُخبر حيث إنه خان فيوكه أمام غارسون) أن رأس العملية كان خواكين أغرا (أخو خوسه)، وهو نفسه الذي كان قد وشى به في المحكمة بسبب عملية إنزال القارب أبرينته والذي لم يُحاكم حتى في هذه المحكمة.

إن الكلام غير المتوقع أغضب الباناروس، الذين ردوا الضربة. وعندما حان دور خوسه أغرا ليدلي بأقواله، أكد أنه لم يكن لديه أي علاقة بهذه القضية، لأن عائلته لا تربطها أي أعمال مع مانويل فاسكيس، الذي اتهمه بأنه «متعاون».

ويسهب البيتوروس في تفصيل ذلك، فلقد دعوه إلى العشاء في منزلهم في فيلانوفا في العام ، وأن زوجة «بيتورو» كانت هي من اقترحت المشاركة في عملية الإنزال. وقال إن مهتهم كانت قيادة الزورق الذي كان سيلتقي مع البيتيرتيه. رفض خوسه أغرا العرض مؤكدا أنه يعاني من مرض في القلب. بعد ذلك، قال له أخوه خواكين[59] مازحا: «لا تقتل نفسك مع البيتورو المتعاون مع الشرطة».

لم يصدر الحكم في مصلحة أي منهما: حُكم على «البيتورو» بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاما، وعلى خوسه أغرا «البانارو» بالسجن لمدة أحد عشر عاما. ولأنهم عصابة أروسانية جيدة، فإن عراك

«البانا روس» لم ينتهِ بعد.

آل روما، العرافون وأثداء الإنترنت

إنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. بكلام آخر، هو مثال على قاعدة أخرى ليست شائعة. كان آل روما عصابة غير معروفة بالنسبة إلى الشرطة، عندما سقط قائدهم راميرو فاسكيس روما في تشرين الأول/أكتوبر من عام 2007. كان ذلك بمثابة مفاجأة بالنسبة إلى كثير من السكان وأمرا مستجدا غريبا بالنسبة إلى الشرطة، حيث إنهم لم يتوقعوا ذلك. كانوا استثناء، لأنهم لم ينحدروا من الزعماء التاريخيين ولا كان لهم علاقة بالاتجار بالمخدرات في فترة التسعينات، كانوا مثالا على قاعدة مختلفة، لأنهم شكلوا دليلا على أن هناك آخرين يعيشون في ظل أسماء وعائلات الاتجار بالمخدرات الكبرى في غاليسيا. كان فاسكيس روما بحارا من كامبادوس ذاع صيته في صناعة قوارب السياحة، وحتى أنه امتلك حوض بناء خاص به، في كامبادوس أولا، ومن ثم في فيانا دو كاستيلو في البرتغال.

بقدراته غير المتناهية تمكن من أن يبني إمبراطورية تتضمن - بين كثير من الأشياء - فندقا في ريبادوميا، عشرة عقارات، عشرين مزرعة ريفية، كروم عنب، خمسة قوارب، وأسهما في أحواض بناء سفن في فيغو والبرتغال. عاش قسم كبير من عائلته على هذه الشبكة الكبيرة، الأمر الذي حوّل آل روما إلى عصابة أخرى. كان الزعيم يبني في حوض السفن في البرتغال زورقا بطول 25 مترا (أكبر من زورق باتوكا)، وتبين من التحقيقات أن المشتري المحتمل كانت مجموعة مهربين مغاربة، كان الزعيم رجل الأعمال يبيعهم الزوارق عادة.

وبناء على ما ورد في التحقيق، فهو لا يزال على رأس عمله، كانت العصابة توزع على البر كوكايين الإخوة ساين سالاسار (واحدة من تلك المجموعات الكولومبية الوريثة للعصابات القديمة).

يقول قائد في الشرطة الوطنية معلقا: «روما هو مثال عن رجل الأعمال التقليدي من منطقة المصب الذي حظي بفرصة القيام بإنزال ونجح الأمر بشكل جيد. نظن أن هنالك الكثير من القضايا المشابهة. يقومون بضربة واحدة ويتابعون أعمالهم القانونية. لكن الجشع يستحوذ على البعض منهم ويتابعون في الأمر. هكذا كانت قضية هذا الرجل». وكما قال المدعي العام، فإن فاسكيس روما حاول في العام 2007 إدخال أربعة أطنان من الكوكايين عبر موراسو. في العام 2013، وبينما كان روما في انتظار الحكم وقد تجاوز الحد الأقصى للإقامة المؤقتة في السجن، عاد وقاد عملية. كانت الحمولة هذه المرة تعود إلى زعيم فنزويلي يدعى خوسه غريغوريو.

لقد تحالف روما من أجل عملية الإنزال هذه مع زعماء تهريب تاريخيين في غاليسيا، مثل فرانسيسكو خافيير سواريس، وهو رجل كلاسيكي من فترة التسعينات. وبحسب ما كشفت التحقيقات، ولعدم إصدار أي حكم، نظمت العصابة تهريب حمولة تصل إلى 3400 كيلو من الكوكايين جلبها قارب الصيد السنغالي «ريبيده». كان عليه أن يلتقي مع القارب الشراعي «بيسابو» في السادس والعشرين من أيار/مايو من عام 2013، لكن شيئا ما حصل على القارب ولم يستطع متابعة السير. في تلك الأيام نفذ العملية أحد المشاركين من الخطوط الثانية، تاجر المخدرات مانويل رودريغيس

كاميسيّا، بعد أن سيطر الرعب عليه، اتصال بعرافة أكثر من عشرين مرة ليسألها إذا كانت العملية ستجري على ما يرام. قالت له العرافة في كل المكالمات أن الأمر سيجري على أفضل وجه. لكن يبدو أن العرافة فشلت بأداء مهمتها الروحية: بدأ القارب «ريبيده» يدور حول نفسه بينما كان في انتظار القارب الشراعي، وسمحت المناورة الغريبة للجيش أن يحدد موقعه ويهاجم. بين الشائعات والمعلومات، حدد المحققون موقع ال- «ريبيده» لأن واحدا من طاقمه، وهو شاب أندونيسي، دخل إلى شبكة بورنو وأدخل إلى حاسوبه حصان طروادة من أجل أن يكشف كلمات المرور مستخدما برامج تسرب إحداثيات موقعه. إن تلك العملية، التي سُمِّيَت «الباتروس» (= القطرس)، تُعرف في أروسا باسم «أثداء المئة مليون يورو»، وهو السعر التقديري للكوكايين المنقول على متن القارب.

آل تشارلين لا يموتون أبدا

لقد عادت العصابة الشبيهة بالعصابات الصقلية إلى الحياة. في العام 2006، فككت عملية «الومضة» من جديد شبكة تشارلين. ظن البعض - المفرطون بالثقة - في غاليسيا أن آل تشارلين قد انتهوا. ولكن خابت ظنونهم، ففي آب/أغسطس من تلك السنة، أقدم ابن أخ الأب الكبير، خوسه بينيتو تشارلين باس (ابن خوسه بينيتو - يبدو وكأنه قضى مئة عام من الوحدة - الزعيم الأخ لل- «الكبير» الذي مات بنوبة قلبية في العام 2007، بعد أن حاول إدخال أربعة أطنان من الحشيش في صهريج شاحنة مليئة بالزيت رصدها كلب في ألخيسيراس) كنا نقول أن ابن أخ الأب الكبير أقدم على ترأس العملية التي شاركت فيها عصابات أخرى من منطقة المصب والتي كان الهدف منها إدخال خمسة أطنان من الكوكايين على متن يخت فاخر يدعى «زينيث». عندما كان اليخت عائدا إلى كورونيا في آب/أغسطس عام 2006 وهو محمل حتى السقف، اعترضت طريقه قوى الجمارك. مرة أخرى، أكياس في الماء، ومرة أخرى، رأى الغاليسيون بعد شهرين الكوكايين الذي حملته أمواج البحار. إن خسارة تلك البضاعة لم ترق لخورخه إيساك فيليس أبدا، وهو ممثل عصابة كالي الكولومبية العتيقة والذي يستقر في مدريد. أعادوا المحاولة في كانون الأول/ديسمبر وفشلت مرة أخرى. هذه المحاولة الثانية الفاشلة انتهت بغارة قامت بها الشرطة. بالإضافة إلى الزعيم الكولومبي وإلى خوسه بينيتو، سقطت أيضا أسماء أخرى تنتمي إلى عصابات تاريخية، مثل خوسه لويس أوبينيا أوسوريس، ابن عم لاوريانو، ودانييل باولو (هذا الأخير أُعفي)، وابن مانويل باولو، من عصابة «الكانيوس». إن رؤية «الكانيوس» وآل تشارلين سوية من جديد يلفت الانتباه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مانويل باولو كان قد اغتيل في منزله من قبل قتلة مأجورين كولومبيين، من المفترض أنهم كُلفوا بالمهمة من قبل آل تشارلين.

إن العودة الجديدة لآل تشارلين حملت في طياتها تصفية حسابات لا يمكن غض النظر عنها، مثل اختفاء فيرناندو كالداس في العام 2004 - لا يزال الغموض يكتنف هذه القضية. كان كالداس يعمل لصالح آل تشارلين، كتاجر مخدرات وكموظف في متجر هواتف محمولة تملكه العصابة. تقول صديقته نيريا: «بدأ يقوم ببعض المهام، وبما أنهم كانوا يدفعون له جيدا، امتلأ جيبه ولم ينقصه شيء. إن مشكلة كالداس هي أنه كان يُعلم الجميع في كل مرة يدفعون له». ويقول أبيل، وهو صديق لكالداس: «كان يملك سيارة مكشوفة معدّلة، تحتوي على شاشة DVD في داخلها ومكسية بمواد تنجيد بيضاء

اللون. أتى في يوم من الأيام إلى متجري وسألني في ما إذا كنا نمتلك موازين دقيقة وآلات عد أموال. قلت له لديّ واحدة. أخذها وعاد إليّ في اليوم التالي قائلا: «أحضر لي عشرة أخرى»».

كان زعيم العصابة في تلك الفترة خورخه دوران بينييرو، زوج روسا ماريا تشارلين، ابنة أخ الأب الكبير. في العام 2005، كان دوران بينييرو يمضي عقوبة قضت بسجنة تسع سنوات بسبب تهريبه المخدرات، وهو في الوقت الحالي بانتظار حكم آخر. لم يكن بينييرو معجبا بتباهي كالداس وكان يوليه القليل من الاهتمام. لكن الشاب تابع ما يخصه. في السادس عشر من تموز/يوليو، لم يحضر إلى العشاء في منزل والديه. ولم يرد أيضا على هاتفه المحمول. تتذكر نيريا: «بدأنا نتصل به، في البداية كان هناك رنين، لكن لاحقا، أصبح الخط دائما مشغولا. بدأت أتخيل الأسوأ، لأن الأمر مع هؤلاء الناس...» إن الأسوأ هو أن فيرناندو لم يظهر. ولم يظهر بعد ذلك. وفقا للتحقيقات، قام آل تشارلين بتصفيته في العام 2004 لأنه لم يتوقف عن الثرثرة بعد كل عملية تهريب. تفيد الشائعات في أروسا أن الجسد دفن تحت عمود جسر ميّادويرو، الذي كان قيد الإنشاء في تلك السنة على الطريق السريع AP-9، على مشارف سانتياغو دي كومبوستيلا. إن الحقيقة الوحيدة هي أن كالداس لم يعد أبدا، وأن الجميع في منطقة المصب يعلمون أنه قُتل.

رجال باربانسا، المتخفين

كان لخوسه أنتونيو ريفاس، الملقب «الشعر المدبب» (والذي بالمناسبة لم يكن شعره أجعد بل كان سابلا، يا لها من ألقاب غريبة عجيبة)، ستة أبناء من خمس نساء مختلفات، كلهن برازيليات. كن جميعهن واجهات له، وسميت الكافتيريات التي كان تاجر المخدرات يمتلكها بأسمائهن.

بالإضافة إلى كون «الشعر المدبب» عاشقا وسيما، كان أيضا واحدا من تجار المخدرات المعروفين في باربانسا، المقاطعة المستقرة على الضفة الشمالية لمصب أروسا. كان يعمل مع مهربين مغاربة، وكان يكرّس نفسه قبل كل شيء للحشيش. حتى حصل ما حصل. لم يكن غافلا عن المقولة التي تفيد أنه في عالم المخدرات سيحصل شيء سيئ عاجلا أم آجلا. عندما حصل ذلك، ذهب البعض إلى السجن واختفى البعض الآخر ببساطة. هذا ما حصل لبيرناردو أميل فيّافيرده، تاجر مخدرات من بونتيفيدرا، ول- «الشعر المدبب» في العام 2010، عندما غرقت (كما هو مفترض) حمولة حشيش يبلغ وزنها أربعة أطنان على مشارف لشبونة. أنكرت المجموعة المغربية هذه الحادثة التي كانت هي نفسها شريكة فيها.

تقول زوجته في تلك الفترة، الشابة البرازيلية تايسا دا سيلفا، للشرطة: «حصل شيء خطير له، لأنه كان معتادا أن يودعني ويأخذ أمتعته». لاحق المحققون الدليل حتى المغرب، البرتغال، والبرازيل. لكنهم لم يعثروا على خيط واحد يمكن متابعته. هناك احتمالان: إما تصفية حسابات أو فرار من القانون، حيث كان «الشعر المدبب» يواجه محكمة بتهمة تبييض الأموال في تلك الأيام. أُغلقت القضية في كانون الأول/ديسمبر من عام 2014، بالرغم من أن دليلا يهدد استئنافها كل شهر.

هناك نوع من السحر يحتمي به تجار مخدرات باربانسا. أو أن لديهم ميل للاختفاء. إن القائمة

ليست قصيرة. فالزعيم التاريخي، وهو أيضا من ريبيرا، مانويل غونساليس كروخيراس، الملقب «كاراياّن». سبق لنا وتعرفنا إليه كان هو من نفذ عملية في العام 1991، التي كلفّ بها عنصرٌ من الحرس الوطني عمدةَ إحدى البلدات. عملية الواقع السحري. كان كل شيء تقريبا في حياة «كاراياّن» على هذا النحو، صعب التصديق. يتذكره سكان ريبيرا جالسا على واحد من تراسات البلدة يناقش بدون تمويه أخلاقيات عمل مهرب المخدرات. كان يفعل ذلك ولم يكن يموه. عندما ينهي النقاش، كان يقف ويدفع ثمن المشروبات لكل الحاضرين. كان دوما يرفع رزمة من المال نحو الأعلى.

إن جدول رواتب عمليات إنزال «كارايان» طويل جدا. إن أسوأ أمر حصل له هو المينيات في عام 2002، والمينيات هو قارب صيد كان يحمل 1800 كيلو من الكوكايين، تم إيقافه في عملية «القنديل». حُكم على «كارايان» بالسجن لثلاثة عشر عاما، في أول إذن إصلاحي حصل عليه، خرج ولم ينظر إلى الخلف. اختفى وهرب إلى كولومبيا كما أورد المحققون. بالرغم من ذلك، يؤكد أحد السكان المحليين أنه كان يراه بين الحين والآخر في ريبيرا. كان لـ «كارايان» طقس خاص به يمارسه على هواه: بين عامي 1994 و1997، كان أيضا هاربا، وانتهى به المطاف بتسليم نفسه للشرطة. أما المرة الثانية، فلم ينتهِ الأمر على ما يرام. مات «كارايان» في آذار/مارس من عام 2014 في مستشفى كولومبي، مات ضحية الدقيق الأبيض، كما يقولون.

قبل ثلاثة أشهر، في كانون الثاني/يناير، كانت الشرطة قد عثرت على غييرومو فالكون فونتان، الملقب «ميتو»، وهو تاجر مخدرات آخر من ريبيرا. كان قد اختفى طيلة سبع سنوات، قبل أن تتمكن منه في عملية «التيخو»: خمسة أطنان من الكوكايين، كان عليه أن يوصلها إلى أروسا ولم يعبر من أسوريس. إن المذهل في الموضوع هو أن الشرطة قبضت على «ميتو» في مسقط رأسه، ريبيرا، حيث قضى معظم حياته هناك على ما يبدو. عندما قبضوا عليه، كان ميتو يضع شعرا مستعارا وقبعة.

خوسه أنتونيو كريو، ذاك الرجل الذي رآه متعاونٌ مع الحرس الوطني جنبا إلى جنب مع مارسيال دورادو في إحدى عمليات الإنزال، وهو أيضا من عداد المفقودين. خرج ذات يوم من منزله لحضور محكمة ولم يعد حتى اليوم. ومن المفقودين أيضا خوسه كارلوس بومبار، تظن الشرطة أنه في غامبيا، وهو يعمل في صيد السمك بعيدا من التهريب، سانتياغو غارابال فارغا هو أحد المختفين، زعيم تاريخي قضى عشرين عاما لا يعلم أحد أين. سنتحدث لاحقا عن لويس فيرنانديس توبيو، آخر رجال باربانسا المختفيين. إن قصته قصة مافيوية، حيث اختفى وهو شاهد أساسي قبل بدء محكمة ضد عصابة «باستيليروس».

آثار الدقيق

«هل تعلم أنهم كانوا يغضون النظر سابقا

عن تجار المخدرات؟ الآن يغضون النظر عن

أموال تجار المخدرات».

العودة الأبدية

إلى زمن قريب، كان يتوافد إلى منطقة المصب في أروسا عشرات الصحفيين من كل أوروبا: تلفزيونات ألمانية، صحف فرنسية، مجلات هولندية... جميعهم جاؤوا من أجل اصطياد أخبار العملية الأخيرة، لالتقاط صورة آخر كمية مهربة من الاكياس المرتبة على نحو آسرٍ على رصيف المرفأ. أمنت الصحف الإسبانية بعثات إعلامية خاصة، وكان كذلك لوسائل الإعلام الغاليسية تغطيتها الخاصة في فيلاغارسيا. لا نجد اليوم صحفيين مكرسين - بعمل كامل - لمتابعة موضوع المخدرات في غاليسيا. إن وسائل الإعلام ذاتها في غاليسيا توقفت عن إعطاء القضية اهتماما. يريد الإعلام أن يظهر أن ما من شيء يحصل، وأن تهريب المخدرات أصبح من الماضي في غاليسيا. لكن الأمر ليس كذلك.

يقول ضابط في الحرس الوطني متخصص في مكافحة المخدرات: «إن الرسالة التي تُرسل عبر الصحافة هي أن هناك فقط ثمانية إلى عشرة رجال يقومون بأفعال شائنة. لكنني أقول إن هناك أكثر من ذلك بكثير، هنالك عصابات وهي منظمة. وهي تزداد قوة يوما بعد يوم. ولكن الصحافة لم تكن لتهتم لذلك. فلطالما ظلت تلاحق زعيما ولمدة عام ولكننا لم نربح أي شيء. لقد تعب القاضي وأغلق التحقيق في وجهنا. إن عدم المبالاة هذه قدمت لهذه العصابات النامية فوائد جمة».

إن عملية تابابيا، أشارت إلى مرحلة ثانية في تهريب المخدرات في غاليسيا عام 2010 (إن الإشارة الأولى جرت قبل هذه الثلاثية بين 2001 و2003). بالرغم من أن ذلك حصل عام 2003، فإن الكولومبيون عادوا للبحث عن بدائل، من دون أي نجاح كبير. يقول قاض يفضل عدم ذكر اسمه: «جربوا عبر أفريقيا والأندلس، لكن ظنهم قد خاب. منذ سنتين، أدخلت الـ FARC[60] كمية تصل إلى 20 طن من الكوكا عبر أفريقيا وسُرق 20 في المئة منها. لا يحصل مثل هذا الأمر في غاليسيا. لذلك هم يعودون إلى هنا». ويضيف مدير الـ UDYCO في غاليسيا فيليكس غارسيا: «نعم، إنهم يعودون. لطالما كانوا على ثقة وتعاون مع العصابات الغاليسية. مرت سنوات كثيرة من التفاهم». وماذا عن الأندلسيين؟ «حسنا، إن الأندلسيين هم كما هم». هكذا عبّر ضابط في الحرس الوطني. ويتابع: «لقد عملت هناك أيضا، كنت ألاحق تجار المخدرات الأندلسيين، لا يمكنك المقارنة. هناك يدخلون إلى سياراتهم، وتستطيع أن تلاحقهم مسافة 80 كيلومترا بدون أن يلاحظوك. أما هنا، فإذا كنت تلاحق زعيما غاليسيا لأكثر من 10 دقائق، فسوف يستشيط غضبا. إن تجار المخدرات في غاليسيا هم الأفضل مع فروقات كثيرة، ولذلك يحبهم الكولومبيون».

يقول صحفي خبير في تهريب المخدرات في غاليسيا: «لا تزال غاليسيا حفرة كبيرة مليئة

بتجار المخدرات. مليئة بالناقلين وربابنة الزوارق. عندما يتم إيقاف أحد ما، يظهر على الفور من هو جاهز للحلول مكانه». تكشف معطيات من الحرس الوطني، بإن 80 في المئة من القوارب التي تزيد حمولتها على أكثر من طنين اثنين من الكوكايين والتي أبحرت من عام 2000 حتى اليوم باتجاه أوروبا كانت تتوجه إلى غاليسيا. يسأل ضابط الحرس الوطني ساخرا: «وهل هذا قليل؟ وهل يعني هذا أن ما من شيء يحصل هنا؟ إن آخر عشر قوارب قمنا بإيقافها، والتي كانت تحمل أكثر من طنين اثنين من الكوكايين، كانت تتوجه إلى منطقة المصب». إن المعطيات ليست قابلة للأخذ والرد، وهي تشير إلى أن غاليسيا تعود لتصبح مرفأ لوصول البضائع المهربة الكبيرة.

ويقول الصحفي: «سيكون هناك مراحل نشيطة ومراحل أخرى أقل نشاطا، إلا أن غاليسيا، وكانت وستبقى مركزا لتجارة المخدرات. لا تزال غاليسيا باب دخول الكوكايين، وستستمر كذلك بينما العالم لا يتفق على ذلك». يشير هذا النداء العالمي إلى أن غاليسيا قطعة أخرى في سلسلة تدور حول العالم وتنقل الأكياس من كولومبيا وآسيا إلى الولايات المتحدة وأوروبا، مع عشرات البلدان والمنظمات المتورطة ومع كمية هائلة من المصالح المختلطة بالسياسة. إن الإدعاء بتفكيك الظاهرة في غاليسيا يشبه تغيير عجلة سيارة وهي تسير.

لا تزال كولومبيا تلعب دور المزود. إن العصابات القديمة سلمت زمام أمورها إلى مجموعات منظمة ينحدر زعماؤها من تلك المنظمات التاريخية التي كان مينيانكو وآل تشارلين والبقية يعملون لصالحها. إن مقراتهم في فينزويلا ولديهم مكاتب في إسبانيا. يقوم ممثلوهم بتنسيق العمليات، يتولون أمور الدفع ويطبقون القانون في حال فشل قضية ما. يقول فيليكس غارسيا: «منذ وقت قليل، كان هناك ثلاثة كولومبيين في غواردا يسألون عن أمر ما. يبدو أن شيئا ما حصل أثناء عملية إنزال». إن اللكنة الكولومبية لا تزال تعتبر سوء طالع في منطقة المصب.

ليس هناك من حصرية في هذه التجارة ولكن بالرغم من ذلك فلقد كانت العصابات الكولومبية وميليشيا الـ FARC والقوى العسكرية الرديفة تطلب خدمات تجار المخدرات الغاليسيين.

منذ سنوات، حصلت العصابات على مزود آخر ذي شهرة رنانة. إنها الكامورا النابولية. يؤكد ريكاردو تورو مدير الـ GRECO في مقابلة شهيرة عام 2010 لصحيفة فارو دي فيغو أن الكامورا ومجموعات إيطالية إجرامية أخرى كانت تستخدم ناقلين من غاليسيا - من منطقة المصب على وجه التحديد - لإدخال الكوكايين إلى إسبانيا ومناطق أخرى في أوروبا.

«إن الكامورا على صلة بالعصابات الغاليسية، في الحقيقة، لدى محكمة مكافحة المافيات تحقيقات مفتوحة في هذه القضية». دق ناقوس الخطر للكامورا في شباط/فبراير من عام 2009، عندما حاول النابوليون إدخال خمسة أطنان من الكوكايين إلى الشاطئ الغاليسي على متن قارب الصيد «دونيا فورتونا». كانت هذه العملية الفاشلة منسَّقة من قبل الزعيم خوسه مانويل فيلا سييرا، الملقب «الرئيس». يشرح المدعي العام المختص في مكافحة المخدرات في بونتيفيدرا مارسيلو دي أسكاراغا منذ بضع سنوات أن العلاقة بين الكولومبيين والكامورا ليست مباشرة، بل تلعب العصابات في منطقة المصب دور الوسيط بين الإيطاليين والكولومبيين. «نشأت العلاقة مع الكامورا عندما أراد الإيطاليون

أن يستوردوا الكوكايين. صعّبت اللغة علاقاتهم مع الكولومبيين، بالإضافة إلى ذلك، كان الغاليسيون من لديهم الاتصالات. لذلك لعبوا دور الوسيط، وتجنبت العصابات الغاليسية دائما العلاقة المباشرة للإيطاليين مع الأمريكيين الجنوبيين لكي يظلوا معتمدين عليهم. إن كل الكوكايين الذي يصل إلى الكامورا لا بد أن يصل عبر قناة الشبكة الغاليسية».

ولكن السؤال المهم: «وماذا عن العصابات المكسيكية؟» إنهم في الوقت الحالي الأكثر قوة في العالم في مجال الإتجار بالمخدرات. على أية حال، ليس هناك من معطيات تشير إلى أنهم يصدرون الكوكايين بكميات كبيرة إلى أوروبا، أو على الأقل يقومون بذلك عبر غاليسيا. «نحن نعرف أنهم قدموا عروضا وقالوا لهم لا. لا نعرف لماذا». هذا جواب قائد في الشرطة المدنية. لا يبدو الموضوع واضحا جدا، بالرغم من ذلك، في تشرين الأول/أكتوبر من عام 2012، تسربت معلومات تقول إن خلف البضاعة المهربة على متن السفينة الموقوفة «نيكولاي» التي كانت تتجه نحو غاليسيا كانت عصابة «سينالوا».

أُوقِف في هذه العملية عدد من الكولومبيين الذين من الممكن أن يكونوا متحالفين مع العصابة المكسيكية. حذرت الـ DEA - وفقا للمعلومات نفسها - الحكومة الإسبانية من أن مجموعة سينالوا التي يقودها «إل تشابو غوسمان» كانت تخطط للتمركز في مدريد. حتى الآن هي مجرد تخمينات، أو أن السلطات تفضل عدم البت في الأمر.

لقد ظهرت أيضا في المشهد المجموعات البلغارية. يزدادون قوة في كل مرة ويوجهون أعينهم إلى منطقة المصب في غاليسيا. يهربون الهيرويين من بين الأشياء الأخرى، والهيرويين مادة يزداد رواجها، رخيصة جدا ولديها عدد متزايد من المستهلكين. يقول فيليكس غارسيا: «إنهم يعرضونها على الغاليسيين لكي يقوموا بإدخالها إلى السوق. إنهم عصابات خطيرة جدا. ونحن نعلم أن بيبه دي فيميانسو متورط بهذه القضية». يشير فيليكس - وهو يكاد يضحك - إلى خوسه كالفو أندراده، الملقب «بيبه دي فيميانسو»، وهو تاجر مخدرات من غاليسيا حكم عليه في العام 2004 بالسجن لتسع سنوات بسبب محاولته إدخال ثلاثة أطنان من الكوكايين.

وأيضا يولاندا تشارلين، كما سبق ورأينا، ابنة أخ الأب الكبير لآل تشارلين، قُبض عليها في العام 2013 وكانت مرتبطة بشبكة تهريب هيروين. ويكمل: «لكن كان علينا أن ننظر أبعد من ذلك إلى الأمام، إلى النيجيريين. إنهم المستقبل».

إن ما يثير الفضول هو أن العصابات لم تتخلَّ عن طرقها التقليدية، في كل مرة نراها تبعث مرة أخرى من الرماد. يقول ضابط في الحرس الوطني: «في يومنا هذا، تدخل أغلبية المخدرات في حاويات. وأيضا عبر المراكب الشراعية. لكن لا يزال هناك قوارب وزوارق. وخاصة في غاليسيا». إن السبب الذي حافظ لأجله النظام القديم في النقل عبر القوارب على نفسه ليس له علاقة بالحنين. بل إن السبب اقتصادي. فهو يحقق أرباحا كبرى، لأنه من الممكن عبر هذه الطرق تهريب كميات أكبر وتوزيعها على نحو أسرع. وليس فقط هذا: إن الناقلين الغاليسيين - أو كل من يستخدم طريقة الإنزال في البحر - يتقاضون سعرا أعلى. إنها شركات مدرة للأموال، وعصابات لذلك فهي ما زالت على قيد

الحياة وهي تتكاثر. وهكذا، فإن العائدات المالية الضخمة تستحق المخاطرة.

يقول فيليكس غارسيا: «من المعتاد أن تُهرَّب الكميات الأصغر عبر جنوب إسبانيا، عبر الأندلس على وجه التحديد. إنهم يملأون الحاويات أو يستخدمون القوارب الشراعية. ليكن في حسبانك أن خمسة في المئة فقط من الحاويات التي تصل إلى المرفأ تخضع للتفتيش. إن احتمالية تمريرها عالية. لا يستخدم الغاليسيون كثيرا هذه الطريقة. إنهم رجال بحر ويفضلون الكميات الكبيرة». في يومنا هذا، وكما تقول الشرطة، هناك عشرة زوارق في منطقة المصب في غاليسيا، لكنها لا تكثر من الخروج إلى البحر كما كانت تفعل في عهد باتوكو. «إنها تحت المراقبة الكثيفة. إننا نتبعها خطوة بخطوة». إن كل حركة تقريبا مرصودة، أو على الأقل مسجلة. لقد أصبح الحصول على البنزين يعبر عملا بطوليا بالنسبة إلى العصابات. عليهم أن يحصلوا على الوقود من المهربين وأن يأخذوه إلى القوارب. «إذا ما وردنا فجأة خبر شرائهم 600 ليتر من البنزين في فيلانوفا، فإننا سنقفز فورا: «اللعنة! ما هذا؟» لم تعد الأمور كما كانت، لقد كانوا الملوك هنا، وكانت محطات الوقود ملكا لهم. الآن، إننا نراقب كل خطوة يخطونها، وهم يعرفون ذلك». يبدو أن الضابط كان يحذرهم.

إذا حصل عطل في عمل الزورق، فإن العصابات لديها فقط ثلاثة أو أربعة أشخاص لكي يحضروا ويصلحوه. اليوم لا يرغب أحد بفعل ذلك. إذ يتمنع الميكانيكيون عن فعل ذلك لأنهم يعرفون - منذ سنوات - أن الشرطة ستلاحق الجميع، وهم من بين الجميع الذين تلاحقهم تلك الشرطة.

إن الدور الحالي لمهربي المخدرات في غاليسيا هو النقل، كما سبق وشرحنا. تقوم بعض العصابات بالتوزيع، لكنها قليلة. إن العصابات قوية ولديها كثير من الناس يعملون تحت جناحها، لكنها لا تشبه بأي شكل من الأشكال العصابات المافيوية التي شهدتها غاليسيا في الثمانينات والتسعينات.

إن معظم الزعماء حاليا يودعون أموالهم في سويسرا، أو سنغافورا، أو هونغ كونغ. إن مشكلتهم وصداع الرأس الكبير الذي يعانون منه هو تبييض الأموال. إن القانون يصبح يوما بعد يوم أشد صرامة، والشرطة المالية تطور نفسها كل يوم، إنهم يراقبونهم عن كثب. الجميع وقع في الفخ نفسه تقريبا. كما أن الإفلاس العقاري أثر عليهم. إذا كانت البنوك في أروسا قد فتحت أبوابها سابقا لإستير لاغو التي أتت حاملة أكياس قمامة مليئة بالدولارات والفلورينات والبيزيتا، فالآن لا يريد أي بنك في غاليسيا أن يعرف أي شيء عما يخص الاتجار بالمخدرات. لقد ولت إلى غير رجعة تلك السنوات التي كان يذهب فيها أحد السكان إلى الصراف ويودع في حسابه أربعة ملايين بيزيتا من دون أن يسأله أحد عن مصدرها.

منطقة معادية

«إنهم مُحكمو الإغلاق، وفَطنون للغاية». يكرر المحققون هذه الجملة منذ 30 سنة. ويقول ضابط في الشرطة: «إنه من الصعب جدا الدخول إلى هذه العصابات. لم نتمكن حتى اليوم من سبر غور علاقاتهم على أكمل وجه ولا كيف يعملون على نحو تفصيلي».

إن منطقة المصب بالنسبة إليهم وإلى الشرطة والحرس الوطني هي منطقة معادية. يقول فيليكس غارسيا: «يا للهول إن للحيطان آذان هناك». عندما يصل الضباط إلى المعبر المؤدي إلى منطقة المصب، فإنهم يدفعون رسم المرور كما يدفعه أي سائق، يفعلون ذلك بدلا من إظهار الشارة أو المذكرة ويؤكد ضابط آخر: «بالرغم من أننا ندفع ونتصرف كأننا أناس عاديون يدخلون بسياراتهم الخاصة فإنهم يعرفون أننا دخلنا. لديهم أناس في كل مكان. علينا أن نستخدم نظام الدفع الإلكتروني دائما، وإذا كنا خمسة أشخاص، نذهب في خمس سيارات مختلفة». منذ بضعة أشهر، أوقفت الشرطة سانتشيس بيكون الذي يزود العصابات قائمة بكل أرقام سيارات الشرطة والحرس الوطني الداخلة إلى غاليسيا. «كان اللعين يضع ختما مزورا لكي يظهر أن الوصل عائد لنا». لم يكن كذلك، لكن المذهل في الأمر أن القائمة كانت صحيحة. يقول عنصر في الحرس الوطني: «أحيانا نرى أناسا يشيرون إلى لوحات سياراتنا. كان كل شيء عندهم تحت السيطرة». ويضيف شرطي: «بالرغم من ذلك، فهم يحفظون أرقام السيارات بشكل أو بآخر عن ظهر قلب. ثم يقولون إن علينا أن نستأجرها. إنهم يشمون رائحتنا».

إذا ذهبت مجموعة من العناصر إلى كافيتيريا أو إلى محطة وقود في منطقة المصب، فالذي يطلب الحساب يكون دائما من غاليسيا، لكي لا تكشفه لهجته الغريبة. «هناك أماكن محظورة لا يمكننا الدخول إليها. إذا وصلنا ونحن أربعة شباب نرتدي الجينزات والسترات الخفيفة إلى مرفأ فيلاغارسيا، فسيعرفون من نحن. وإذا أوقفنا حافلة في فيلانوفا أو في إيّا، فسيعرفون كذلك. ويغضبون. وإذا حصل هذا، فسنعلم أننا لن نتمكن من الفرار في ذلك اليوم». يقول قائد في الشرطة قاد حتى كامبادوس قبل عيد الميلاد: «عندما دخلت البلدة، رن هاتفي. فتحت الخط وقالوا لي: «أنت هنا، أليس كذلك؟». كان المتصل أحد الزعماء. وقلتُ له: «كيف عرفت ذلك أيها اللعين؟!».

يقول فيليكس غارسيا: «من النادر رؤية مكان غير مراقب بالكاميرات في كامبادوس. عند رؤية ستة رجال لا يعرفون ذلك يدخلون إلى بار، وهذا كفيل بأن يُدمِّرَ يومهم». تزداد الرقابة صرامة عندما تقترب حمولة. يرسلون في الأيام السابقة أحدا ما إلى جزر الكناري ويستأجرون له غرفة في آخر طابق في فندق مع إطلالة على المرفأ لكي يرى إذا ما كان هناك دوريات جمارك. ويتقاضى

جراء هذه الخدمة 500 يورو في اليوم. يحصل الأمر نفسه في منطقة المصب: إن العصابات تعلم إذا تحرك قارب واحد أو مروحية واحدة. إنها حرب تحت أرضية، لعبة عنيفة غير مرئية لعامة السياح الذين يتلذذون كل صيف بالمأكولات البحرية ويسبحون.

نادرا ما يحضر الزعماء الحاليون إلى الاجتماعات، فلديهم الكثير من الناس الموثوقين الذين يقومون عنهم بالأعمال: الناقلين، أصحاب المخازن، الميكانيكيين، المحامين... لا يثقون بالتحدث على الهاتف - بالرغم من ذلك، هم مدمنون على الواتس آب حسب كما أشار أحد الضباط -، وعندما لا يكون لديهم خيار سوى اجراء المقابلة وجها لوجه، فإنهم يبدون شديدي الذعر. يقول عنصر في الحرس الوطني: «في العام 2009، كنا نعلم أنه كان هناك اجتماع بين «كوستينياس» و«الحلواني» في ملهى في كاريل. قصدنا المكان، وركن زميل سيارته بالقرب منا، لكي يرى إذا كان باستطاعته أن يرى لوحات السيارة أو أن يأخذ صورة لها. عندما أصبح الكل داخل الملهى، عاد «كوستينياس» وخرج، ركب دراجته النارية، وحام حول كل سيارة مركونة في الخارج. استلقى زميلي نحو الخلف لكي يخفي نفسه، ومر «كوستينياس» من أمامه. ثم عاد ودخل الملهى بعد أن انتهى من التحقق من كل السيارات. بعد دقائق معدودة، خرج الجميع وغادروا، لم يكن هناك اجتماع».

كما حصل مع شرطة بالتيمور والمهرب أفون باركسديل في الموسم الأول من سلسلة «the Wire»، فإن للشرطة صورا للزعماء الذين تلاحقهم. إن التقاط صورة من مرآة الرؤية الخلفية قد يعتبر نجاحا.

غيّر «الحلواني» - وهو أحد كبار الزعماء الحاليين، الذي سوف نتحدث عنه الآن - سيارته خمس مرات في الأشهر الخمس الأخيرة. يقول أحد الضباط: «إنه يأخذها إلى الورشة بشكل مستمر. يقومون بالتحقق منها كل يوم ويركبون عليها موانع». إن الخدعة الأخيرة التي كشفتها السلطات هي أن تجار المخدرات يضعون القليل من الألمنيوم في سيارتهم لكي يتجنبوا أجهزة التتبع. «في يوم من الأيام كنا نلاحق جهاز تتبع من سانتياغو إلى سانتاندير. عندما اقتربنا، وقطعنا سانتاندير، رأينا أن جهاز التتبع كان مرميا في قاطرة شاحنة. إنهم أذكياء جدا. ومحترفون في عملهم: ذات يوم قاد أحدهم السيارة وذهب بها من دون توقف إلى ألغارفه، بالطبع كنا نتبعه».

على سبيل المثال، تعرف الشرطة أن «كوستينياس» أدخل إلى بوريلا في شباط/فبراير من عام 2002 أكثر من ثلاثة أطنان من الحشيش. أو أن عصابة «اللولو» أدخلت كمية كبيرة عبر شاطئ الموت في فترة عيد الميلاد عام 2014. يقول شرطي: «إذا كانت العصابات عادة منغلقة على نفسها، فإن عصابة «اللولو» هي أمر آخر مختلف للغاية. إذ من المستحيل اختراقها. في تلك العملية التي حصلت يوم عيد الميلاد، كان هناك 15 رجلا يراقبون الجبل. يحملون جميعا هواتف حديثة. يفتحونها قبل بدء الإنزال ويبدأون سلسلة من الاتصالات. يجب أن يقوموا بثلاث رنات ثم يغلقون الخط. يعني هذا أن كل شيء على ما يرام. إذا لم يعط أحدهم ثلاث رنات، فإنهم يمتنعون عن القيام بالعملية، ويرمون الهواتف المحمولة ويغادرون».

إن هذه الحيطة المبالغ فيها جاءت كنتيجة منطقية للرد على أفضل الحقوقيين والسياسيين. إن

النضال المستمر حفّز إبداع كلا الطرفين. وهكذا بقيت موازين القوة متوازنة.

إن التمكن من العصابات أصبح عملا يوتوبيا، ما لم يكن لديك متعاونين. وبالطبع لدى الشرطة متعاونون، ولدى الحرس الوطني أيضا. بشكل عام، إن أي تاجر مخدرات يقبل بإدانته أو بالحكم الصادر بحقه، فإنه يصبح بشكل فوري من المشتبه بهم، بل وفي لائحة أروسا للذين فقدت الثقة بهم.

يقول فيليكس غارسيا بعيدا عن السخرية: «إنهم مصابون بجنون الارتياب. حقا إنهم مرضى نفسيا. كلهم يعانون من التوتر، يترقبون كل شيء ولا يثقون بأحد في العالم. إنها ليست حياة». ويتفق معه ضابط في الحرس الوطني: «يدورون أربع مرات بسياراتهم حول الدوار. دائما ما يفعلون ذلك. بالرغم من أنهم لا يعرفون أنهم مُلاحقون». من كانوا سابقا شخصيات مشهورة ذات أوسمة ذهبية مشرقة تشارك في حمامات جماعية أو تتناول العشاء على موائد أفضل المطاعم، أصبحوا اليوم منطوين على أنفسهم، دائمي الشك، يعيشون محتجزين ولا يستطيعون التنعم بأموالهم.

«من أجل التحضير لعملية إنزال، كانوا فيما سبق يجتمعون في مطعم ويتناولون حساء ثمار بحرية. أما الآن فيقطعون مسافات طويلة إلى البرية، ويلتقون إثنين إثنين تحت شجرة».

يجب أن لا يختلط علينا غياب التباهي مع غياب الغنى. إنهم متحفظون من الباب إلى الخارج، أما من الباب إلى الداخل فالأمر مختلف تماما: عندما أُوقِفَ زعيم عصابة «الحلوانيين» في كانون الأول/ديسمبر من عام 2014، فوجئ السكان عندما وجدوا أن منزله كان قصرا فخما.

يقول فيليكس غارسيا: «لدى زعيم معروف من أروسا شقة فخمة في دبي. يرتدون ماركات فخمة بالرغم من أنهم لا يعرفون ما هم مرتدون. لديهم كثير من المال». يطرح ضابط آخر في الحرس الوطني مثالا آخر حديثا، بعيدا عن الاجتماعات «تحت الشجرة» التي تحدثنا عنها سابقا: «كنا نتنصت على هاتف أحد محاميّ زعيمٍ مهم. اتصل بمنتجع توخا وسأل عن سعر إغلاق الكازينو ليوم واحد من أجل حفلة خاصة. على الطرف الآخر من الهاتف، سُمع صوت يقول: «إغلاق ماذا؟ الكازينو؟ الكثير والكثير». ورد المحامي: «قل لي الرقم وسأقول لك أنا إذا كان بمقدور الناس الذين أمثلهم الدفع أم لا». وقال له الشاب الرقم ورد المحامي: «حسنا، حسنا. احجزه لنا». وأغلق الخط».

يقول شرطي: «لطالما تساءلت إذا كان الأمر يستحق كل ذلك: حياة مليئة بالتوتر والحذر لقاء الملايين». والجواب هو دائما: لقد شتتهم الطموح، إن الزعماء الغاليسيين لا يقدرون أن يتخلوا عنه. يقول قائد في الشرطة: «في بعض الأوقات، نقبض على أحدهم وأسأله لماذا فعلت ذلك. ودائما يكون الجواب نفسه: «إذا تورطت مع الكولومبيين مرة، فسوف يطلبون منك أكثر». أو «إني مدين بالمال لهم». أنا لا أفهم هذا. لتقم بعملية إنزال واحدة، وأشرب نخب ذلك، وسيصلك ثلاثة أو أربعة ملايين يورو، التي تكفيك للقيام باستثمار جيد. لكنهم يريدون المزيد. لقد شتتهم الطمع».

ولكي يحصل المرء على الأكثر، عليه أن يقوم بالأمر الوحيد الذي يجيد القيام به. فيعودون ويحضّرون كل شيء من أجل عملية إنزال تالية. وتعود الريبة، والمكالمات الهاتفية والدوران حول

دوار عدة مرات، بدون الاستمتاع بقرش واحد من المال الذي حصلوا عليه. وتستمر الدورة.

ويستمر تهريب المخدرات في غاليسيا. أحيانا يكون نشيطا، وأحيانا أخرى خامدا. إلا أنه لم يغادر في أي يوم من الأيام تلك المنطقة.

من يقود اليوم في منطقة المصب

«الحلواني»، شاب المعجنات

تم تحضير كل شيء في آذار/مارس من عام 2013 من أجل محكمة كان يجب عليها أن تضع ريال إغليسياس، الملقب «الحلواني» خلف القضبان، وهو «الزعيم الأكثر قوة اليوم في غاليسيا»، كما يعرفه ضابط في الحرس الوطني. اتُّهم بمحاولة تهريب ثلاثة أطنان من الكوكايين على متن قارب الصيد الفنزويلي «سان ميغيل».

ربما شعر خوسه لويس فيرنانديس توبيو، وهو عضو في منظمة «الحلوانيين» وقد شارك في محاولة الإنزال، بتأنيب ضمير، أو ربما بعبء الحكم، وقرر أن يغني: سأسلّم أوسكار ريال وعصابة «الحلوانيين» على طبق من فضة. وقدمت له المحكمة لقاء ذلك حماية دائمة. وعلما منهم بقدرة العصابة، كانت مجموعة من رجال الشرطة ترافق المتعاون التائب ليلا ونهارا، هادفين أن يصل الشاهد الرئيسي قطعة واحدة إلى يوم المحكمة.

إلا أن توبيو اختفى قبل أربعة أيام من انطلاق العملية.

على ما يبدو، طلب من المرافقين أن يتركوه لوقت قليل بينما يرافق هو بضعة زعماء إلى بويرو - مسقط رأسه - ولم يعد من هناك. وصل إلى المحكمة رسالتان من الرجل المختفي يشرح فيهما أن كل ما كان قد قاله كان كذبا وطلب من الزعيم أن يسامحه على ما تسبب به من مشاكل.

خرج «الحلواني» بريئا. وعاد توبيو، الشاهد الرئيس، إلى الظهور بعد عام من ذلك. وليس في زاوية بعيدة من العالم، بل على حاجز مروري في ساموررا. ومن جديد ألقي القبض عليه، لكنه حافظ - ولا يزال - على صمته الشبيه بصمت المقابر.

وظهر أيضا خوسه إيساسيس غونساليس، وهو تاجر مخدرات كولومبي يحمل جواز سفر فنزويلي في العاشر من حزيران/يونيو من عام 2014، بدون حياة، بدون أرجل، وموضوعا في براد مغلق بقفل في بونتياراياس (ليس بعيدا عن فيغو). كان إيساسيس يشكل جزءا من طاقم سان ميغيل، القارب السابق ذكره، وكان الوحيد الذي حضر إلى المحكمة المقامة ضد «الحلوانيين». بالرغم من ذلك، لا فإن المحققين ليسوا واثقين مئة في المئة إذا ما كان لموته علاقة مباشرة بالعصابة الغاليسية، الأمر محير لا محالة.

إن ما ورد في الفقرات السابقة لم يحدث في صقلية أو في المكسيك، بل حدث في غاليسيا. وحدث منذ بضعة أشهر.

***

دخل أوسكار ريال القرن الحادي والعشرين وهو خباز بسيط من فيلاغارسيا. كان يخبز الكعك والفطائر و«السمبوسك»، وكان يلاحقه نصف جسم الشرطة.

ازدادت الشكوك بالعائلة عندما ارتبط الاسم في العام 2007 بعملية الومضة. بالرغم من ذلك، فإن «الحلواني» بريئا، وهذا ما حفّز الشرطة والحرس الوطني على بدء مراقبة شاب الفطائر. واكتشفوا شيئا فشيئا أن خلف الفطائر كان هناك شقق وسيارات فخمة واستثمارات وقصر في ضواحي فيلاغارسيا، على نمط زعماء منطقة المصب القديم: منحوتات ومسبح مع نافورة وكاميرات في كل غرفة.

نفّذ «الحلواني» عددا قليلا من عمليات التهريب لكن التخطيط لها كان على أعلى مستوى. يقول ضابط في الحرس الوطني: «كانوا شديدي التسلل، يعنون بأدق التفاصيل. وإذا ارتابوا بأي شيء، يلغون كل العملية». حصلت الضربة في عام 2008، عندما تعطلت الزوارق التي كان من المفترض بها الخروج لملاقاة «سان ميغيل» وأخذ الكوكايين في وسط الطريق. ولأخذ الحيطة، قرروا أن الأفضل هو إغراق الزوارق في عرض البحر وأن يقوم «سان ميغيل» بانتشال الربابنة، لكن قارب الصيد عانى أيضا من مشاكل ميكانيكية. عندما عثرت الـ GEO على القارب، كان طاقمه يعاني من الجفاف وسوء التغذية.

كان توبيو أحد أولئك الربابنة الذين لم يتمكنوا من جلب زورقهم، وهو الشاهد الذي فرّ. والآخر كان الخبير خوسه كونستانته بينييرو بوا، الملقب «كوستينياس»، ذراع «الحلواني» اليمنى، (وهو نفسه الذي خرج على دراجته النارية يراقب السيارات قبل بدء أحد الإجتماعات). يقول عنصر في الحرس الوطني: «إنهما بمثابة أخوين. يخططان لكل شيء معا. حتى أنهما يملكان سيارتي Audi S3 بلوحات متتالية الأرقام». إن العمود الثالث في المنظمة هو خوسه أندريس بوفيدا أوسوريس، الملقب «تشارلي».

يروي الضابط قصة تشرح من أين أتت قوة هذه العصابة: «ذات يوم كنا نلاحق تشارلي، الذي كان صاحب شركة ذات امتيازات في منطقة المصب. اتصلنا بالشركة وطلبنا معلومات أمان. وبعد وقت قليل، اتصلوا بنا من إدارة المقاطعة في حكومة غاليسيا المستقلة وسألونا عن السبب الذي طلبنا من أجله تلك المعلومات. لم أستطع أن أصدق ذلك». من المحتمل أن التعابير التي ظهرت على وجه الضابط عند سماعه ذلك هي نفسها التي تظهر اليوم، وجه يعبر عن الشك، يلبسه في كل مرة يتذكر فيها تلك القصة.

كانت عصابة «الحلوانيين» مؤلفة من 40 شخصا. «بالرغم من أنها لم تصل إلى أن تكون عصابة مثل عصابات التسعينات، تحولت عصابة «الحلوانيين» إلى مجموعة قوية جدا. كانوا ينقلون

وأيضا يوزعون. إنهم الأكثر شبها بالعصابات القديمة». هكذا يقولون عنهم في الشرطة الوطنية.

يذهب بعض الضباط إلى أبعد من ذلك. إن عضو الحرس الوطني الذي يحقق في أمر العصابة يبدو مقتنعا أن وراء «الحلوانيين» يكمن «سيتو مينيانكو»، الذي لا ينتهي. «نظن أنه هو الرئيس، القائد الأعلى للشبكة. وأنه يدير كل شيء من الزنزانة». ويغذي هذه الفرضية عنصر آخر: في العام 2010، نُقِل «سيتو» إلى سجن هويلفا. بعد عام، أُقيل مدير السجن بسبب قبوله سيارتين فخمتين من مهرب مخدرات داخل السجن كهدية. اكتُشفَ فيما بعد أن «سيتو» كان ينعم بكل وسائل الراحة في السجن في هويلفا، من الهواتف إلى أذونات خروج لأيام عديدة. بعد عامين، حصل «سيتو» على إذن خروجه الأول (الرسمي) من سجن ألخيسيراس، واستطاع الخروج من السجن لمدة ستة أيام. ماذا فعل؟ ذهب إلى غاليسيا بالطبع، وشهد الحرس الوطني هناك كيف كان الزعيم يلتقي مع «الحلواني». «كنا نظن أننا نهلوس! لقد ظل في السجن 12 عاما وأول شيء فعله عندما غادر هو الاجتماع مع زعيم آخر». ومع مثل هذه المعلومات نستطيع أن نفهم كيف أن المحكمة حرّمت عليه الدخول إلى غاليسيا عندما أفرجت عنه إفراجا من الدرجة الثالثة[61] في نيسان/أبريل من عام 2015.

لكن «الحلواني» لم يُقضَ عليه بسبب ذلك الاجتماع. بل سقط في كانون الأول/ديسمبر من عام 2014 كما سقط الجميع تقريبا: بسبب تبييض الأموال. استغرق الأمر وقتا بالنسبة إلى لواء مكافحة تبييض الأموال حتى وجد خيطا يمكن البدء منه وهو ينفذ تحقيقا دقيقا شاملا لتفكيك امبراطوريته، والخيط هو: شراء منجم نحاس في جمهورية الكونغو الديمقراطية، عملية نقل أموال لمعت كالشرارة. بلغ التحقيق ذروته في عيد الميلاد عام 2014 بغارة مثل تلك التي كانت تحدث في الأيام الخوالي، شاركت فيها الكلاب والمروحيات، الأمر الذي شلّ فيلاغارسيا. لم يضبطوا أي مخدرات في منزله، لكن القتال البوليسي يتعلق بالأرقام أكثر من الأكياس. من المعروف في الوقت الحالي أن «الحلواني» وظَّف العديد من المتقاعدين كتغطية، ولا يزالون يحققون بأمر الشركات العديدة التي يمتلكها. في كانون الثاني من عام 2015، أطلق سراحه المشروط بعد أن دفع 200 ألف يورو كضمانة. وهو اليوم حر طليق في إنتظار الحكم. من يعلم إذا ما كان وريث حقبة تهريب المخدرات الذهبية المفترض سيخرج من قفص الاتهام بريئا. يعلق ضابط في الحرس الوطني على الأمر: «في الوقت الحالي، علينا أن نتابع مراقبته».

ومن «الحلوانيين» ننتقل إلى «الخبازين»، وهي عصابة من ريبادوميا كانت تتعاون مع جيرانها منذ وقت قصير كما يعتقد المحققون. دخل «الخبازون» إلى المهنة عام 2006 حين هربوا كميات قليلة من الكوكايين الكولومبي. استمروا لعام واحد: في العام 2007، أوقفوا وهم يحاولون تهريب 270 كيلو في حاوية عبر مرفأ فيغو. حُكم على القادة الأخوين فرانسيسكو ورافايل توماس باريرو بالسجن لعشر سنوات. لكن الشرطة مقتنعة أن بقية العصابة لا تزال تعمل.

كما أوردت الشرطة، أن هنالك عصابة مدارية صغيرة أخرى وهي عصابة «اللحامين»، مجموعة صغيرة مبهمة من فيلانوفا كانت تتعاون بصورة متقطعة مع «الحلوانيين» في عمليات إنزال صغيرة.

الكلاسيكيون: اللولو وآل تشارلين

عصابتان كلاسيكيتان: عصابة اللولو وآل تشارلين. إن الأولى - بحسب الشرطة - هي العصابة ذات الشكل الأفضل، وهي أكثر من يسبب ألم رأس بين الجميع.

إن آخر خبر عنهم أتى في ليلة الخامس من كانون الأول/ديسمبر من العام 2014. كان من المترقب انعقاد اجتماع بين بيرناردينو فيريو[62]، وهو تاجر مخدرات من موخيا متعاون مع عصابة اللولو، ومجموعة مهتمة بتنظيم عملية إنزال معهم. قام فيريو، كلب تجارة المخدرات الكبير في غاليسيا الذي أكمل عدة أحكام في السجن، باستقبالهم في منزله في أبوي، وهي قرية على شاطئ الموت. كان هناك بين المدعوين بعض الكولومبيين. ما كان من المفترض أن يحصل هو مفاوضة من أجل سداد ثمن كمية مهربة مسروقة. إن تجار المخدرات المتهمين كانوا عصابة متخصصة بسرقة المهربين. عمل محفوف بالمخاطر. كان لديهم فيريو في الخطوط الأمامية، وهو شاب صلب، كما يصفه كثير من عناصر الشرطة. أخرج واحد من الكولومبيين مسدسا وأطلق النار على معدته، لكن فيريو سحب العيار الناري وأعاده إليه. بعد أربعة أيام، حضر واحد من سكان ريباديو، وهو يحمل جنسية كولومبية، إلى مستشفى لوغو مصابا برصاصة في ساقه. تمكنت الشرطة بعد أشهر من إيقاف اللصوص، وها هم الآن يخضعون للمحاكمة.

أما الكلاسيكيون الخالدون الآخرون فهم عصابة تشارلين، التي تُقاد حاليا من قبل الجيل الثالث. لا يزال الأب الكبير على قيد الحياة، ولكن يبدو انه تقاعد، ولا يقوم بشيء سوى شرب القهوة في فيلانوفا بينما يقدم له كبار المنطقة الاحترام. إن زوج حفيدته هو من يقف حاليا في الواجهة. ولذلك نجده خلف القضبان. سقط في العام 2013 في عملية القطرس، تلك العملية التي قادها فاسكيس روما، التي فيها قام عضو إندونيسي من الطاقم بفضح كل شيء عندما دخل إلى موقع إباحي. ويقول أحد الضباط: «على الرغم من أننا وضعناه في السجن، إلا أنه كان علينا أن نبقيه تحت المراقبة. إنه يحيك القصص من هناك». ويضيف وهو يكاد يضحك: «نعلم أن بحوزته هاتفا محمولا في السجن، لكننا نتركه، إذ بتنصتنا عليه يمكن أن نمسك ببعض الخيوط».

ومن فيغو خرج خورخه دوران بينيرو، زوج روسا ماريا تشارلين، ابنة أخ الأب الكبير. في العام 2005، حُكم عليه بالسجن لتسع سنوات، وهو ينظر صدور الحكم في قضية أخرى. لقد تراكمت عليه الأحكام. حُقق مع كليهما بسبب شك في مشاركتهما في اختفاء - وربما اغتيال - فيرناندو كالداس، ذلك الشاب من فيلاغارسيا الذي من الممكن أن تكون جثته مدفونة تحت دعامة جسر ميادويرو.

رجل آخر من رجال آل تشارلين هو لويس فينياس مورغاده، الملقب «التفاحة الصغيرة». وهو جندي قديم لم ينسحب بعد. علينا العودة إلى عملية نيكورا لكي نرى الأفعال الشائنة الأولى التي ارتكبها مع الحرس الوطني. في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1990، كانوا يلاحقونه في كامبادوس، كان ينقل وقتها 1200 كيلو من الكوكايين في القسم الخلفي من الشاحنة. عندما وجد نفسه محاصرا في الزاوية، قفز إلى البحر وبدأ يسبح. ذهب معه رئيسه مانويل راي فيلا، وهو أيضا مرتبط بآل تشارلين، لكن بدلا من البحر، حاول أن يخفي نفسه في خزان مياه. عندما عثروا عليه كان نصف متجمّد. في

لائحة البارزين الذين لا يزالون محسوبين على آل تشارلين نجد مانويل غوميس راي، الملقب «تشانفاينا»[63] وأنتونيو كاربايّا ماغدالينا. سقط الأول في عملية الومضة، في العام 2007. قُبض عليه في ميليّا، حيث كان يذهب بشكل متكرر. وعلى ما يبدو، أن «تشانفاينا» عرض مهاراته على المافيات المغربية كربان زورق. بالمناسبة، فإنه تعلم قيادة الزوارق في عصابة سيتو مينيانكو عندما كان هذا ينقل الوينستون على القوارب الخشبية. أما الثاني، كاربايّا ماغدالينا، فهو يُحاكم الآن بسبب تبييض الأموال، ويُحقق في وضع قرضه الأخير، وهوقرض سببه مصلحة غير أخلاقية، كما يمكننا أن نتصور.

كما أن بقية العصابة لا تعيش بهدوء أيضا. فهم يُحاكمون في عملية «المحاولة الثانية» بسبب تبييض الأموال. حسب التحقيقات، لا يزال الأبناء والأحفاد وأولاد الإخوة يحركون كميات هائلة من الأموال. دفعت العصابة في العام 2009 مبلغ 800 ألف يورو لقاء شركة تعليب، وهي ملك قديم للعائلة، كانت قد صودرت وكانت في ذلك الوقت قد عُرضت مرة أخرى للبيع. إن ما نورده ليس إلا عينة رمزية على تهريب المخدرات في غاليسيا.

«الصغار»

من عهد نيكورا لدينا أيضا خوسه فيرنانديس توريس، الملقب «الصغير»، مهاجر عاد في الثمانينات وأسس شركة بناء في فيلانوفا وانتهى به المطاف يهرّب عبوات التبغ. قفز في العام 1992 في محاولة لتهريب طنين اثنين من الكوكايين على متن يخت إنكليزي. يقود أبناؤه الآن عصابة «الصغار»، لكن على ما يبدو هنالك بعض الاختلالات الداخلية. في صيف العام 2009، كان واحد من أبناء الزعيم يمشي في شوارع كامبادوس، عندما اقترب منه رجلان رومانيان، بدون أن ينطقا بأي كلمة، أمسكا به وشرعا يضربانه. على وجه التحديد، أمسكه واحد من ظهره والآخر شرع يضربه. كما في الأفلام لكن في وضح النهار. أفلت «الصغير» منهما (إنه شاب قوي بما فيه الكفاية) ورد الضربات، لكن المهاجمين هربا. لا، لم تنتهِ تلك القضية عند هذا الحد. ركب «الصغير» سيارته المرسيديس ذات الدفع الرباعي، وأخذ يلاحق الزوج الروماني، اللذين كانا يقودان سيارة BMW. صدمهما وانتهى الأمر بالسيارتين مشوهتين ومحاطتين بالسكان المصعوقين. وضع الحرس الوطني نهاية لهذا المشهد. يبدو أن هذا الهجوم كان بإيعاز من أعضاء العائلة نفسها بسبب نزاع على ممتلكات موروثة من أعمال الأب الكبير.

«الحمير»

من بين العصابات الأروسانية التي لا تزال تعمل والتي لا تزال الشرطة والحرس الوطني يراقبانها رغم أن لا سوابق لها، يلمع نجم عصابة «الحمير»، وهي مجموعة عائلية مُغلقة بإحكام من فيلاغارسيا. كان «الحمير» متورطين في العمل منذ سنوات، ومن المحتمل أنهم متورطون منذ التسعينات، لكنهم ينفذون القليل من العمليات. ربما واحدة أو اثنتين في السنة. إنهم شديدو الحذر. يكرسون باقي الوقت والطاقة لاستثمار أموال كل عملية إنزال في شبكة ضخمة من الشركات، بعض منها معروفة جدا في منطقة المصب، مثل شركة بحرية شهيرة. «إنهم مجموعة لطالما بقيت في ظل

الكبار، متحفظون حذرون، ولذلك ليسوا معروفون. لكنهم أقوياء جدا».

إن رئيس «الحمير» يحظى بعلاقات قوية. ظهر اسمه في الصحافة عندما اندلعت قضية «البطل»[64]، مؤامرة فساد سياسي وصلت إلى طبقات عليا في الأوساط السياسية في غاليسيا وكل البلاد.

«البراغيث»

عصابة البراغيث هي عصابة عائلية من بويرو، مغلقة بإحكام أيضا، لكنها أقل قوة من غيرها. بشكل عام، تشارك هذه المجموعة في عمليات ينسقها زعماء أكثر أهمية. عملوا في السنوات الأخيرة لصالح خوسه مانويل فيلا سييرا، «الرئيس»، وهو واحد من معارف الكامورا النابوليتانية في منطقة المصب، والذي هو أيضا من بويرو. في الحقيقة، يتأمل المحققون أن هنالك إمكانية لكونه «الرئيس» رئيس العصابة حقا. حُكم عليه وعلى ابنه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة بسبب عملية إنزال قاما بها في العام 2009 هرّبا فيها خمسة أطنان من الكوكايين على متن قارب الصيد «دونيا فورتونا»، وكان المرسل إليه - كما سبق ورأينا - مجموعة مافيوية إيطالية.

المجهولون

وانطلاقا من هناك، يجدر الدخول إلى ميدان التكهنات المظلم. يشير صحفي متخصص في تهريب المخدرات إلى وجود رجال أعمال أقوياء في غاليسيا يعملون منذ سنوات زعماء لتجارة مخدرات. في الحقيقة، ليس ذلك سرا البتة. في مقابلة أُجريت عام 2010 من قبل «منارة فيغو»، يقول قاضي مكافحة المخدرات في بونتيفيدرا بصراحة غير اعتيادية: «لا يزال هناك زعيم كبير يعمل من هنا، أخاف أننا لن نصل يوما للقبض عليه مع هذا القانون الحالي، لأنه لا يلمس البضاعة أبدا، ولا يشارك في العمليات اللوجستية». يضيف الصحفي الخبير: «إنهم رجال أعمال لا يلوثون أيديهم. يحيط بهم أناس من كل الطبقات ومن المستحيل عمليا ربطهم بأي عملية». يكمل محرر «صوت غاليسيا» خوليو فارينياس: «إنهم أناس يملكون كثيرا من المال، يمكنهم معالجة الأمور في لحظتها هم ليسوا في غاليسيا فقط، بل في أي مكان آخر من إسبانيا. يختارون الموقع الأكثر خلوا، وينفذون عمليات نظيفة». أما الشرطة الوطنية فهي أكثر حذرا: «من الممكن أن هناك أحدا ما يضع مالا في إحدى العمليات، لكن لا نعتبره زعيما كباقي الزعماء. من السهل تمييز كل من يقوم بنشاط مستمر. لا نظن أن هناك زعيما كبيرا في الظل لم يسبق لنا أن تعرفنا إليه. هناك الكثير من الأساطير».

سوف تظهر السنوات إن كان أحد هؤلاء الزعماء موجودا حقا. وإذا ما كان سيسقط. وعلى الرغم من أنه قد يسقط، سنكون متأكدين دوما أن هناك آخرين في غاليسيا يلعبون بشكل جيد بعيدا من رجال مينيانكو وأوبينيا وآل تشارلين. والذين لن نتعرف إليهم أبدا، ومن المحتمل أننا لن نتمكن من الحديث عن سيرهم في كتاب، إذا ما أقدم متهور ما في المستقبل على كتابة كتاب عن تجارة المخدرات في غاليسيا.

الطاعون

كانت ترافق ابنة إستير لاغو (زوجة لاوريانو أوبينا الراحلة) صديقة لها، «أو كانت ترافقها قريبتها، لست متأكدة». هكذا قالت ميلاغروس من سكان فيلاغارسيا وصاحبة متجر دخلت إليه الفتاتان في ظهيرة ذلك اليوم، منذ خمس سنوات. «تعرفت إليها فورا. لا أذكر ما الذي أتت لتشتريه، عندما أرادت أن تدفع، قالت لها ميلاغروس أنها لا تقبل مالها وأمرتها أن تخرج من المتجر ابتسمت هي، ووضعت يدها في حقيبتها وأخرجت ضعف المبلغ من المال. وقدمته لي من دون أن تتوقف عن الابتسام...» اختلط صوت ميلاغروس التي خسرت ابنها ألفونسو منذ عشرين عاما بسبب المخدرات بغضب علني: «أمسكت مالها ورميته خارجا. ارتطم بواجهة المتجر. وعدت وقلت لها أن تغادر». التقطت ابنة إستير لاغو المال، رمقت ميلاغروس بنظرة وغادرت. «أتذكر أني كنت سأقول لها أن هذا المال ملطخ بالدماء، لكن صوتي لم يخرج».

إن الخط الفاصل بين المجتمع وتجار المخدرات الذي لم يكن مرئيا في الثمانينات وباهتا في التسعينات أصبح اليوم محددا على نحو جيد في منطقة المصب. إن من يعمل حتى الآن في المجال يُعتبر مجرما وجانيا ببساطة، من دون استعارات ولا تعجب. أيا يكن الأمر، هنالك ثقل، حمولة مُنهِكة على أكتاف المجتمع في أروسا - وفي جزء كبير من غاليسيا كامتداد - يتدلى على أكتاف المجتمع بعد عقود من الثقافة الإجرامية. يشرح ذلك الصحفي خوليو فارينياس في فقرات سابقة: «لقد تجذرت المشكلة وتم التسامح معها وتعلم الناس التعايش مع الأمور غير القانونية بصورة جلية». إن هذا التعايش اليوم أخف بكثير، لكنه لا يزال موجودا. ليس من المحبب الاستماع إلى الموضوع، وفي هذه الحال، ولا حتى قراءته.

اختفت الحصانة، لكن لم يتمكن أحد من أن ينزع غطاء الصمت بأكمله. إن السكان يعرفون ذلك ويسكتون.

يسأل إنريكه ليون: «وماذا سوف يفعلون؟». وهو قائد قديم للشرطة في فيلاغارسيا. إن سؤاله يحتوي على واحد من مفاتيح الظاهرة: كيف يواجه أحد ما تاجر مخدرات؟ هل يقوم بتقديم شكوى ضده في المفوضية؟ هل يتكلم مع الصحافة؟ وفي اليوم التالي ماذا سيحدث؟ إن تاجر المخدرات هو أيضا واحد من السكان، وهو جار. إن المجرم يعرفك. يعرف أين تسكن وأين تعمل. وبالإضافة إلى ذلك، أليس هذا عمل الشرطة؟ إن كل ما سبق نقاش منطقي، لكنه لا يعلل صمت المجتمع الصاخب. «هذا ليس من شأني». أبعدت هذه الجملة أناسا كثيرين عن المبادرات الاجتماعية ضد العصابات. يُتهم مجتمع فيلانوفا وأماكن صغيرة أخرى بكونه أكثر صمتا من مجتمع فيلاغارسيا

وكامبادوس، المدن الأكبر والأكثر حداثة. كلما كانت البلدة صغيرة أو منعزلة بعض الشيء ازدادت صعوبة مواجهة تجارة المخدرات. لا تزال بعض الزوايا عصية على الدولة. تقول ميلاغروس فيما يخص ذلك: «يفضل الناس عدم التدخل. لكني أخاف، لأني أفضل النظر نحو الجانب الآخر... يقول الجميع إنهم يكرهونهم، لكن ما من أحد يقوم بأي شيء. فيما سبق، كنا نذهب إلى الاجتماعات بالمئات، كان هناك مظاهرات دائما... قلما نذهب اليوم ويتجاوز عددنا 12 أما. إما أن يعود الأمر إليك أو أن الناس سينسون». يضيف صحفي محلي: «لقد ساد ظن أن الأمر سيبقى على ما هو عليه دائما، وسقط المجتمع في سلبية تجاهه».

منذ موت ابنها، عملت ميلاغروس وزوجها ألفونسو في «مشروع الرجل» لمساعدة الشباب المدمنين. «كنا نبحث مدة أشهر عن مكان لجعله مقرا لنا: لم يرد أحدا أن يؤجرنا أي مكان. يقول جميع الناس هنا إنهم ضد تجار المخدرات، لكن ما من أحد يتقدم خطوة واحدة عندما تدق ساعة الحقيقة. إن من يستمر برفع صوته هم نحن، أربعة أشخاص». لا يريد أحد أن يحدث جلبة. لا يريد أحد أن يعقد الأمور. أوميرتا[65] غاليسيا القرن الحادي والعشرين.

من الممكن تمييز بعض الطبقات الاجتماعية في منطقة المصب التي هي أكثر تقبلا لتجارة المخدرات. بالنسبة للسكان المحرومين والذين لا يتمتعون بالكثير من البدائل، قد يبدو كسب المال من عمليات الإنزال أمرا لا يُقاوم. لا يأتي العرض المغري على صورة غير متوقعة أو مُفاجِئة. ليس الأمر كدعوة شاب من كوينكا بشكل فوري من البطالة إلى تهريب الكوكايين على الشاطئ. إن الفرصة هي هناك، حاضرة وكامنة منذ عقود. يجب على المرء فقط أن يتقبلها من دون أي جهد يذكر وسوف يجد في نهاية المطاف مخرجا لا يقدمه سوق العمل القانوني. لا يزال الاتجار بالمخدرات بديلا قريب المنال وسهل التحقيق. يقول فيرناندو ألونسو المدير التنفيذي لمؤسسة غاليسيا لمكافحة المخدرات: «إنه من الصعب القتال ضده. يقترب أحدهم من شاب في العشرين من عمره يقبع في البطالة، وعائلته تعاني من مشاكل، وليس لديه مستقبل واعد، ويقدم له خمسة آلاف يورو من أجل قيادة سيارة نحو مدريد، وتركها هناك مركونة في مرآب، والعودة في سيارة أخرى. كيف يمكنه أن يرفض مثل هذا العرض». عرضوا على أنتونيو، أحد سكان فيلانوفا الشباب، عندما كان مراهقا أن يشارك في عملية إنزال. «وقلت لهم لا، لكن صديقين من أصدقائي ذهبا. كانت المادة كوكايين، ولم يكررا فعل ذلك، لكن كل واحد منهما حصل على ألف يورو في تلك الليلة ولم يستغرق الأمر أكثر من 20 دقيقة لفعل ذلك». ليست هذه حالة منعزلة وحيدة على أية حال، هنالك كثير من الحالات المشابهة.

لن نعطي للقضية حقها إذا اختزلنا تفسيرها فقط بأنها خروج إلزامي من الفقر. السرقة من أجل الطعام. هنالك المئات من المتورطين في الإتجار بالمخدرات في غاليسيا والذين لا يعانون من الجوع أو من الصعوبات المعيشية، والذين لم يعانوا من ذلك فلأن آباءهم كانوا يمتلكون كثيرا من المال. إن قضية الإتجار بالمخدرات في منطقة المصب هي في معظم الأوقات قضية عائلية، قضية موروثة وتورَّث. يجب علينا فقط أن نراقب أسماء عائلات مهربي المخدرات منذ مطالع التسعينات: إن أسماءهم مرتبطة في معظم الأحيان مع العصابات الحالية. إن الأمر يكاد يجري في الدم: أصدقاء، جيران، شركاء عمل. إن الروابط التي توحد تجار المخدرات هي روابط إندوغاميّة[66] تقريبا. وتورث

أيضا الأكياس والزوارق كما لو أنه تقليد.

في بعض الأحيان، يشربون حليب أمهاتهم ويكبرون في محل الأحذية الذي أسسه جدهم الكبير. في تحليل نفسي جريء ومفاجئ، يمكننا تقسيم تجارة المخدرات في غاليسيا اليوم إلى صنفين: الزعيم والتاجر الصغير. الزعيم هو من يقود العملية، قائد (أو أحد قادة) العصابة. من الممكن أن يكون من أصل متواضع ويستمر في الحفاظ على وضعه هذا كنوع من التغطية: إذا كانت العائلة تعمل في صيد المحار، فهو أيضا سيستمر في الذهاب إلى العمل في صيد المحار، لكنه سيذهب في سيارة Audi. إذا كانت العائلة تمتلك قاربا خشبيا مسطحا، فيذهب للعمل هناك، لكن زوجته تحمل حقيبة من ماركة غوتشي. كما سبق وشرحنا، إن الأمر بمثابة كيتش خاص بتجار المخدرات في غاليسيا: رؤية سيدة تصنع سندويشات كالاماري وساعة روليكس تطوق معصمها. من الملائم الانتباه إلى تلك التفاصيل في منطقة المصب.

إن شخصية الزعيم لديها بديل آخر، أن يكون رجل الأعمال الناجح. رجال من المفترض أنهم محترمون يملكون الفنادق وأحواض بناء السفن وشركات بحرية أو عقارية. في خضم كل ذلك، يقومون بعمليات إنزال بتكتم، ويضخون الأموال في شركاتهم. يقول بابلو، وهو من سكان فيلانوفا: «نحن نميزهم هنا على كل حال. إن الأمر واضح للغاية. سأقول لك أن الأمر واضح حتى في حركاتهم».

يأتي تحت الزعماء أبناؤهم. تضيف فيرونيكا، وهي أيضا من سكان فيلاغارسيا: «أولاد البابا. حديثو نعمة. وهم أيضا حفنة من المتعالين». هناك جملة متكررة جدا في أروسا تقال عن أحد أولئك الورثة عندما يسقط في غارة أو يقبضون عليه في عملية إنزال: «يختفي لبعض الوقت، وعندما يبدأ الناس بالسؤال يقولون دائما: ذهب لكي يدرس الماجستير. اللعنة، هذا هو الجواب التقليدي. أعتقد أن قولك ذاهب لكي تدرس الماجستير يعني هنا أنك ذاهب إلى الحبس». هكذا قال بابلو ضاحكا.

تتذكر ميلاغروس تجربة أخرى، هذه التجربة عاشتها مع صديقة لها تدير متجر ألبسة وأزياء تنكرية. «كانت فترة الكرنفال عندما أتى ابن فالكونيتي واشترى لباسا تنكريا. كان أبوه في السجن في تلك الفترة. وارتدى الشاب لباس سجن تنكري بكل جرأة. لم يكن عندهم أي خجل. كل شيء سيان بالنسبة إليهم. سمعت أنا بنفسي أبا إستير لاغو يشتكي من أن فيغو مليئة بالمدمنين. يا له من دم بارد!». يضيف ألفونسو، زوج ميلاغروس: «لدينا في هذه المقاطعة عمدة ابنه في السجن. ولن يراه فيما بعد أبدا، لأن ذلك غير مناسب. إن ذلك يؤثر على سمعته».

في المستوى الأكثر إنخفاضا نرى التجار الصغار، الشباب الذين بدأوا العمل لصالح العصابات. سعاة، ربابنة قوارب، مراقبون... مجموعة اجتماعية من الساحل الغاليسي يمكن ملاحظتها بسهولة: سيارات مكشوفة (أو دراجات نارية)، كرم مفاجئ بدعوة جميع الموجودين في المكان... وجميعهم في العشرينات من العمر ولا أحد يعرف مهنتهم. يقول بابلو: «إن كونك تاجر مخدرات صغيرا يعتبر أمرا جذابا في بعض الطبقات الاجتماعية. يريدون أن يكونوا كذلك، حتى أن هنالك شبابا يدعون أنهم تجار مع أنهم ليسوا كذلك».

إن خطر تحليل الصور النمطية هو أن كل شيء سيصبح مشككا. «هناك طريقة سهلة بما فيه الكفاية لمعرفة من يعمل في تجارة المخدرات، وخصوصا بالنسبة إلى الشباب: سيارة BMW بسرعة كبيرة وداخلها شاب بعمر 22 سنة تبدو عليه البلاهة».

«لنرى من أين له هذا المال لهذه السيارة». يعلّق أحد سكان كامبادوس ويكمل: «أنت تسأل: «وماذا عن ال- BMW؟» ويقولون لك: «حسنا إنه يعمل ميكانيكي في فيلاخوان». أعتقد أن عندك جواب الآن».

إنهم شباب تخلوا عن الدراسة في عمر مبكر وتذوقوا طعم نجاح الشباب السريع الزوال. إن الشهادة التي تعطيني إياها ماريا، وهي محامية شابة من غروفه، شهادة قيمة: «ذات مرة، عندما كنت أدرس الحقوق، حصل معي أمر. التقيت بأحد زملائي الذي كان قد ترك الجامعة. كان يقود سيارة مكشوفة ودعاني للركوب معه لنذهب في جولة. دائما ما كانوا يقولون لي نفس الأمر: «لكن لماذا تواصلين الدراسة؟». لا يقولون ذلك من باب المزاح، إنهم حقا لا يفهمون، لأنهم يظنون أنهم وجدوا حلا للحياة».

دافعت ماريا في المحاكم عن بعض من أولئك الشبان. لم يؤثر الاشتباه الفوري فقط على التجار الصغار. هناك سلسلة كاملة من الإشارات في أروسا التي من المقدر لها أن تُفسَّر كإجحاف بحقهم. مرت سنين كثيرة ونحن نرى نفس المشهد الإجتماعي. تقول فيرونيكا: «ترى هنا منزلا كبيرا، بزينة ذهبية، وتماثيل، أو مسقوفا بقرميد مبرهج... حسنا، يمكنك أن تتصور الآن لمن هذا المنزل». ويضيف بابلو: «ترى ملهى وعند مدخله تركن ثلاث سيارات فخمة، وبداهة نفكر: ما الذي يحصل هنا». ويذهب واحد آخر من سكان فيلانوفا إلى أبعد من ذلك: «إذا ما رأيت شابين يتناولان الطعام سوية في مطعم وهما نوعا ما معروفان أنهما غنيان، فسوف تشك على الفور. ما الذي يفعلانه سويا؟ أو إذا رأيت واحدا تعرف عنه أنه متورط يتناول مشروبا مع رجل أعمال، فسوف تفهم سريعا ما الذي يجمعهما».

إن مشكلة العصابات أنها لا تعمل في بيئة منعزلة. إن ما يفعلونه وما كانوا يقومون به طوال سنوات أثر وما زال يؤثرعلى كل المنطقة. يقول آبيل، وهو من سكان فيلاغارسيا: «وحوش! إن كمية المخدرات الموجودة هنا هي كمية وحشية. من السهل الحصول على الكوكايين أكثر من أي مادة أخرى، حتى الحشيش». منذ سنوات، لم يكن من الغريب الدخول إلى مكان في فيلاغارسيا ورؤية خطوط الكوكايين مجهّزة بشكل متوازي على طاولة البليباردو. في كل حمامات غاليسيا كان هناك - ولا يزال - فتحات في الأبواب، لكي يرى المرء ما الذي يحصل في الداخل. يكمل آبيل: «أتذكر أني دخلت ذات ليلة إلى حمام أحد النوادي، وبينما كنت أغسل يدي، بللت من دون قصد كمية هائلة من خطوط الكوكايين المجهّزة. اللعنة! إنها موضوعة هناك ولا أحد هناك! لقد افترضوا بالطبع أن ما من أحد يستطيع لمسها. خرجت من هناك وذهبت بعيدا».

يستمر وشاح العار حتى في أماكن بعيدة عن الحدود. تقول فيرونيكا: «إذا قلت في مدريد أو في مكان آخر من إسبانيا إنك من فيلاغارسيا، فإما سيتندرون عليك أو سيطلبون منك الكوكايين، بكل

جدية. لقد طلبوا مني ذلك آلاف المرات بمجرد سماعهم لهجتي».

إن كمية مثل هذه من المخدرات في مساحة محدودة لا شك أنها تؤدي لنتائج قاسية. من مظاهرها مثال شاب غادرته قواه في عام 1993، بعد أن كان عالقا في الهيروبين والكوكايين لمدة ثلاث سنوات. بعمر الخامسة والعشرين، قرر أن يضع حدا لعقوبته وشنق نفسه في سجن في كورونيا. «إن ألفونسو، مثل كل شباب أروسا تقريبا، ترعرع محاطا بالمخدرات، وكان ضحيتها». تشرح ميلاغروس قصته في صالون منزلها وهي لا تزال مصدومة مما حل به: «إن المذهل في الأمر هو أن ألفونسو هو الأكثر هدوءا بين كل أبنائي. هو من يُقال عنه: لن يعاني من أي مشكلة عند نضجه». لكن دائما ما سيكون هناك «لكن» في منطقة المصب. «سأعطيك مثالا: بعمر السادسة عشرة، التحق ألفونسو بفرقة موسيقية للمدرسة البحرية العسكرية في مارين. أرسلناه إلى هناك لكي يبتعد عن المشاكل. بعد ذلك علمنا أن الملازم كان يبيع المخدرات للشباب». لم تستطع ميلاغروس أن تكمل وبكت.

يكمل زوجها ألفونسو: «إن المذهل في الأمر أن كثيرا من الآباء لا يزالون يبيعون. أعرف أناسا من أروسا خسروا أبناءهم بسبب المخدرات ولا يزالون يعملون في تهريبها». إن ثقافة المخدرات لم تتمتع بالكثير من المبادئ. «لطالما كنا نعرف هنا أبناء تجار مخدرات مدمنين». في التجارب اليومية لميلاغروس وألفونسو في «مشروع الرجل» نجد الوجه الخلفي للمخدرات، الحقيقة المرة التي تجرد هذه الرواية من أي شكل من أشكال الرومانسية وتقدمها قاسية بدون زينة ولا أدب. «أتذكر أنه ذات يوم أخذنا شابا إلى منزله. كان الشاب غارقا في الإدمان، وكان في ذلك اليوم مرميا في الشارع على وشك الموت. رفعناه ووضعناه داخل السيارة، وأخذ يرشدنا قدر استطاعته إلى منزله. وصلنا، وساعدتنا أمه على وضعه على السرير. كانت محطمة، كانت تبكي وفي يدها منديل. يتوضع أمام منزلهم ثلاثة قصور. كان هناك سيارات مرسيديس وسيارات دفع رباعي مركونة في الداخل. أشارت الأم بإصبعها وقالت لنا: «ذاك وذاك وذاك». إن من أرشدوا ابنها إلى طريق المخدرات كانوا يعيشون على بعد 30 مترا منها.

***

لقد ترك «الدقيق الأبيض» أثرا قويا جدا في كل المنطقة. إن الأموال التي استُثمرت وتُستثمر في منطقة المصب والتي تنحدر من تهريب المخدرات لا يمكن عدّها. مئات الأعمال والشركات والكافيتيريات ونوادي الديسكو والمتاجر التي نشأت بفضل أموال التهريب. تحولت اليوم إلى مؤسسات قانونية، لكنها ولدت بفضل عملية إنزال كوكايين أو حشيش. يقول خوسه فاسكيس، عمدة فيلانوفا في الثمانينات:

«إن ما أقوله خطير، لكن قليلة جدا الشركات التي لم يكن لها علاقة يوما ما بتجارة المخدرات، إن ما أقوله مكلف ومؤلم للغاية على الصعيد الشخصي، لكنه للأسف الحقيقة». في العام 2(صنفت الجمارك نحو مئة مؤسسة في فيلاغارسيا تُستخدم كغطاء من أجل تبييض الأموال. بعد موته صودر 124 عقارا في المقاطعة يمتلكها «باتوكو»، ربان الزوارق. حسب دراسة نشرتها في عام

1997 المنبر الغاليسي لتجارة المخدرات: يملك مهربو المخدرات 80 في المئة من الأعمال الفندقية في أروسا. بالمناسبة، إن المسؤول عن هذه الدراسة هو صديق لألفونسو، زوج ميلاغروس. عندما خرج من محاضرته في فيلاغارسيا، وجد عجلات سيارته مثقوبة.

كان هناك كافيتريا في فيلانوفا (التي يبلغ عدد سكانها 10500 نسمة)، عندما كانوا يأتون ليقوموا بتفتيش فيها، كانوا يقولون للمفتشين أنهم يبيعون ألفي فنجان قهوة في اليوم. تقول ميلاغروس:

- إن أولئك الناس يحصلون على أموالهم من المخدرات والآن يجب أن ننظر إليهم من هذا المنظور، من سياراتهم الفخمة ومنازلهم، كما لو أنهم رجال أعمال ناجحون.

- ألا تخافين من الإشارة إلى ذلك؟

- أخاف؟ أنا لا أخاف منهم. لقد خسرت ابني، ومعه خسرت خوفي.

من الصعب المحافظة على الاستقامة الأخلاقية عندما تكون 80 في المئة من الملاهي على علاقة بالمخدرات. تكمل فيرونيكا: «إنني لا أدخل ملهى أعلم أن له علاقة بهم. وهناك كثيرون مثلي، وكثيرون أيضا لا يبالون. قد تكون المسألة أحيانا أنك لا تعرف، وفي مرات أخرى تكون المسألة أن لا خيار لك لأنه المكان الوحيد الموجود». تؤكد ميلاغروس: «أعتقد أني أنا أيضا دخلت ذات مرة إلى ملهى تعود ملكيته إلى تجار المخدرات من دون أن أعلم، من دون أن ألاحظ، لأن كل شيء هنا تقريبا يعود لهم. لكني أحاول أن أتأكد لمن يكون كل عمل تجاري. إن ذلك كل ما يمكنني فعله...» تشرح ميلاغروس أنه عندما يدخل أحد ما إلى متجرها حاملا أكياسا لمتجر آخر يعود لتجار المخدرات، تقوم بتغيير الأكياس. إنه ليس سلوكا اعتياديا: «الأمر سيان بالنسبة إلى الناس، لا مشكلة لديهم من الشراء من متاجر يمتلكها تجار المخدرات. هناك آباء أبناؤهم في «مشروع الرجل» ولا يزالون يشترون من متاجر تجار المخدرات». وتضيف شيئا واضعة إصبعها على الجرح: «هل تعلم أنهم في السابق كانوا يغضون النظر عن تجار المخدرات؟ وها هم الآن يغضون النظر عن أموال تجار المخدرات».

***

تذهب الممتلكات المصادرة من العصابات إلى الخطة الوطنية لمكافحة المخدرات، لكن هنالك مشكلة عالقة تحتاج إلى حل: تراكم جزء من قيمة هذه الممتلكات وخسرت قيمتها، ولا سيما القوارب التي وضعت في المخازن حتى تعفنت. حصل ذلك سابقا في الثمانينات، وليس هنالك حل بعد. فليس من الممكن إدارة أو بيع الأملاك المصادرة التي تعود لتجار المخدرات حتى صدور حكم مبرم، ومن المعتاد أن تتأخر الأحكام سنوات. إن مخزن صندوق الممتلكات المصادرة في كورونيا مليء بالسيارات الفخمة والقوارب والمحركات الصدئة. حتى أن ثلث تلك الممتلكات قد خضعت للتفكيك في السنوات الأخيرة حسب معطيات من الصندوق نفسه. يقول فيرناندو ألونسو: «إن نساء وأبناء الموقوفين لا يزالون يقودون الـ BMW عبر شوارع فيلاغارسيا أو يعيشون في شاليهات فخمة، الأمر الذي يرسل رسالة حصانة. وهذا مؤسف بالنسبة إلينا نحن الذين نقف في الصفوف الأمامية للمواجهة، وخير مثال على ما أقوله أن عائلة «سيتو مينيانكو» لا تزال تتمتع حتى يومنا هذا بممتلكاته

من شاليهات إلى سيارات فخمة.

في الحقيقة، هناك احتمال واحد، طريق واحد لتجنب حصول ذلك. يدعى: الضربة الإستباقية، وهو بديل قانوني يمكن للقاضي من خلاله أن يقوم بمصادرة الأملاك قبل صدور الحكم المبرم. لكن المشكلة تكمن في أن عددا قليلا من القضاة يقومون بذلك، لأن هذا الطريق ينطوي على مخاطر جمة. في عيد الميلاد عام 2013، برّأ القاضي فيرناندو غرانده - مارلاسكا عصابة «الحلوانيين» الأروسانية بعد تراجع الشاهد الرئيسي عن إفادته خوسه لويس فيرنانديس توبيو. ومع هذه التبرئة، رأى القاضي نفسه ملزما بالتراجع عن كل الإجراءات المتخذة بحق الشركات والسيارات والحسابات البنكية. إنه ماستودون بيروقراطي لا يزال على قيد الحياة. يقول خافيير ساراغوسا، المدير الحالي لقوى الجمارك: «ليس من الشائع قيام المحاكم بالضربة الاستباقية. هناك ميل عام للحفاظ على الممتلكات». الأمر الذي يعني أن ثلث الممتلكات المصادرة تنتهي كخردوات.

يقول لويس روبي غاضبا، وهو المحامي الذي أدار قصر بايون: «يجب تطوير الإجراءات. يجب أن نحرم عائلة «مينيانكو» من التمتع بممتلكاتها. كما يجب تسريع هذه الإجراءات. ليس من المجدي القول إنه ما من موارد أو ما من موظفين. إذا لم يكن هناك موارد، فلنشجعها». ويذهب فيرناندو ألونسو إلى أبعد من ذلك: «نريد أن تُجمَّد أموالهم قبل كل شيء، وأن يصبح هذا بمثابة إجراء قضائي معياري، وأن لا يقتصر الأمر على تصرفات فردية من قضاة شجعان. وعلاوة على ذلك، نحن نطالب بتشريع استثمار المصادرات».

إن استثمار المصادرات أمر بعيد المنال. لنشرح ذلك على نحو تقريبي وبعيدا عن اللغة التقنية، إننا نعني بالمصادرات أموال أو أملاك، بالأحرى اشتريت بأموال تعود لنشاطات غير قانونية أو بالأحرى إجرامية، في هذه الحالة: تجارة المخدرات. هنا يجب على الجهات القضائية إجبار مالك هذه الملكيات أن يثبت أن أمواله تعود لنشاطات مشروعة. بتعبير آخر إذا اشتبه قاضٍ بأحد سادة فيلاغارسيا الذي يملك محلا لبيع الفاكهة ولديه ثلاث شاليهات وخمس سيارات، فمن المُمكن له أن يتهمه بالقيام بأنشطة غير مشروعة، وحينئذ، يجب على صاحب محل الفاكهة أن يثبت براءته. إنه نوع من الإدانة الافتراضية التي لا تمس أُسسا دستورية، والتي يرى كثير من السكان أنها الطريق الوحيد للقضاء على تجارة المخدرات، وخاصة بعد سنوات من الحصانة في منطقة المصب (وهم يرون الميكانيكي الذي يعمل في ورشة على الزاوية يشتري ثلاثة منازل على الشاطئ).

أيا يكن الأمر، فليس كل ما فيه أمر سلبي. فثلث مصادرات تجار المخدرات تباع بنجاح. قصر فيستا ريال، الذي كان يعود لآل تشارلين، هو حاليا ملك عام (مهمل بعض الشيء) وهناك في حديقته نصب تذكاري مع لوحة تخليدا لذكرى انتصار المجتمع على المافيا في غاليسيا: «يمكنكم قطع كل الزهور، لكنكم لا تستطيعون إيقاف الربيع (اقتباس من بابلو نيرودا). إحياء لذكرى ضحايا المجتمع الغاليسي الذين سقطوا في المواجهات مع تجار المخدرات». مثال آخر: في القواعد الرسمية التي أرسلتها الحكومة المحلية إلى المرشحين من أجل إعادة تأهيل وإعادة تصميم القسم الداخلي من قصر بايون، ورد بكل صراحة أنه لا يمكن أبدا أن يشير أي شيء إلى مواضيع متعلقة بالمخدرات أو بتجارتها. كان ذلك الموقف هو الأكثر أهمية.

تبدو الشرطة في غاليسيا أيضا أكثر صحة. إن وقوفهم إلى جانب تجار المخدرات طوال سنوات أفقدهم ثقة أهل غاليسيا، ورغم ذلك ليس واضحا إن كانوا تخلوا عنهم حقا: بعد فضيحة صور فيخوو مع مارسيال دورادو على اليخت، لا يزال الرئيس في مهامه، ويبدو أن القضية دخلت طي النسيان. إن تحول المهربين إلى مجرمين ببساطة، أبعد السياسيين عنهم، مما أدى إلى نتيجة سلبية: فقد ابتعد السياسيون عن تلك الظاهرة، وبابتعادهم هذا بدأوا يتجاهلون المهربين وجرائمهم. نعم إن السياسيين يتجاهلون الأمر حقا.

في كانون الثاني/يناير من عام 2014، نُقلت السفينة «فولمار دي أدواناس» من فيغو إلى كاديس. سُمعت أيضا شكاوى من الشرطة ومن الحرس الوطني. يقول قائد في الشرطة الوطنية: «ليس لدينا وسائل كثيرة في الوقت الحالي، وهذا ما يجعلهم يتفوقون علينا. كل شيء يذهب لصالح مكافحة الإرهاب. علينا تقبل الأمر». كما أن الصحافة عانت من التجاهل أيضا كما سبق ورأينا. إن أغلبية الناس في غاليسيا يرون تجارة المخدرات كما لو أنها ذكرى، بدلا من أن يروها حقيقة ماثلة أمام أعينهم، ذكرى بدأت على الشاطئ مع قرصنة السفن، ومع تهريب البنسلين في رايا، وتهريب الخردوات في بايخو مينيو، الأمر الذي تطور إلى البنزين وثبّت أقدامه مع صناديق التبغ، ثم قفز إلى الأعلى وملأ الساحل بأكياس الكوكايين، وهو الآن يبحث عن شقوق يتمكن من خلالها الاستمرار بتهريب الكوكايين بينما يفتح المهربون والتجار مؤسسات وشركات تجارية جديدة لتبييض أموالهم. من سيلسو وتيريتو إلى الحلوانيين وباتوكو، من سيتو إلى أحفاد تشارلين، من السفن إلى الزوارق السريعة ذات الألف حصان.

لا يجب أن ننسى ما لم ينته بعد.

Notes

[1←]

م سفينة.

[2←]

ع من المحار موجود على سواحل شمال غرب أفريقيا وعلى شبه الجزيرة الأيبيرية. (المترجم)

[3←]

كيس: اسم للميلشيات المقاومة ضد نظام فرانكو. (المترجم)

[4←]

رف تهريب التبغ في غاليسيا باسم تجارة الدخان. ويُعرف مهربو التبغ باسم «أسياد الدخان».

[5←]

ي انتخابات 2011، حصل الحزب الشعبي على أغلبية المقاعد: فيلاغارسيا 48 في المئة، فيلانوفا 67 في المئة، كامبادوس 61 في المئة، جزيرة أروسا 46 في المئة. في انتخابات 2015، تضاءل الدعم فجأة، فيلاغارسيا 29,3 في المئة، فيلانوفا 54 في المئة، كامبادوس 45 في المئة، جزيرة أروسا 38 في المئة.

[6←]

تى الآن لم يصدر حكم في هذه القضية، بالإضافة إلى قضية أخرى تتعلق بالتهرب الضريبي في الجزر العذراء. (الكاتب)

[7←]

تا: منظمة قومية إرهابية في إقليم الباسك تدعو إلى استقلال الإقليم. إقليم الباسك منطقة ذات خصوصية إثنية تقع شمال إسبانيا وجنوب غرب فرنسا. (المترجم)

[8←]

كامورا: منظمة إجرامية مافيوية في منطقة كامبانيا في إيطاليا، وأكبر وجود لها في عاصمة الإقليم نابولي. (المترجم)

[9←]

علامة تجارية لنبيذ أبيض مشهورة في غاليسيا. (المترجم)

[10←]

نا متشابهين. (الكاتب)

[11←]

ن الاثنان معروفين باسم «الفيرازو» وانتهى بهما المطاف بتشكيل عصابتهما الخاصة. أدخلت العصابة - حسب القضاء - بين عامي 1982 و1983 أكثر من 3.5 ملايين علبة سجائر وباعت الصندوق الواحد بـ 30 ألف بيزيتا (180 يورو). (الكاتب)

[12←]

ـرعة كائنات بحرية تقع على البحر، مخصصة لسرطان البحر والقشريات الأخرى المخصصة للاستهلاك. (الكاتب)

[13←]

جمل: كناية عن موزع الحشيش والمخدرات. (المترجم)

[14←]

إيقافه من قبل الشرطة لكونه المرسل إليه في عملية إرسال أسطوانة معدنية عبر شركة زائفة في بيليس، مؤسسة مشاريع البحر الكاريبي. كان قد أُخفي في الأسطوانة 3 كيلو من الكوكايين. بين عامي 1975 و1981 عمل إرنيستو رودريغيس غالفيس مسؤولا عن العلاقات العامة للمغنيين خوليو إغليسياس، وخوان مانويل سيرات، وكاميلو سيستو. أوردت جريدة إل باييس في 8 نيسان/أبريل عام 1989: «تاجر مخدرات مزعوم عمل مع خوليو إغليسياس وسيرات وكاميلو سيستو». (الكاتب)

[15←]

تُخدم هذا المصطلح على نحو مهين في غاليسيا للإشارة إلى سكان الريف الذين هاجروا إلى المدن. في الوقت الحالي، يرادف هذا المصطلح كلمة ريفي. (الكاتب)

[16←]

كيتش: من يدّعي أنه أنيق ومتميّز وحديث، لكنه في الواقع ذو ذوق سيئ وعفا عليه الزمن. (المترجم)

[17←]

نون الصمت أو الأميرتا (كلمة إيطالية omertá) هي عرف في صقلية يمنع التبليغ عن النشاطات الإجرامية التي تعتبر أمورا تخص الأشخاص المتورطين. (المترجم)

[18←]

ـية في الصيد تتم عبر السحب. (الكاتب)

[19←]

رح الكولونيل أيوسو أن القاضي غارسون كان قد أعطاه إذنا لأجل هذا اللقاء. لكن غارسون كان ينكر هذا دائما. (الكاتب)

[20←]

ينفه هي شركة الخطوط الحديدية الرئيسية في إسبانيا، المشغل الوحيد في إسبانيا لرحلات الخطوط الحديدية في «شبكة المصالح العامة»، وواحدة من مشغلي نقل البضائع. (المترجم)

[21←]

ن «كارايّان» المسؤول عن قيادة عمليات الإنزال في منطقة المصب. كان هو بنفسه يجلب القوارب ويقود الزوارق. ومع السنوات تحول إلى خبير بنقل المخدرات، وبعد تفكيك منظمة أوبينيا، قفز إلى الخط الأول. قُبض عليه عام 2001، عندما صعدت مجموعة العمليات الخاصة على متن قارب صيد في عرض البحر، وكان القارب يحتوي على 1800 كيلو من الكوكايين على متنه. في عام 2011، في الإذن الأول خلال عشر سنوات الذي سمح له بالمغادرة من السجن في نهاية أحد الأسابيع، هرب إلى كولومبيا من دون النظر إلى الخلف. (الكاتب)

[22←]

مع خوسه بينيتو أوقفت زوجته ماريا بيلار باس سانتوروم. بعد سنوات أوقع بابنهما أيضا. بقي بينيتو متأملا حكما لم يحظ به أبدا: في سنة 2007 مات جراء نوبة قلبية بينما كان يقود إلى سيناس، بالقرب من فيلانوفا. (الكاتب)

[23←]

ن القارب يجوب البحر الكاريبي عندما قامت طائرة كولومبية صغيرة برمي عشرات أكياس الدقيق في البحر. قام الطاقم بتجميعها ووضعها على متن القارب. وبالقرب من هناك كان يبحر قارب آخر مُستأجر من قبل آل تشارلين، يدعى «ديل سور» (= الجنوبي)، كان دوره الحماية والتزويد بالوقود والمؤن. بعد شهر من ذلك، عندما كانوا يتوجهون نحو البرتغال، اعترضهم حرس الجمارك، كانوا يبحرون بدون راية. شمل هذا الحكم أيضا شريكة خوسه لويس: كارمين أوبينيا رودريغيس، التي اتهمت بتنسيق عملية استلام البضاعة على الأرض، وشمل أيضا ابنتها: روسا ماريا تشارلين مارتينيس، التي خفف حكمها لأن القاضي رأى أن أباها قد أجبرها على المشاركة في العملية. كان عمرها 9 سنوات حينها. هكذا كان آل تشارلين. (الكاتب)

[24←]

حاولة مزدوجة لوضع ثمانية آلاف كيلو من الكوكايين في منطقة المصب في يخت، انتهى الأمر برمي المخدرات في المياه بينما كانت تلاحقهم دورية من قوى الجمارك. بعد أسبوعين شهد السكان وصول مئات الأكياس إلى الشاطئ مع الأمواج. (الكاتب)

[25←]

تمي لحزب الكتائب الإسباني، حزب سياسي إسباني بعقيدة فاشية تأسس في 29 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1933. (المترجم)

[26←]

ب عبوات تبغ الوينستون. (المترجم)

[27←]

سم يعني حبلا ضخما مؤلفا من 9 حبال ملفوفة حول بعضها البعض بمجموعات كل منها مؤلفة من ثلاثة حبال. (المترجم)

[28←]

سب معطيات خدمة الصحة في غاليسيا. (الكاتب)

[29←]

سب معطيات المسح المحلي للكحول والمخدرات عام 1995، الذي نُفذ في إطار الخطة الوطنية للمخدرات. وكان السؤال: هل استهلكت الكوكايين في الشهور الست الأخيرة؟ 1,4 في المئة أجابوا بنعم في إسبانيا. في سالنيس كانت النسبة 3,3 في المئة، أعلى معدل استهلاك في البلد. وعندما وُضع السؤال حول الهيروويين، وصلت النسبة في منطقة المصب إلى 2,3 في المئة. إن المنطقة التالية في غاليسيا كانت أورينسه، لكن النسبة انخفضت حتى 1 في المئة. (الكاتب)

[30←]

verber حفلة موسيقية وراقصة تُقام في الهواء الطلق مساء، بشكل عام في أمسيات بعض الأعياد الصيفية. (المترجم)

[31←]

club de altern وهو بار يشتري الرجال منه مشروبات لنساء شابات لأجل محادثة أو لفت انتباه وفي بعض الحالات ممارسة الجنس. (المترجم)

[32←]

ب للبيض القادمين من أميركا الشمالية. (المترجم)

[33←]

ظمة GAL: اختصار لـ Grupos Antiterroristas de Liberación، مجموعات مكافحة الإرهاب التحريرية، وهي عبارة عن تجمعات سياسية رديفة تشارك في ما يسمى «إرهاب الدولة» أو «الحرب القذرة» ضد المنظمة الإرهابية الباسكية (ETA) وما يحيط بها. كان أفرادها ناشطين بين عامي 1983 و1987، خلال السنوات الأولى من حكومة فيليبه غونساليس. وخلال العمليات القضائية ضد هذه المنظمة، وُجد أنها كانت تموّل من قبل مسؤولين رفيعين في وزارة الداخلية. (المترجم)

[34←]

المحامي أرغوته من قبل القاضي بجريمة إخفاء الحقيقة، وذلك بسبب تمريره لمعلومات موثوقة إلى وزير الدولة لشؤون الأمن، رافايل فيرا. (الكاتب)

[35←]

نتيجة لاتفاق فيينا عام 1988، طبقت إسبانيا القانون 1/1988 الذي تم من خلال تعريف تبييض الأموال المقتصرة على الأموال الآتية من تهريب المخدرات للمرة الأولى في إسبانيا. (الكاتب)

[36←]

في عام 1995، نُفّذت عملية إصلاحات جديدة للقانون، مما سمح بتوسيع مجال الاشتباه بتبييض الأموال وتغطية أنماط أكثر من النشاطات. (الكاتب)

[37←]

في الغاليسية، تعتبر الـ o «أو» كـ «ال» التعريف. (المترجم)

[38←]

من المفروض أن أبراهام خورخه لوبيس كان قد خرج للقاء قارب إل بونغو، وهو من مدينة لوغو من بورتومارين، مهرب تبغ أراد أن يرى حظه مع الكوكايين. بينما كان الكولومبيون يعبرون الأطلسي، حاول «القزم» أن يتعاقد مع قارب من أجل جلب البضائع، لكن جميع الاتصالات فشلت لأسباب مختلفة. في النهاية، وجد قارب خافير وكابوته، الذي صدف وكان كمينا من الجمارك. هكذا قُبض على أبراهام وعلى زوجته الكولومبية. وجدوا في منزله في لوغو خرائط بحرية وهواتف تعمل على الأقمار الصناعية. حُكم عليهما بالسجن لمدة 15 سنة. (الكاتب)

[39←]

في المخدرات التي أراد بينييرو وتريوس إنزالها عبر مرفأ كورونيا، كان يفترض جلبها عن طريق قارب آخر، قارب برايدون - إيدر، الذي كان ينتظر أمام شواطئ كورونيا. نسق العملية كل من فيرناندو فيدال بان وأنتونيو رودريغيس كاريداد - وهما من الخطوط الثانية، وصديقان قديمان لأوبينيا - اللذين قررا أن يقوما بخطوة نحو الأمام. في الثالث عشر من أيار/مايو قُوِّضت خططهما بسبب غارة ألقت بهما في السجن. بالإضافة إلى فيدال بان وأنتونيو رودريغيس، سقط رجال أعمال مشهورون من غاليسيا، مثل خوان ماريا مارتينيس فيدال وخوان كارلوس كابيرو مارتينيس، صاحبي شركة بيسكاروسا، شركة صيد سمك وكائنات بحرية في فيلاغارسيا، وأيضا خيسوس ماريّا كارّو، صناعي من كامبادوس. حتى أن سمعة إدارة مرفأ كورونيا تشوهت بسبب ما حصل. من الموقوفين الآخرين كانت مجموعة معارف قدماء للشرطة، مثل رامون كوريس كالديلاس - الذي تحرر من عملية نيكورا - أو رامون بوغايّو، قريب لـ «سيتو مينيانكو». (الكاتب)

[40←]

رافق الزعماء ثمانية تجار مخدرات من غاليسيا قاموا برمي الأكياس في البحر، لكنهم لم يستطيعوا تجنب الإيقاف. أرسل القاضي بويرين 20 عنصرا من الشرطة الوطنية إلى بويرتو ريكو لأجل استلام المقبوض عليهم ومحاكمتهم في إسبانيا. (الكتاب)

[41←]

في العملية ضد الألسا انتهت بـ 18 موقوفا، من بينهم خوسه لويس تورّادو، عضو قديم في عصابة «سيتو»، وصاحب السفن الكوروني رافايل فيرنانديس «لوتشو». (الكاتب)

[42←]
ونغيرون كائن رخوي شبيه بالمدية، أكبر بعض الشيء ولديه قوقعة أقسى. (المترجم)

[43←]
ع من القشريات البحرية ذات الجسم الأسطواني الطويل ورؤوس تغطيها قشرة مدعمة بألواح من الحجر الجيري. (المترجم)

[44←]
د سنة، كما سبق ورأينا، ألقت البحرية الأمريكية القبض على ترويس كاستيلو أمام سواحل فينزويلا ونُقل إلى إسبانيا من بويرتو ريكو. (الكاتب)

[45←]
سيارة، كما سيكتشف التحقيق بعد سنوات، كانت على اسم ألفريدو بيا غوندار: عمدة غروفه، عضو في الحزب الشعبي. ستصدر المحكمة العليا بعد سنوات عفوا عن غوندار (الكاتب)

[46←]
جل هذه المناسبة، قدّم «كارايان» السفينة غراند أدميرال لنقل البضاعة، وكان هو نفسه من أخذ السفينة من البرازيل حتى منطقة المصب في غاليسيا. ومن هناك، أحضر خوسه لويس فيرناديس فيغا - الملقب «الفرنسي» - البضاعة في زورق، وهو تاجر مخدرات من فوس كان يتعاون مع عضو الحرس الوطني السابق. كان خوسه سانتوروم فينياس ينتظر فوق منصة بحرية في المصب عند أروسا، وهو الذي يُلّقب «الكلب» (والذي سبق لنا وتعرفنا عليه أيضا). (الكاتب)

[47←]
كم على دانييليتو كاربايو من قبل غارسون في عملية عام 1991 التي أوقفوا فيها سيتو مينيانكو، تلك الغارة على الشاليه الأمن الخاص بالزعيم في بوسويلو دي ألاركون، حيث قال سيتو: «اللعنة! لقد تمكنتم مني الآن». (الكاتب)

[48←]
را تاجر مخدرات مخضرم محكوم بسبب تهريب المخدرات في سويسرا شخصيا. (الكاتب)

[49←]
لى سبيل المثال، فقط في حرب المافيا الصقلية بين عامي 1981 و1982 قتل 1700 شخص (وفق معطيات من أتيليو بولزونيو، صحفي من جريدة الجمهورية). في مقابلة مع جوت داون، يؤكد بولزونيو: «إن حرب المافيا كانت إبادة عرقية». (الكاتب)

[50←]
بير يعني أن الشخص غير أصيل ولا يمتلك لصفات أساسية أو غير حقيقي. (المترجم)

[51←]

ن المفترض أن قارب الأبرينته كان مخصصا لصيد سمك الإسبادا (النصل) والقرش. كان يصيد في جنوب جزر الكناري، لكن عندما كان يعود إلى كامارينياس، بالكاد كان يجلب أسماكا. لم يبدُ الزعيم مانويل مارتينيس الملقب بولولو قلقا. ولم يكن كذلك البحارة أيضا. كان لديهم أسبابهم: إذا نجح ما اقترحه عليهم مانولو الكتلاني، فسينسون أمر سمك الإسبادا بقية حياتهم. في الحقيقة، من الممكن أنهم تركوا قارب الأبرينته راسيا في المرفأ حتى يوم العملية، لكن كان عليهم أن يموهوا الأمر (ظل معظم الصيادين الذين قرروا العمل في عملية التهريب هذه يخرجون مع باقي الأسطول). في التاسع عشر من شباط من عام 2001، حمّل الأبرينته الأكياس بعد يومين من الإبحار من الكناري. بعد ساعات من الانطلاق نحو غاليسيا، هاجمهم قارب البيتريل، التابع لقوى الجمارك. رمى الطاقم الأكياس من القارب، لكن البيتريل أطلق على الفور نظام عوامات أبقت البضائع عائمة على السطح. لقد تغير الزمن. على اليابسة، في الوقت نفسه أوقفت الشرطة مانولو الكتلاني وبانارّو، الذي سيعود إلى السقوط مجددا بعد عامين في بحر الجنوب. لم يدن الاثنان بعد أن رفضت القاضية تسجيلات التنصت الهاتفي ولم توافق على كونها دليلا على تورطهما. في واحدة من تلك المكالمات، بين الكثير من المكالمات، كانوا يتنصتون على زوجة الزعيم، التي أشارت بشكل رمزي إلى خروج دورية بيتريل بقولها: بولولو، خرجت ماروخا من المستشفى». (الكاتب)

[52←]

د أيام، عندما كانوا على وشك الوصول إلى غاليسيا، ظهر البيتريل التابع لقوى الجمارك وبلغت المصيبة ذروتها. بين طاقم قارب الصيد، وجد العناصر خواكين مونتانييس بورتو، ابن مدير فرقة موسيقية من كامبادوس وعضو قديم في عصابة آل تشارلين. حُكم عليه في عملية نيكورا، لكن لم يتعلم الدرس على ما يبدو: في عام 1999، أُطلق عليه تسع عيارات نارية في رجليه في إطلاق نار مع مهربي هيروين برتغاليين. (الكاتب)

[53←]

خيل تويران ماسيده، تاجر مخدرات من لوغو بدون سوابق في التسعينات، كان هو من نظم العملية بجانب مانويل راي فيلا «سوردو»، مهرب تبغ قديم من فيلاغارسيا كان يملك مصنع نبيذ. كسرت الرغبة سوردو وقرر أن يتحول إلى المخدرات، حيث كان عليه أن ينزل طنين من الكوكايين القادم من عصابة كالي وتمريرها عبر أورسا. وضع صانع الخمر 70 ألف يورو فوق الطاولة، وساهم في ذلك قاربان: اليخت «نجمة المحيط» وسفينة الصيد رابانوي. حمل الأول الأكياس من السفينة الأم الفنزويلية في أسوريس، والثاني كان يحمل على متنه الوقود لتزويد اليخت. لكن بعد برهة من نقل الكوكايين، تعطّل اليخت، وكان عليهم أن ينقلوا الأكياس إلى رابانوي. قرروا أن يسحبوا القارب المُعطّل، لكن ذلك أدى لحصول ثقب.

[54←]

انت العملية على وشك أن تُلغى، لأن الغاليسيين لم يجدوا رجل ثقة. لم يرغب أحد بالذهاب إلى كولومبيا كضمانة بشرية. في النهاية، أرسلوا فرانسيسكو رودريغيس فولغار، الذي كان في كالي لمدة ثلاثة أشهر حتى سئم من الأمر. اتصل بكارايان وهدده بأنه سوف يفضحه. حيث أنهم اضطروا لإرسال بديل: بيلارمينو هيرمو، الملقب «باخارينيو» من بويرو. غادر في شباط/فبراير من عام 2002، وعندما أخذ قارب الصيد «مينيات» الحمولة بعد 15 يوما، أخلوا سبيله. ربما قبل الوقت اللازم، فقد هاجمت مجموعة المهام الخاصة قارب المينيات عندما كان يبحر رافعا العلم الفنزولي أمام الرأس يتجه صعودا نحو وجهته. (الكاتب)

[55←]

قط في ذلك اليوم أيضا خوسه خواكين أغرا، الملقب «بانارو»، وهو وجه معروف للشرطة وقائد عصابة من كامبادوس تدعى البانارس. قُبض عليه مع ابنه، خورخه أغرا. (الكاتب)

[56←]

حالف «سارو» على الفور مع خوان كارلوس فيرنانديس كوريس، الملقب «باريدو»، وهو ابن أخ الزعيم التاريخي نارسيسو فيرنانديس هيرميدا، الملقب أيضا «باريدو»، والذي حوكم في عملية نيكورا. يكفي أن نقرأ الحكم الصادر في عملية نيكورا، وأن نتبع الخيط لنرى أن كل العصابات الجديدة تقريبا كانت قد شكلت ميراثا أتى على نحو مباشر أو غير مباشر من أولئك الزعماء. كان «باريدو» زعيما لعصابة أخرى من ربابنة الزوارق تحت ظل منظمة «باتوكو». (الكاتب)

[57←]

حكى في منطقة شاطئ الموت، أنه لا يزال هناك بضائع مخفية في حفرة في منطقة ذاك الإنزال. في العام 2009، أكد خوسه مانويل فاسكيس، رئيس جمعية فييرو لمكافحة المخدرات، أنه «هناك بضاعة مودعة في إحدى قرى المنطقة»، ويضيف أنه «هناك في قاع البحر كثير من البضائع». في العام 2012، أطلق قاتل مأجور كولومبي النار في موخيا على خوسه رامون سانتوس لوبيس «بيتشون»، وهو تاجر مخدرات شريك لعصابة اللولو، وتكّهنت الشرطة أن الدافع هو تصفية حساب بسبب بضائع مخفية. (الكاتب)

[58←]

راجع فصل «عنف المخدرات». (الكاتب)

[59←]

هرب الأب الكبير للباناروس، خواكين أغرا، من السلطات في العام 2008. وجده عناصر الـ GRECO بعد سنتين يخرج من كافيتريا في بونتيفيدرا. كانت لحيته طويلة ويضع قبعة ونظارات شمسية، وكان وزنه قد ازداد. حكم عليه بالسجن لمدة عشرين سنة. راقبت الشرطة عن كثب بقية أبنائه، أحدهم: خورخه أغرا، اغتيل في الباراغواي عام 2004، بعد أن كان قد هرب - على ما يبدو - ومعه أموال العائلة. (الكاتب)

[60←]

القوى المسلحة الثورية في كولومبيا - جيش الشعب، مليشيا مسلحة ناشئة من خلفية يسارية متطرفة ماركسية - لينينية. (المترجم)

[61←]

تعود أسباب الإفراج من الدرجة الثالثة إلى أسباب شخصية حيث يستطيع المُفرَج عنه التمتع بنظام حياة بحرية مشروطة. (المترجم)

[62←]

هو الحادث الذي اعتقدت الشرطة على الفور أن له علاقة بعملية إنزال الكوكايين في العام 2006 لصالح عصابة اللولو ودافيد بيريس - وريث أوبينيا، حيث يُظن أنه ما زال هناك كميات مخفية في حفر في المنطقة. (الكاتب)

[63←]

تشانفاينا: طبق إسباني تقليدي شهير يتكون من لحم الخروف والدم المطبوخ والبصل والثوم والغار والفلفل.

(المترجم)

[64←]

ضية البطل: افتُتحت عام 2011، وحققت في مؤامرة تراخيص إعانات غير نظامية مفترضة لقاء رسوم للحصول على وظائف عامة. أعلن رجل أعمال المستحضرات الدوائية خورخه دوريبو أنه كان قد التقى مع وزير التنمية في ذلك الوقت خوسه بلانكو لكي يدفع بعض الجهود إلى الأمام لصالح وزير المالية. ولأجل هذا الاجتماع، كان قريب خوسه بلانكو قد دفع - من المفترض - 20 ألف يورو. في عام 2013، حفظت المحكمة العليا القضية ضد خوسه بلانكو. (الكاتب)

[65←]

نون الصمت الصقلي: عرف اجتماعي يمنع أي أحد من أن يدلي بأي معلومة عن النشاط الإجرامي للمافيات. (المترجم)

[66←]

وابط زواج بين أشخاص من نفس المرتبة أو الطبقة أو الفئة الاجتماعية أو العرق. (المترجم)